سِلسِلة ياروندا

النّاسِك المغبُوط بَاييسيُوس الآثوسِي

-٣-

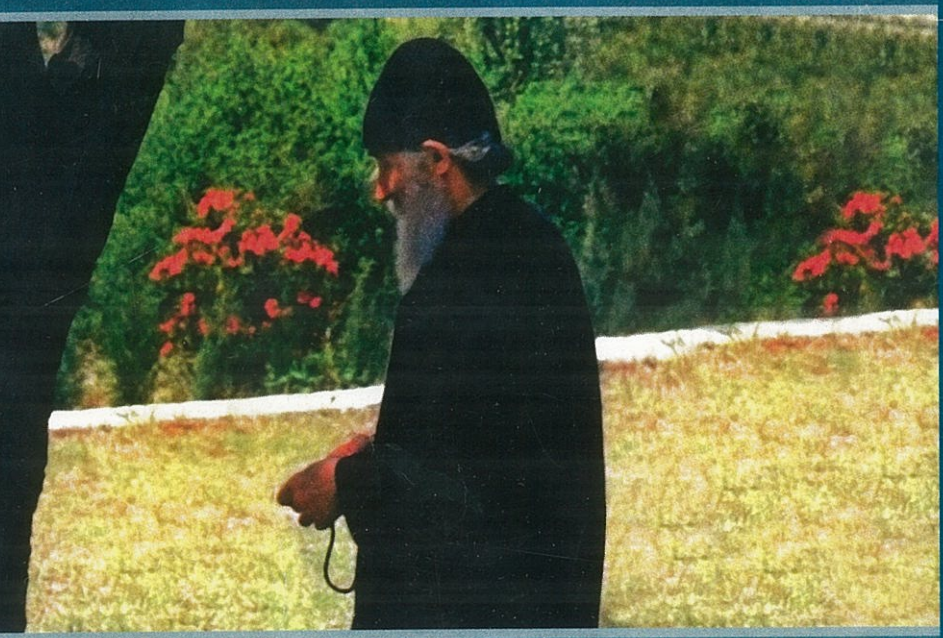

ضِدّ المُستَأجر الشّرّير في دَاخِلنا

الجِهادُ الرّوحي

الاعتِراف وَدور الأب الرّوحي

ترجَمة

ديرُ الشفيعة الحارّة

الحرش - بدبا - الكورة

أصدر هذا الكتاب

دير الشفيعة الحارّة - الحرش - بدبا - الكورة

ببركة من الناشر: دير القديس يوحنا الإنجيلي – سوروتي اليونان

٢٠١٣م

سِلسِلَة **ياروندا**

النّاسِك المغبُوط بَاييسيُوس الآثوسِيّ

-٣-

ضِدّ المُستَأجِر الشّرّير في دَاخِلنَا

الجِهَادُ الرّوحيّ

الاعتراف ودور الأب الرّوحيّ

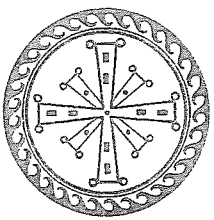

ترجمة

دير الشّفيعة الحارّة

الحرش - بدبا - الكورة

المحتويات

تمهيد ٩

القسم الأول
حرب الأفكار

الفصل الأول
الأفكار الحسنة والأفكار السيئة ١٩

الفصل الثاني
أفكار التجديف ٣٣

الفصل الثالث
الثقة بالفكر ٤١

الفصل الرابع
الجهاد ضد الأفكار ٥٥

القسم الثاني
العدل والظلم

الفصل الأول
قبول الظلم ٧١

الفصل الثاني
التبرير يطرد نعمة الله ٨٣

الفصل الثالث
العدالة الإلهية والعدالة البشرية ٩٧

القسم الثالث
الخطيئة والتوبة

الفصل الأول
الخطيئة تعذب الإنسان ١١١

الفصل الثاني
عمل الضمير ١٢٣

الفصل الثالث
متابعة ومعرفة ذواتنا ١٣٥

الفصل الرابع
الشعور بالخطايا يحرّك مشاعر الله ١٤٥

الفصل الخامس
التوبة تملك قوّة كبيرة ١٥٧

القسم الرابع
قوات الظلام السوداء

الفصل الأول
السحر ١٧١

الفصل الثاني
في ما يختصّ بالمسكونين من الشياطين ١٨٥
الفصل الثالث
الضلال المخيف ٢٠٣
الفصل الرابع
مُضِلّون وضالّون ٢١٩

القسم الخامس
قوة سر الاعتراف

الفصل الأول
ضرورة المرشد الروحي ٢٣٣
الفصل الثاني
ممارسة سر الاعتراف ممارسة صحيحة ٢٤٥
الفصل الثالث
الأب الروحي طبيب النفس ٢٥٧
الفصل الرابع
عمل الأب الروحي على النفوس ٢٦٧

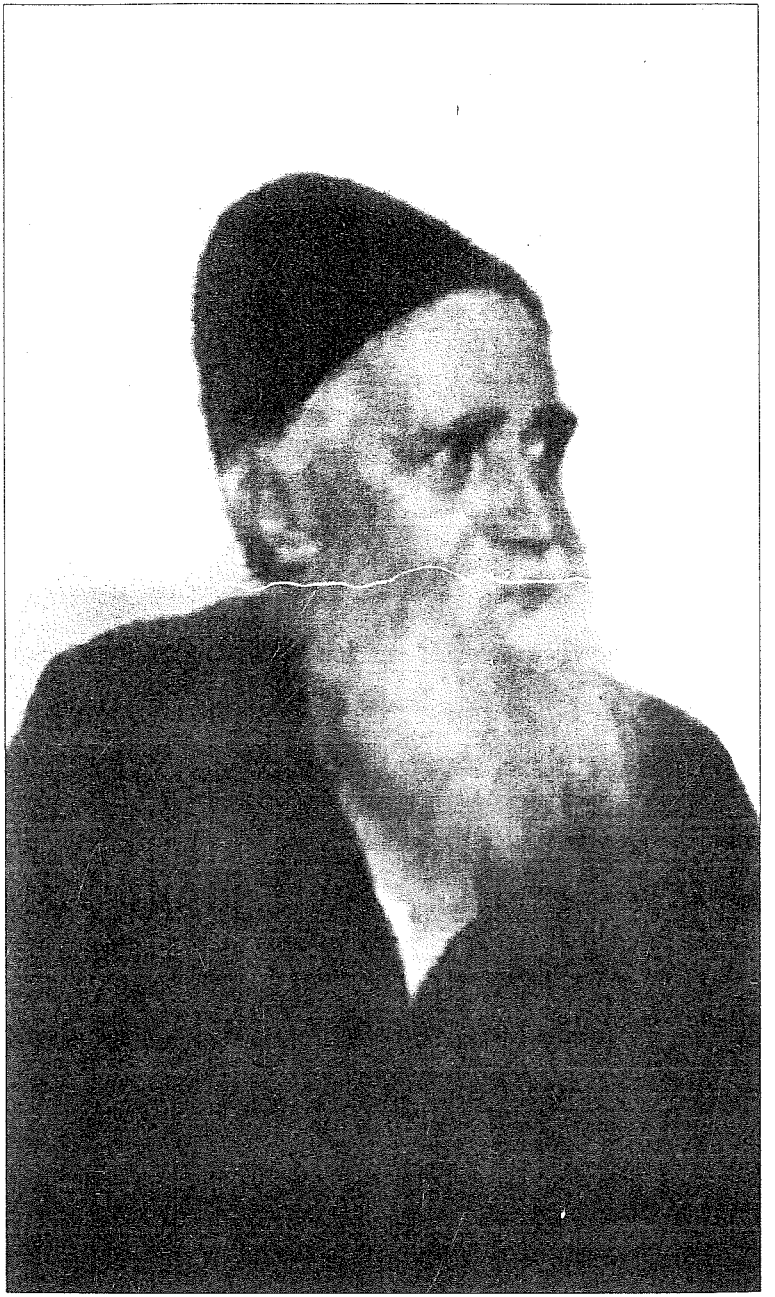

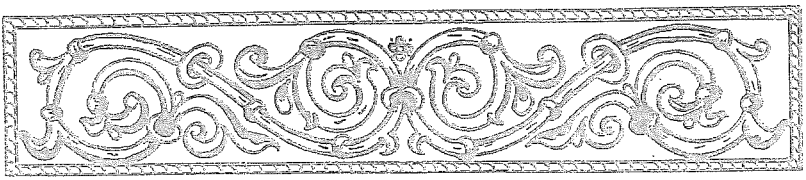

تمهيد

كان الشيخ الناسك باييسيوس يشدّد على ضرورة التوبة والإعتراف بعد أن رأى، في أيامنا هذه، أن «الخطيئة أصبحت موضة». ويظهر ذلك جليًا في الجزء الثاني من هذه السلسلة (اليقظة الروحيّة) حيث يقول في القسم الأخير: «التوبة والإعتراف تفوق ضرورتها اليوم كلّ ضرورة، وذلك لقطع الحقوق التي أعطاها الناس للشيطان والتي من نتائجها سحق العالم».

كثيرون، بفضل مساعدته، توجهوا للمرة الأولى إلى سرّ الإعتراف فغيّروا نمط حياتهم، وجاهدوا كأولاد لله متفانين، وعاشوا منذ الآن في الفردوس.

«الناس كثيرو الصلاح، يقول الشيخ الناسك باييسيوس بفرح، ولم يحدث قط أن قلتُ لإنسان إمضِ للإعتراف وأَحْجَمَ عن ذلك». طبعًا هنا تلعب محبتهُ الكبيرة دورَها الفاعل في تغيير نفس الإنسان فيحوّلها من أرض قاحلة إلى أرض مثمرة.

هذا الجزء الثالث الذي طُبع بصلاة وبركة راعينا الجديد متروبوليت كاساندريا الكلّي الوقار السَّيد نيقوديموس، يتناول موضوعات يمكنها

مساعدة الإنسان الخاطئ المعذَّب فيقتني الاضطراب الحسن ويجاهد روحيًا للتحرّر من أغلال الخطيئة. وعندما يعيش في التوبة يخلع إنسانه العتيق – «المستأجر الشرّير في داخلنا» – فيهدم المنزل القديم ويبني على أنقاضه منزلًا جديدًا – الإنسانَ الجديد.

يعتقد الآباءُ أن الفكر الشرّير هو بدايةُ الخطيئة، لذلك فإن القسمَ الأول يتناول مختاراتٍ مما قاله الشيخ بخصوص الفكر: «الأفكار تشير إلى حالتنا الروحيّة»، والفكر الحسن يتحلّى بقوّة هائلة قادرة على تغيير الإنسان روحيًا. أما الفكر الشرّير فيعذّب الإنسان. وعندما يَطْرُدُ الإنسانُ الأفكارَ الشرّيرة وينمّي الأفكارَ الحسنة فإن الذهنَ يتطهَّرُ وتَسكنُ النعمة في القلب.

القسم الثاني يذكر البَرَكة الكبرى التي يتقبلّها الإنسان من الله عندما يُظلَم، ويواجه الظُلْمَ بشجاعة. هذه الحقيقة يجهلها الناس بمن فيهم الروحانيّون. يبرّرون ذواتِهم ويتوصَّلون أن «يُبدعوا إنجيلًا خاصًا بهم»، وبهذا يبتعدون عن الله؛ لأن العدالة البشرية لا تمتّ بصلة إلى الحياة الروحيّة. فإن شئنا إقامة علاقة مع الله، فينبغي اقتناء العدالة الإلهية التي في داخلها «تفانٍ ونبل وتضحية».

القسم الثالث من الكتاب يتناول الخطيئة التي تجعل الحياة على الأرض جحيمًا والتي قد تنقلب نعيمًا بواسطة الجهاد الروحي. إن شاءَ الإنسان «الخروج من ظلمة الخطيئة» عليه أن يفحص ضميره – الناموس الروحي الأول –، وأن يَعِيَ زلّاته بتواضع، فيسير عندها في درب التوبة – العمل اليدوي الذي لا ينتهي أبدًا – التي تجلب للنفس التعزية الإلهية.

القسم الرابع من هذا الكتاب يوضح كيف أن قوى الظلام – التي تعمل بواسطة عملائها، السَحَرة والضالّين، إلخ... تصبح قوية، وهي

الضعيفة عندما يعطيها الإنسان الحقوق باقترافه خطيئة كبيرة ويتقبّل التأثير الشيطاني. ولكي يتحرّر من هذا التأثير عليه أن يتوب ويعترف بالذَنْبِ الذي اقترفه فيعود عضوًا فاعلًا في الكنيسة.

الجزء الخامس والأخير يشدّد على أنّ سر الإعتراف هو ضروري لحلّ الخطايا، وأنّ على الإنسان المسيحي أن يتوكّأ في سيره في درب الحياة الروحيّة على أب روحي قانوني (مُقامٌ، ومعترفٌ به، في الكنيسة). وهنا يمكن المقارنة بين عمل الطبيب النفسي وعمل الأب الروحي وعمل المرشد المستنير الذي كان يقوم به الشيخ الناسك باييسيوس نفسه.

كان الشيخ الناسك باييسيوس – على عادته – يُجيب باقتضاب عن الأسئلة التي تُطرح عليه دون تحليل نظامي للموضوعات المطروحة. وكان هدفه مساعدة النفس لتَخلُص مردّدًا: «التعزية والفرح، بالنسبة لي، هما خلاص النفس». وكان يساعد كلّ نفس في جهادها مقدّمًا «الفيتامين الروحي» الضروري لها، وذاكرًا في كلّ مرة مثلًا حيًا مناسبًا لحالتها، ذلك أن الشيخ كان يؤمن أن الأمثال الحيّة تساعد كثيرًا.

«أُريد أن أكتب – يقول الشيخ الناسك باييسيوس – عن بعض الناس الذين عاشوا حياة شريفة، عن بعض الشبان والشابات، وعن بعض أرباب العائلات، علَّ التوبيخَ ينال الذين جعلوا الخطيئة «موضة». التوبيخُ لا يُعيدُ الخاطئ إلى الطريق الصواب، ولكن بإظهار الصلاح يتوبَّخُ الشرّ من تلقاء ذاته».

كانت الأسئلة تُطرح من قِبل الراهبات، وكان الشيخ يتوجّه بأجوبته إليهنّ؛ ولكنَّ هذه الأجوبة تتوجَّهُ إلى كلّ إنسان يجاهد. كان يؤكّد على أنّ آباءَ الكنيسة يرون أنّ الوصايا هي للعلمانيين وللرهبان،

لأن الفردوسَ واحدٌ. كان الشيخ يعتقد أن علمانيين كثيرين يعيشون حياة روحيّة عالية ويحاسبون أنفسهم على كلّ عمل يقومون به.

نشكر، كلّ الذين قبلوا بغيرة قراءة مسودّة هذا الجزء وتعبيرهم عن آرائهم التي ساهمت في إصدار هذا الكتاب بحلّته الكاملة.

لنصلّ كي تتحقّق أُمنية الشيخ، فينير الإله الصالح دروبنا ويمنحنا توبة حسنة، فنستحقّ عندها «الفردوس الصالح» الذي أعدَّه الإله الكلّي المحبة للتائبين.

رئيسة الدير الهدوئي

الأم الراهبة فيلوثاي

والأخوات اللواتي معها.

أحد الابن الشاطر

١١ شباط ٢٠٠١

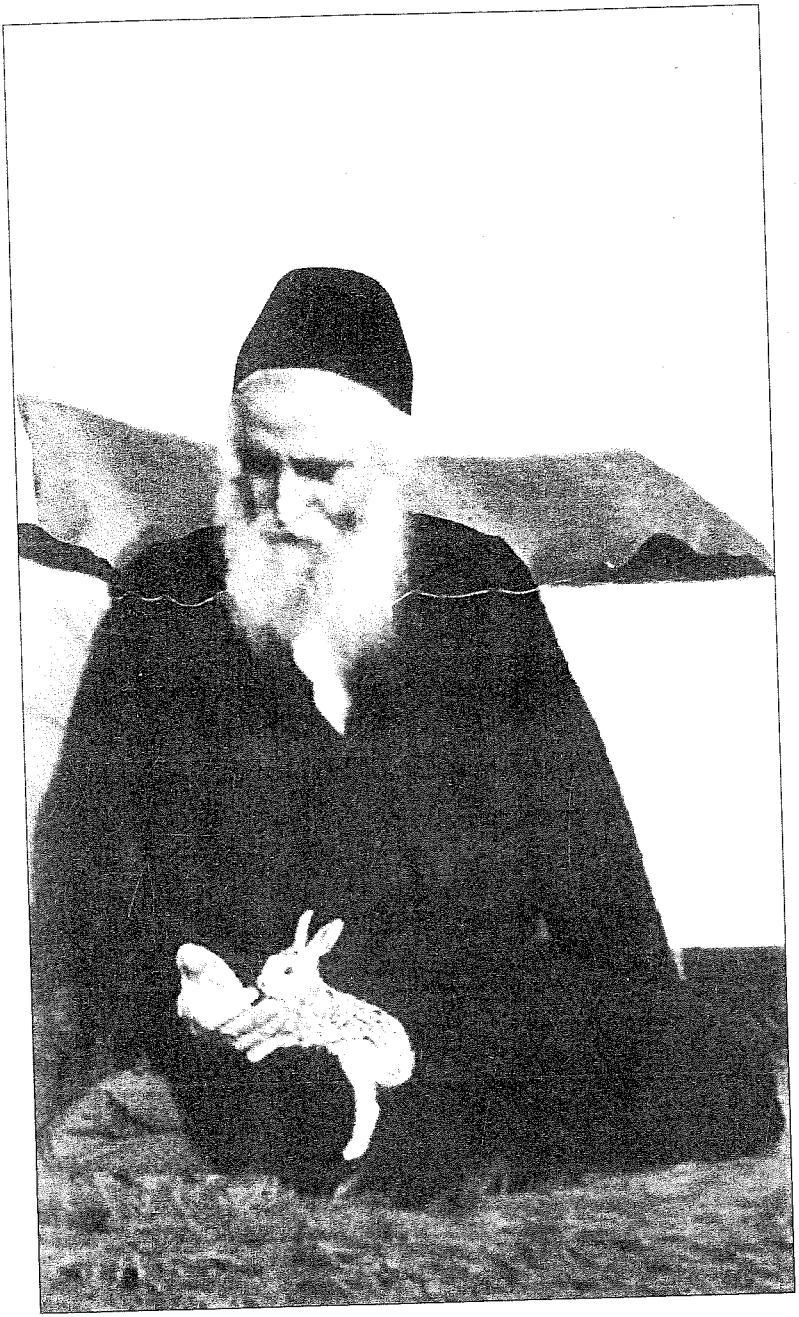

- يا روندا ! كيف تعرف الحيوانات صلاحَ إنسان ؟

- بالشعور، فهي تفهم إن أحببتها وتألّمتِ من أجلها .

كانت الحيوانات في الفردوس تشعر بشذا النعمة الإلهية، وكانت كلُّها تخدم آدم بارتياح . بعد السقوط تبدّلت الأحوال . أُنظري إلى الأرنب البريّ كيف يتطلع بخوف وتكاد تُسمَعُ دقّاتُ قلبه . هذا المسكين لا يذوق طعم النوم أبدًا . يتعذّب بسببنا .

ولكن عندما يستعيدُ الإنسان حالته الأولى قبل السقوط، فإن الخوف يتبدّد وتقترب منه الحيوانات مجدّدًا .

القسم الأول

حرب الأفكار

«بالأفكار الحسنة (التي عن اليمين) يتطهّر الإنسان وتحلّ عليه النعمة الإلهية، وبالأفكار السيئة (التي عن اليسار) يَدِينُ الآخرين ويَظْلِمُهُم؛ فَيُعيقُ حلولَ النعمة الإلهية، ويُفسح المجالَ لدخول الشيطان فينهزم منه (من الشيطان).»

الأفكار التي عن اليمين

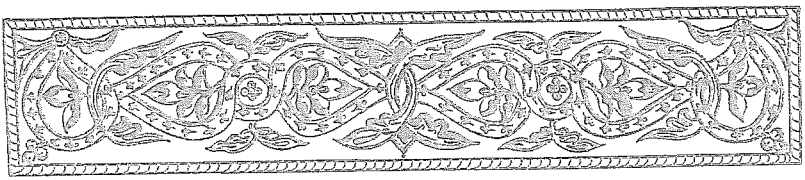

الفصل الأول
الأفكار الحسنة والأفكار السيئة[1]

قوّة الأفكار الحسنة

يا روندا! ورد في العهد القديم، في سفر المكابيين الرابع (٣:٥)، أن الفكر الوَرِع لا يَستأصلُ الأهواء، وإنما يكون خصمًا لها. كيف تفسر ذلك؟

– إنتبهي تَرَيْ أن الأهواءَ متأصِّلةً في داخلنا، ولكن الفكر الحسن الوَرِع يمنعنا من الاستعباد لها. بالأفكار الحسنة تتوقف الأهواء عن العمل وتبدو وكأنها غير موجودة. إذًا، «الفكر الورع لا يَستأصِل الأهواء، وإنما يحاربها ويُرهِقها» (٤ مكا ٣:٥).

---

١ إن كلمة فكر في اللغة النسكية تشير إما لفكرة بسيطة تخطر في الذهن، أو تحركٍ في النفس نحو الخير أو الشرّ، أو ميلٍ حسن أو سيّء. وهذه، كلّها تُقتنى بالتعاون بين الذهن والضَّمير والرغبة والإحساس. وبما أن الأفكار تسبق كلّ عمل، وُجب أن يكون جهاد المؤمن – والراهب خاصة – جهادًا صحيحًا يبدأ بفحص الأفكار وتنمية ما حَسُنَ منها وطرد ما ساء.

أظن، أنَّ كَاتِبَ سفر المكابيين يُبيّن ما فعله الفتية السبعة القدّيسون وأُمّهم صلموني ومعلّمهم القدّيس لعازر، ومدى احتمالهم، لكي يُظهِرَ قوّة الفكر الحسن الوَرِع.

فكر واحد حَسنٌ له قوّة تعادل سهرانيّةً تدوم ساعات طويلة!

فكما أن أشعّة ليزر تستطيعُ تعطيلَ بعض «البواريد» الجديدة فلا تعود تستطيع إطلاق الرصاص، هكذا الأفكار الحسنة تجمّد الأفكار السيئة في «قاعدة» الشيطان من حيث تنطلق الأفكار «التي عن اليسار» في كلّ الاتجاهات. لذلك حاولنَ، على قدر استطاعتكنّ، أن تَسْبقنَ الشيطان وتُبعدْنَه من خلال زَرْعِ أفكار حسنة، فتغدو قلوبكنَّ حقلًا مليئًا بالأزهار فتتعطرَ صلاتُكنّ المنبعثة من هناك برائحةِ طِيْبٍ زكية روحانية.

عندما يستبدّ الفكر السيّء بالإنسان فيحقد على أحد الأشخاص، فإنَّ الأعمال النُسكية من صوم وسهرانيات و... لا تُجدي نفعًا. ما نَفْعُ النسك، إن لم يدفع بالإنسان للجهاد ضد الفكر السيّء؟ لماذا لا نُصَفِّي الزيت في الجرة فنفصل الزيت الرديء، الذي يصلح فقط لصناعة الصابون، عن الزيت الجيّد المستعمَل في المآكل؟ إن خَلْط الزيت الجيد بالسيّء يُفسِدُه.

فكر واحد حسن وطاهر يملك قوّة أكبر من كلّ عملٍ نُسْكِيّ. شيطانٌ يحارب شابًا بالأفكار الرديئة فيلجأ هذا الشاب إلى الأصوام وإقامة السهرانيات بُغية التحرر منها، ولكنَّ، هذا الشاب، ما لم يستبدل الأفكار الرُديئة بأفكار نقية، فقد يُضني جسده بالصوم والسهر ولا يَغلِبُ الشيطان الذي يحاربه.

– يارونداا! عندما تتحدّث عن «فكر طاهر»، هل تشير إلى موضوعات خاصة أو عامة؟

– وأيضًا عامة. فالإنسان الذي يرى الأمور حسنة يَتطهَّرُ وتَحُلُّ عليه نعمة الله. أما العكس، فإنه يُعيق حلولَ النعمة الإلهية، ويسبّب الظُلم للآخرين، ويشرّعُ الأبواب لدخول الشيطان.

– يارونداا! هل إدانةُ إنسان تعطي الشيطان حقوقًا على من يَدِيْنُ؟

– نعم. الأساس هو الفكر الحسن. هو الذي يحوّل الشرّ الذي يتَملَّكُ الإنسان إلى الخير فيرى الأمور نقية. وهذا ما يقوله السَّيد المسيح: «لا تَحكُموا بحسب الظاهر، لكنِ احكُموا حكمًا عادلًا» (يو ٧:٢٤). عندها يرى الإنسان الأمور بعيون روحيّة وليس بعيون بشرية؛ بمعنى آخر، يبرِّرُ كلَّ الأمور تبريرًا حسنًا متّجهًا دومًا نحو ما هو إيجابي ومستبدلًا السلبيات للخير.

يجب الاحتراس وعدم استلام برقيات الشيطان الخبيثة، لئلا نلوِّث «هيكل الروح القدس» (١كو ٣:١٦؛ ٦:١٩)، فتبتعد عنا نعمة الله ونَتخبَّطُ في الظلام. أما القلوب النقية فهي مسكن الروح القدس لأنه يحبّ الطهارة، ومن هنا ظهوره بشكل «حمامة» (مر ١: ١٠).

المرض الأكبر: الأفكار الخبيثة الشرّيرة (الأفكار التي عن اليسار)

– يارونداا! إني أُعاني من الاضطراب عندما يُطلبُ إلي حلُّ مشكلة ما، ولا أعود أقوى على النوم.

– مشكلتُكِ تكمن في كثرة الأفكار وازدحامها، وإلا لتمكَّنْتِ من تأدية خدمَتِك وواجباتِك الروحيّة بإيجابية. حاولي أن تتفادَي كثرة الأفكار بهذه الطريقة: إذا أردتِ القيام بأمر في الغد، قولي: «هذا العمل

ليس لهذا اليوم. سأفكر به غدًا». وفي حال قرّرت القيام بعمل ما، فلا تُرهقي نفسَك بإيجاد الفكرة الأفضل ولا تُرجئي تنفيذَ هذا العمل باستمرار. إختاري حلًا، وباشري العمل، وَدَعِي اللهَ يهتمُّ بالأمور المستقبلية. إبتعدي عن السكولاستيكية (المحاكاة الجامدة) لكي لا يتشوشَ عقلُك، وقومي بالعمل بتفانٍ، وتحركي ببساطة وثقة بالله. عندما نضع مستقبلنا ورجاءَنا بين يديّ الله فإنه يُجبِر ذاتَه على أن يساعدنا بطريقة ما. الأفكار الكثيرة تستطيع أن تُفسد أيضًا الإنسان المعافى روحيًا، فإذا لم يستطع الإفلاتَ منها فيكون تبرير لما يعاني ويقاسي من الحزن. أما المعافى الذي يُعاني من أفكار اليسار والتشويش الذي تُحدِثُهُ ويستسلم لها فيجب أن يُقيّدَ بالأغلال.

المرض الأكبر في هذا العصر هو أفكار الناس الماديّة. قد يملك الناس كلّ شيء ما عدا الأفكار الحسنة، لهذا تراهم يتعذبون لأنهم لا يُواجهون الأمور مواجهةً روحيّة. لنعطِ مثلًا على ذلك: يَنطلق إنسان إلى عمله فتتعطّلُ سيارتُه ويتأخر. إن كان يقتني فكرًا حسنًا اعتبر هذا العائق من تدبير الله بحيث جنَّبَهُ التعرضَ لحادث سيارة. لهذا يمجّدُ الله ويشكرُه. وإن كان يقتني فكرًا سيّئًا فسيلومُ الله ويشتمُه ويتّهمُه. الأولُ تقبَّل ما حدث معه بفكر حسن فلم يتعذّبْ. أما الثاني فنظر إلى العائق بفكر سيّء فتعذّبَ وخَرَجَ عن طوره.

ذات مرة، قبل سنوات، صعدنا إلى شاحنة، مقاعدُها ألواح خشبية، للذهاب من أورانوبولي (المرفأ الذي منه تنطلق البواخر إلى الجبل المقدّس) إلى تسالونيكي في رحلة تستغرق ساعتين. كانت الشاحنة تحوي خليطًا غريبًا عجيبًا من حقائبَ وأكياسِ ليمونٍ وأقفاصِ سمكٍ فارغةٍ قذرةٍ ومجموعة من الأولاد، من تلاميذ (الأثونياذا) مدرسة الجبل المقدّس،

بعضهم يجلس وبعضهم يقف، ورهبانًا وعلمانيين آخرين. جاء شخص علماني بَدين وجلس بجانبي. وكان المكان ضيقًا فتذمَّر ذلك العلماني وصاح: «ما هذه الحالة!»... في مكان آخر من الشاحنة كان يجلس راهب مسكين تغمرُه الحقائب فلا يظهر منه إلا رأسه. وكانت الحقائبُ تتساقط عليه بسبب وُعورة الطريق وكثرةِ حُفَرِها، وكان المسكين يحاول صدَّها وإبعادَها عنه لئلا تقعَ على رأسه. قارنتُ بين الحالتين وقلت للشخص الجالس إلى جانبي: «ألا ترى ما يعاني ذلك الراهب المسكين فيما أنت تصيح بسبب ضيق المكان؟» وتوجهت بالسؤال إلى الراهب قائلًا: «كيف تُمضي الوقت أيها الأب؟» أجابني الراهب بفرح: «ياروندا! الحالة هنا أفضل من الجحيم».

الواحد يتعذّب وهو جالسٌ، والآخر يفرحَ رغم الحقائب التي تغمره. فكّر العلماني بالراحة التي كان سيشعر بها لو رَكِبَ الباص، فخرج عن طوره. أما الراهب فكان يفكِّر بالكآبة في حال وجوده في الجحيم، فشعر بالفرح. لقد قارن الراهب بين وَضْعِه المؤَقّت وَوَضْعِ من يتعذّبون أبديًا في الجحيم، فمجَّد الله ورأى أنه في حالة أفضل.

– ياروندا! علامَ تعتمد الثقة نحو شيخ من قِبَل تلميذه؟

– على الفكر. قد يقتني المرء فكرًا عاطلًا نحو أي شيء. إن كان الإنسان لا يقتني فكرًا حسنًا، ويتحرّك بدافع المصلحة الشخصيّة، فإنه لن يجد المساعدة من شيخ قدِّيس، أو قدِّيس معروف، أو جميع القدّيسين؛ وقد يحدث أن الله ذاتَه لا يساعد إنسانًا كهذا. عندما يُحبّ الإنسان ذاته، فإنه يُفسِّر الأمور كما تشتهي نفسه؛ وقد تصبح هذه التفاسير غيرُ المنطقية طبيعيّةً. ومهما حاولتِ المساعدة فإنهم يتعثَّرون. بعض الناس يطيرون فرحًا إن أبدَيْتِ لهم اهتمامًا أو قلتِ لهم كلمة

حسنة. وإذا حدث العكس فإنهم يحزنون ويتصرّفون بحمقٍ وتطرّف هما من عمل الشيطان المجرِّب. منذ فترة جاء أحد الأشخاص وقال لي: «لماذا لا يتكلّم معي فلان وكان سابقًا يفعلُ ذلك؟ ألأنني أَبْدَيْتُ له ملاحظة؟» أجبته: «لا أظن ذلك. ربما لم ينتبه لك أو لديه همٌّ يؤَرقه وهو يفتّش عن حلٍّ ما»! وبالفعل كان هذا الإنسان مهتمًا بإنسان مريضٍ وليس لديه وقت للأحاديث الجانبية المتفرقة.

الأفكار الحسنة تؤدي إلى الصحة الروحيّة

– ما هي مميّزاتُ الفكر الضعيف؟

– ماذا تعنين بذلك؟ إنها المرة الأولى التي أسمع فيها عن هذا الأمر!

– لقد تحدثتَ سابقًا عن فكر من اليسار وعن إساءة تصرف ما...

– وهل قلتُ عن هذا الفكر إنه فكرٌ ضعيف؟

– أتذكّرُ قولَك لذاك الذي أراد البقاء معك: «لا أقبلُك لأنك تَقْتَني فكرًا ضعيفًا؟»

– كلا! لم أقل له ذلك. قلتُ له: «لا أقبلُك كتلميذ لأنك تفتقر إلى الصحة الروحيّة». ولما سألني: «ما هي الصحّة الروحيّة؟» أجبته: «إنك لا تقتني أفكارًا حسنة. أنا كإنسان لديَّ عيوبي وكراهب لديَّ بعضُ الفضائل. فإن كنتَ لا تقتني فكرًا حسنًا فستتأذّى من عيوبي ومن فضائلي معًا». قد يقتني الولد الصغير فكرًا ضعيفًا بسبب عدم نُضْجِه، أما الإنسان الكبيرُ ففكرُه ليس ضعيفًا.

– يارونداا! وهل كلُّ الكبار ناضجون؟

– كثيرون لا يَنْضَجُون بسبب عدم استيعابهم، والآخرون بسبب عِنادِ رؤوسهم. عدمُ التحرّك ببساطة يقود إلى الشرّ وعندها تصبح الأمور مقلوبةً. فَمَنْ لا يملك صحة روحيّة فإن الخير لا يساعده، بل على العكس يعذِّبُه.

– يارونداا! إذا شاهَدْنَا مخالفةً ما، هل من فائدة تُرجى في التفتيش عن مُرْتَكِبِها؟

– إبحثي أولًا عمَّن ارتكَبَها فربما تكونين أنتِ! هكذا أفضل.

– لكن، يارونداا؛ هذا يعني أن الآخرين غير مسؤولين عن المسببات مهما كانت.

– إن افتكرتِ أنَّك أنتِ سبّبتِ ذلك، ستفهمين أن ليس مِن خطأ يجب التفتيش عنه في الآخرين.

– وعندما نقول: «ربّما قامت الأخت «فلانة» بهذا الأمر» فهل يمكن أن يكون هذا الفكر من اليسار؟

– وهل أنت متأكدة أن هذه الأخت قد قامت بالأمر فعلًا؟

– كلا! ولكنها قامت بأمور مشابهة في مناسبات أخرى.

– وهذا فكر من اليسار كونُك غيرَ متأكدة. فضلًا عن ذلك، فإن فَعَلَتْ هذه الأخت أمرًا معيّنًا فهل تعلمين سبب قيامها به؟

– يارونداا! وإن رأيتُ أختًا مصابةً بأحد الأهواء؟

– هل أنت رئيسةُ الدير؟ رئيسةُ الدير هي التي تتحمّلُ المسؤولية، لذلك بَدَلَ فحصِ أهواء الأخت الأخرى لماذا لا تفحصين أهواءَك؟ اشتغلي على نفسك! ولا تنظري إلى ما يفعله الآخرون حولَك، بل فكِّري حسنًا بالأمور التي ترينها في الآخرين، ومهما تكن غاية

الآخر من فِعله فكّري حسنًا بما فعله، لأن ذلك يولّد محبةً داخلية، فَيُجرِّد الآخر من سلاحه ويدفعه إلى التصرف بلياقة معك. أَتتذكرين تلكَ الراهبات اللواتي مرَّ عليهن لصٌ جاعلًا من نفسه أَنْبَا! وعندما كَشَف عن ذاته، خِلْنَ أنه يتبالَهُ من أجل المسيح ممثّلًا دورَ اللصّ فتصرّفن معه بتقوى. وقد تاب اللص فخَلُص هو ورفاقه.

وملخّص القصة، أن رئيسَ عصابة ارتدى ثياب راهب ليتمكّن من سَرِقَةِ دير نسائي حصين وطلب أن يبيت الليلَ عندهنّ. قَبِلَتْه رئيسةُ الدير والأخوات واعتبرنه بمثابة أَنْبا كبير وعامَلْنَه باحترام فائق. وقد اجتمعت الراهبات لينلْنَ بركته وغَسَلْن رجليه وتبرَّكْنَ من ذلك الماء. وقد شُفِيَت أختٌ كسيحة بعدما غسلت رجليها بإيمان من ذلك الماء. عندما رأى رئيس العصابة العجيبة التي حصلت تغيَّر من الداخل وتاب ورمى سيفَه الذي كان يخبّئه تحت جبّته، وأصبح مع رفاقه في العصابة رهبانًا وعاشوا حياة رهبانيّة صارمة.

– ياروندا! وماذا أفعل عندما تقول أختٌ كلامًا كاذبًا؟

– المهم اقتناءُ الأفكار الحسنة. إذا طَلَبَتِ المسؤولةُ عن المَضَافَةِ طعامًا معيّنًا من الطبّاخة وقالت لها: «غير موجود»، فإن ردَّ الفعل يتوقّف على الفكر الحسن. فإن كانت المسؤولة تقتني فكرًا حسنًا فإنها تبرِّرُ مشاغِلَها. وإذا كان العكس صحيحًا اعتبرتها كاذبة. مَن يملك صحّة روحيّة يشاهد الأمور نقيةً، وإذا كان العكس صحيحًا فإن التفكير يكونُ سيئًا. من يقتنِ أفكارًا حسنة يقتنِ صحّة روحيّة ويحوِّل الشرّ إلى خير. فيكون نظره إلى الفواكه كنظره إلى «الزبل» لأن «للزبل» مساهمة كبيرة في تكوين الفواكه.

تعود بي الذاكرة إلى زمن الاحتلال الألماني حيث كان الأولاد الفقراء يأكلون الخبز المصنوعَ من الذُّرة وكانت صحتهم جيدة وبُنيتهم قوية. أما الأولاد الأغنياء فإنهم كانوا يُعانون الضعف والمرض رغم تناولهم الخبز مع الزبدة. هكذا أيضًا في الحياة الروحيّة، فإن كان المرء يقتني أفكارًا حسنة، فإنَّ ضَرْبَه ظلمًا يُعتبر في رأيه تسديدًا للدَّين عما اقترفه في حياته من أخطاء بحقّ المسيح، ويمجِّدُ الله. أما إذا بادَرْتِ لملاطفة إنسان لا يقتني فكرًا حسنًا، فإنه يظنّ أنك ستضربينَه. مثلاً على ذلك: إنسانٌ سكّيرٌ شرّيرٌ يخرج عن طوره ويرتكب أفعالاً قبيحة، أما إنسان سكّير صالحٌ فيبكي ويتوب ويطلب المسامحة. إنسانٌ ثملٌ يقول: «أُقدِّم دلوًا مملوءًا من الليرات إلى من يَحْسِدُني». هذا يدل على صلاحه لأن السكّير يكشفُ عن نواياه بصدق عندما يُتَعْتِعُهُ السُّكْرُ.

من يقتني أفكارًا حسنة يرَ الأمور حسنة

قال لي بعض الأشخاص إن مشاهدَتهم أخطاء كثيرة في الكنيسة سبّبت لهم معثرة. فأجبتهم: لو سألنا ذبابة: «هل هناك أزهارٌ في هذه المنطقة؟» لكان الجواب: «لا أعلم؛ إنما أنا أعلم أن هناك في الحفرة علبًا فارغة ورَوثًا وقذارة». وتروح تصفُ بإسهاب القذاراتِ التي ترتاح بقربها. أما إذا سألت نحلة عن قذارة ما في المنطقة، فإنها تتعجب من سؤالِك، وتنفي وجودَ قذاراتٍ، وتؤكّد على أن المكان تملأهُ الأزهار العَطرة، وتروح تصف بإسهاب تلك الأزهار التي تمتصّ منها الرحيق. الذبابة تخبرك عن القُمامة، والنحلة تُخْبِرُكِ عن الزنابق والسَوسَن.

وهكذا، بعض الناس يشبهون الذباب وبعضهم يماثلون النحل. فالذين يشبهون الذبابة لا يشاهدون شيئًا حسنًا، بل يفتّشون عن الأشياء السيّئة. أما الذين يماثلون النحلة فيرون أن الأشياء الحسنة موجودة في كلّ مكان. من يقتنِ فكرًا حسنًا يرَ الأشياء جميلة والعكس صحيح.

جاء مرة إلى القلّاية تلميذ في المرحلة الثانوية وراح يَقرعُ الباب الحديدي. ورغم انشغالي بقراءة مجموعة ضخمة من الرسائل خرجتُ لأرى مَن الطارق وماذا يريد. سألني الشاب: «هل هذه هي قلّاية الأب بابيسيوس؟». أجبته: «هذه هي، ولكنه غائب الآن فقد مضى ليشتري عُلْبةَ سجائر». أجابني بفكر حسن: «بل ذَهَب ليهتمَّ بأحد الأشخاص». أَكَّدْتُ سببَ الغيابِ مركّزًا على ابتياعِ السجائر التي نَفَذَت والتي دفعت الأب لتركي وحيدًا والذهاب لشرائها منعًا للجنون. اغرورقت عينا الشاب بالدموع وقال لي بفكر حسن: «لقد أَرْهَقْنَا الشيخَ». وعندما أَعدتُ السؤال: «ماذا تريد؟» أجاب إنه يريد البركة. «ولكنه إنسانٌ ضال فكيف تطلب بركته؟ لا تنتظره فأنا أعرفه جيدًا وربما عاد ثملًا أو غضوبًا». لم يصدِّق الشاب ذلك لأن فكره حسن. فأصرَّ على الانتظار لينال البركة إلى جانب تسليمه رسالة.

أرأيتِ! لقد تحدّثتُ بالسوء عن الأب بابيسيوس، فرأى الأمر مغايرًا لأن فكره حسن. وعندما كنت أتحدث عن جنونه وتعاطيه الكحول وسوء تصرفه كان المسكين يتنهد وَتَغْرَوْرِقُ عيناه بالدموع ويرفض تصديق ذلك، والسبب هو أن هذا الشاب يقتني الأفكار الحسنة. وقد أُصبتُ بالدهشة، فلأول مرة أشاهد شخصًا حاولت إفسادَ فِكرِهِ فَعَجزْتُ.

أفكار الإنسان المتقدّس وأفكار الإنسان الخبيث

– هل يفهم إنسان متقدّسٌ إنسانًا خبيثًا؟

– نعم. يفهمه كما يفهم قداسةَ إنسانٍ قدّيسٍ. يشاهدُ الشرَّ، ولكنَّه في الوقت عينهِ يرى أن هذا الشرّ يصدر عن المجرِّب ويأتي من الخارج. يرى بعينيه الروحيتين أن أخطاءَه كبيرة، في حين يرى أخطاء الآخرين صغيرة. يبرِّر خُبْثَ الإنسان الشرّير بالمعنى الحسن، فلا يزدريه ولا يعتبره أدنى مرتبة منه. وقد يعتبره أفضل من نفسه ويحتمله لأسباب كثيرة. يرى إنسانًا مجرمًا يرتكب شرورًا، فيبرّر اقترافَه للجرائم بسبب عدم نيلهِ المساعدة؛ وقد يرى نفسَه مكانه لولا لطفُ الله ومساعدتُه له. وهكذا يقتبلُ نعمةً كبرى. وبالعكس، فالإنسان الشرّير، ولو كان يعرف تمامًا قداسةَ الإنسان إلّا أنه لا يستطيع أن يميز أفكاره الحسنة عند ارتكابه عملاً ما، لذلك لا يبرِّره. والشيطان كذلك لا يميز الأفكار الحسنة، فهو لا يزرع سوى أفكار شرّيرة.

مَن يعمل على نفسه بدقّة، فإنه لا يبرّر نفسه بل الآخر. وبقدر ما يتقدّم الإنسان روحيًا، فإنه يتحرّر ويحبُّ الله والناس. عندها لا يعرف الإساءَةَ، لأن تفكيرَه طاهرٌ وأفكارَه حسنةٌ تجاه الكلّ ويرى كلّ الأشياء بطريقة روحيّة مقدّسة. وقد يستفيد من العثرات التي يسببها له إخوته، فيكبحُ جِماحَ نفسه ولا ينقاد إلى المهالك والضلال. وكلّ إنسان لا يتطهّر، يفكّر بخبث ويرى الأمور خبيثة؛ بما فيها الأمور الحسنة لأنه يلوّثها بخبثه.

الإنسان الخبيث لا ينتفع من فضائل الآخرين، لأن السواد القاتم الذي يغلّف نفسه يمنعه من رؤية هذه الفضائل. وبسبب المآثم السوداء

التي تَعْصِفُ بكيانه يبدو حزينًا كئيبًا وقد ينعكس حزنه على الآخرين حوله. ولكي يتحرّر من آثامه وأفكاره السوداء، عليه أن يتطهّر روحيًا؛ وعندها يعرف الشفافية، ونقاوة الذهن والقلب.

– يارونداا! وإذا كان الإنسان نفسه تارة خبيثًا وتارة صالحًا؟

– عندئذ يَتَقبّلُ التأثيرات والتغييرات وِفْقَ حالتهِ النفسيّة. فالإنسان قابلٌ للتغيير. والأفكار الخبيثة قد تكون تارة من المجرِّب وقد تنبع تارة أخرى من فكر الإنسان الخبيث. فقد يخلق المجرِّب حالاتٍ تدفع الناس إلى تصوّر الأفكار السيّئة الخبيثة.

قَدِمَ أرشمندريت إلى القلّاية للمرة الأولى ولم يَتَسَنَّ لي الوقت لرؤيته. وعندما قَدِم في المرة الثانية، كنتُ طريح الفراش أعاني من نكسةٍ صحيّة شديدة الوطأة. عندها استبدّت الأفكار السيئة بالأرشمندريت فاعتقد أنني لا أريد رؤيتَه وأنّ لديّ شيئًا عليه. مضى وأبدى تذمُّرَه أمام الرهبان في الدير... هذا كلّه من عمل المجرِّب.

أفكار الإنسان تكشف عن حالته الروحيّة

– يارونداا! كيف يحدث أن يرى شخصان الأمر نفسه بطريقة مختلفة.

– وهل ترى العيون كلّها الشيءَ نفسه بالنقاوة نفسها؟ لكي يرى الإنسان الأشياء بنقاوة يجب أن تكون «عينه سليمة»، ولا يتوفر ذلك إلا في حالة النقاوة الداخلية.

– يارونداا! لماذا يعتبر البعض حَدَثًا ما بركةً، فيما يعتبره الآخر مصيبةً؟

– كلّ واحد يفسّر الحدث بحسب فكره. يمكن النظر إلى كلّ حَدَثٍ أو أمرٍ من جهته الحسنة أو من جهته السيئة.

سمعتُ الحادثةَ التالية: في أحد الأديارِ آعتُمِدَ ترتيب خاص بإقامة صلاة الغروب والسحر في نصف الليل. وكان علمانيون يأتون إلى الصلاة نظرًا لوقوع هذا الدير في منطقة سكنية. ذات مرة نسي راهب مبتدئ بابَ قُلّايته مفتوحًا فدخلت امرأة ولم تجد أحدًا. عندما علم هذا الراهب المبتدئ بالأمر حزن جدًا وهاله الأمر لأن القلّاية قد تلوّثت. تناول «سبيرتو» ورشّه على الأرض وأشعله لكي تتطهَّرَ القلّاية، فاحترقت أرض قلّايته وكاد أن يتسبب باحتراق الدير، ولكن فكره لم يحترق وبقي الشرّ معشّشًا في هذا الفكر. لو نظر إلى الأمر من جهته الحسنة لفكّر تفكيرًا حسنًا واعتبر أن المرأة دخلت القلّاية بدافع التّقوى وطمعًا في نيل النعمة، فتتغيَّر روحيًا وتمجِّد الله.

نوعيّة أفكار الإنسان تكشف عن حالته الروحيّة. فالناس يحكمون على الأمور بحسب قناعتهم الداخلية. فإن كانوا يَفْتَقِرون إلى القناعة الروحيّة، ظَلَمُوا الآخرين بتفسير الأمور وفق استنتاجات خاطئة.

إنسان بارٌ يتصدّق في الليل – كي لا يراه أحدٌ – شاهد إنسانًا آخر يتسكّع تحت جنح الظلام فلن يظُنّ به سوءًا. أما إذا شاهدَ إنسانٌ، اعتاد على السهر في الخطيئة، هذا الإنسان البار لظنَّ في الأمر سوءًا، فالناس يخلعون على الآخرين حالتهم النفسيّة. سماعُ أنغام تتصاعد من شقة في بناية، يعتبره البعض ترتيلًا جميلًا فيما يراه الآخر أغاني صاخبة.

ولنا في مَثَل اللصّين على الخشبة مع المسيح المصلوب خيرُ دليل على ذلك. لقد رأى اللصّان المسيح مرفوعًا على الصليب وعاينا ما تعرَّض له من عذاب وإهانة. فالذي على الشمال جدَّف وقال: «إن كنتَ أنت المسيح فخلِّص نفسَك وإيانا». أما الذي على اليمين فقال: أما نحن فبعدل، لأنّا ننال ما تستوجبه أعمالنا، وأما هذا فلم يصنع شيئًا مخالفًا» (لوقا ٢٣: ٣٩-٤١).

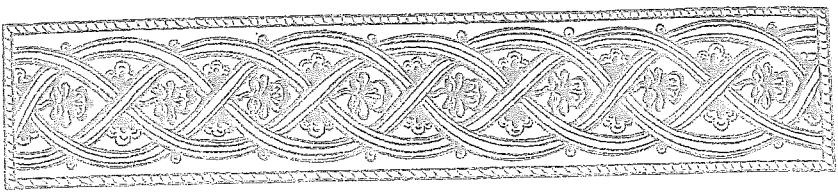

الفصل الثاني
أفكار التجديف

أية أفكار هي أفكار تجديف!

يا روندا! لم أفهمْ متى يكون الفكرُ فكرَ تجديف!

– عندما تداهمنا تصوّرات بشعة عن المسيح، عن العذراء، عن القدّيسين، أو عن شيء إلهي مقدَّس، أو حتى عن أبينا الروحي. هذه هي أفكارُ التجديف، ويجب أن لا يبوحَ بها المرء فور حصولها.

– وإذا باحَ بها إلى أب روحي؟

– يكفي أن تُذكَرَ فقط هذه الأفكار دون تفاصيل. هذه الأفكار التجديفيّة هي من الشيطان وهي لا تخصُّنا. لذلك لا داعي للحزن من أجل خطايا الشيطان.

عندما كنت راهبًا مبتدئًا زَرَع الشيطان في رأسي أفكارًا تجديفيّة فحزنتُ كثيرًا، إذ أن الشتائمَ التي سمعتُها عندما كنت جنديًا صَبَبْتُها على القدّيسين. قال لي الأب الروحي: «هذه الأفكار هي من الشيطان،

وفي اللحظة التي يحزن فيها الإنسان بسبب هذه الأفكار البشعة، التي تمرُّ في ذهنه ضدّ الأمور المقدّسة، فَلْيَعْلَمْ أنها من الشيطان وليست منه، إنها من الخارج». لكنني حزنت مجدّدًا فغادرتُ المكان ومضيت إلى كنيسة القدّيس يوحنا المعمدان للصلاة، وهناك سجدت ففاح طِيْبٌ من الإيقونة. وفي كلّ مرة كانت تداهمني هذه الأفكار من جديد، كنت أمضي إلى الكنيسة للصلاة وكان الطيب يفوح مجدّدًا من الإيقونة. وفي يوم من الأيام، وخلال القداس الإلهي، إذ حان وقت التريصاجيون (قدوس الله...). رتلت عندها «قدوس الله» بتمهّل، التي كان قد لحنَّها في القسطنطينية نيلوس كاراماذوس ١٨٨٠م. فشاهدت وحشًا كبيرًا مخيفًا له وجه كلب يدخل من «الليتين» (الجزء الأول في الكنيسة البيزنطية، من بعد النرثكس (المدخل)، ويكون له باب كبير يؤدي إلى صحن الكنيسة). وكان ينفث من عينيه وفمه نارًا كالشهب. رفع قائمته الأمامية وأشار بمخالبه الخمسة «الإشارة القبيحة» لأنني رتلت «قدوس الله». تفرَّستُ في وجوه الحاضرين لأرى إن كان أحدٌ غيري قد شاهد ما شاهدت، ولكن أحدًا لم يشاهده. قلت للأب الروحي: «لقد حصل معي كذا...» أجابني الأب الروحي: «وهل رأيته؟ إنه هو. هل استرحت الآن؟»

– ياروندا! كيف يفهم الإنسان أن الفكر هو فكر تجديف؟

– إن كان عقله يعمل فباستطاعته أن يفهم. قال لي أحدهم: «كيف يُعقلَ أن يكون هناك جحيم؟ إن وجودَ إنسان في السجن يُحزِنُنا، فكم بالأحرى في الجحيم؟» إن فكرًا كهذا هو فكر تجديف، لأن قائلَ هذا الكلام يُظهِرُ نفسه وكأنه أكثرُ عدلًا من الله. الله يعلم ماذا يفعل.

هناك حادثة يذكرها القدّيس غريغوريوس الذيالوغوس (في كتاب آقريتينوس الجزء الأول) موجزها أن الأسقف فورتوناتوس طرد شيطانًا من امرأة مسكونة. عاد الشيطان إلى المدينة متخذًا هيئة إنسان فقير واتّهم الأسقف بعدم الرحمة لأنه طَرَدَهُ. وبينما كان يصرخ، سمعه أحد الأشخاص فدعاه إلى بَيته منتقدًا تصرّف الأسقف. دخل الشيطان إلى البيت وقال لصاحب البيت: «أشعر بالبرد. ضع بعض قِطع الحطب في المدفأة». ولما شبّت النار وصارت المدفأة أتونًا، دخل الشيطان في ابن الرجل وأصبح الأخير ممسوسًا، فقفز إلى النار واحترق. عندئذ فهم ذلك الإنسان مَن هو الذي طرده الأسقف، ومَن هو الذي قبله هو في بيته. فندم على انتقاده عمل الأسقف، وقال: «حقًا إن الأسقف لو لم يكن يعرف تمامًا مَن الذي التحف بهذه الهيئة لما كان طرده». وطلب البركة والغفران من الأسقف.

من أين تأتي أفكار التجديف؟

– يارونداا! قلْ لنا شيئًا عن اللامبالاة الحسنة!

– اللامبالاة الحسنة ضرورية لإنسان حسّاس جدًا يعذّبُه المجرِّبُ بأفكار مختلفة. والأفضل له في هذه الحالة أن يكونَ عديمَ الإحساس بالمعنى الحسن. وهذه اللامبالاة الحسنة قد تكون ضروريةً لإنسان لا مبالٍ يخلق له الشيطان إحساسًا مفرطًا لجهة أمرٍ ما بغية إفساده. وفي هذه الحالة تساعده اللامبالاة الحسنة. ولكن الأمر يحتاج إلى متابعة. وعليه أن يكشف فكره إلى الأب الروحي خشية أن تنقلب الأمور فيتطرّف ويصبح لا مباليًا بشكل نهائي.

– لماذا تراودني أفكار التجديف عند وقوعي في الكآبة؟

– عندما يشاهدُكِ الشيطان كئيبةً فإنه يَستغِلّ الأمر ويُسبّبُ لكِ بهجةً عالمية من خلال فكر خاطئ. وعندما تقعين في حبائله فإنه يقودُكِ إلى كآبة أعظمَ دون امتلاكِ قوّةٍ لمواجهتها. لذا عليكِ القيام بأحد الأعمال الروحيّة للمساعدة على الخروج من هذه الحالة الكئيبة.

– يارونداا! إني أتعذبُ كثيرًا من بعض الأفكار...

– إنها من الشيطان! إهدئي ولا تكترثي بها. أنتِ رهيفةُ الحسّ، والشيطان يستغلُّ هذه الحساسيّةَ ويدفعُك إلى فَحْصِ الأمور بدقّة، فتتعذبين ظُلْمًا. قد يُحضِرُ لك أفكارًا سيئة عن الرئيسةِ أو عني بالذات. لا تُعطي أهميةً لتلك الأفكار لأنها قد تعذّبك وتسحقك. أنت بحاجة إلى قليل من اللامبالاة الحسنة. عادة، يعذِّب الشيطان الناس الأتقياء والمفرطي الحساسيّة بالأفكار التجديفيّة. يضخِّم سَقَطَاتِهم ليُوقِعَهُم في الحزن. وإذا لم ينجحْ من دفعهم إلى حافة اليأس، فالانتحار، يصيبُهم بالجنون... وإذا تعذَّر عليه ذلك، أوقعهم في الكآبة والسويداء.

صادفتُ أحد الأشخاص وكان يبصُق باستمرار. قال لي أحدهم: «فيه شيطان». ولكن المسكونَ من الشياطين لا يتصرّف هكذا! تأكدّت لاحقًا أن الشيطان وَجد في هذا الشخص المسكنَ الملائِمَ. فقد كَبُرَ يتيمًا رهيفَ الحسّ، يقتني أفكارًا من اليسار ويتخيّل بعض التخيلات التي نمّاها الشيطان فتحولت إلى أفكار تجديفيّة. كان هذا الشخصُ يقاوم أفكارَ الشيطان فيبصُق وكأنّه يبصق على أفكار التجديف، حتى ظنَّ الآخرون أن فيه شيطانًا.

تأتي أفكار التجديف مرات كثيرة من حسد الشيطان. وفي بعض الأحيان بعد سهرانيةٍ طويلة، حيث يكون الإنسان مُنْهَكَ القوى غير

قادر على المقاومة، يُداهِمُه الشيطان الأثيم بأفكار تجديفيّة لإرباكِهِ وَدْفعِهِ إلى حافةِ اليأس. وقد يُداهِمُه بأفكار تجديفيّة على الروح القدس ليؤكّد له فيما بعد أن هذه الخطيئة لا تُغتفر.

– يارونداا! هل يمكن أن نسبِّبَ لأنفسنا أفكارًا تجديفيّة؟

– نعم. عند غِياب الإحساس المرهف، قد يكون السبب من الكبرياء والإدانة. لذلك فإن من يتنسّك ويقتني أفكارًا تجديفيّة، فليعلمْ أن النُسْكَ يتمُّ بكبرياء. فالكبرياءُ ترمي الذهنَ في ظلامٍ دامس، فيبدأُ عدمُ الإيمان ويتعرَّى الإنسانُ من نعمة الله. وقد تتكوّن الأفكار التجديفيّة عندما ينشغلُ الإنسانُ بمواضيعَ عقائديةٍ دون مؤهلاتٍ كافيةٍ للنقاش.

إزدراء أفكار التجديف

– يارونداا! يقول الأنبا اسحق (نسكيّات، المقالة الرابعة) إننا نَغْلِبُ الأهواءَ بالتواضع وليس بالازدراء. فهل ازدراءُ الأهواء وازدراء الأفكار التجديفيّة سيّان؟

– كلا! فازدراء الأهواء فيه كبرياء وثقة بالنفس وتبرير بغير محلِّه. والتبرير للنفس هو عدم قبول الهوى الكامن فيها؛ كأَنْ يقولُ أحدهُم: «هذا الهوى لا يَخُصُّني»، فلا يجاهد للتحرّرِ منه. أما الأفكار التجديفيّة فيجب الإزدراءُ بها لأنها ليست منّا بل من الشيطان.

– عندما يتظاهر إنسان أمام الآخرين أنه مصاب بهوًى معين، كالشراهة مثلًا، فهل يهزأ بالشيطان؟

– عندئذ يتظاهر بالخبث الحسن ولا يهزأ بالشيطان. يهزأ بالشيطان عندما يُحضر إليه أفكارًا تجديفيّة وهو يهمّ بالترتيل.

– يارونداا! كيف أطرد فكرًا تجديفيًا وقت الخدمة؟

– بالترتيل. «أَفْتَحُ فَمِي فيمتلئُ روحًا». ألا تُجِيْدِيْنَ الموسيقى؟

إزدَرِي بهذا الفكر، لأنه عندما يناقش المرء أفكارًا تجديفيّة ساعة الصلاة يكون أشبهَ بالجندي الذي يفتحُ صمَّام قنبلة يدويّة وهو يقدّم تقريرَه.

– وإن ألحَّ؟

– عندئذ يجب أن تعلَمي أن هناك مأوىً في مكان ما في داخلك. والحلُّ الكامل يكمُنُ في ازدراءِ الشيطانِ بصفته مدرِّسَ الخُبْثِ. مِنَ الأفضل في تلك الساعة عدمُ تلاوة الصلاة إذ نُظهرُ انشغالَنا بالأمر في الوقت الذي يقصِفُنا فيه الشيطانُ باستمرار بالأفكارِ التجديفيّة. الأفضلُ أن نرتِّلَ، فهكذا يفعل الأولاد الصغار عندما يزدرون أحدَ رفاقهم المسيءِ إليهم فَيُغَنُّونَ «ترالالالا»، أما نحن فنرتل لأَنَّ الترتيلَ صلاةٌ تُرفع لله وازدراء بالشيطان في الوقت نفسه.

– يارونداا! عندما أواجهُ حالة كهذه، لا أستطيعُ الترتيل أو التقدّم للمناولة.

– هذا أمرٌ خطير! الشيطان يحاصِرُك. إذهبي وَرَتِّلي وتَقَدَّمي للمناولة لأن هذه الأفكارَ ليست منكِ. رتِّلي: «بواجبِ الاستئهال» فيَحزِمُ الشيطان حقائِبَه ويرحل. إليكِ ما حدث مع أحد الرهبان: جاء هذا إلى الجبل المقدّس في سنّ الثانية عشرة. كان يتيمًا فَقَد حنان الأم فَوَهب محبته للعذراء مريم. وكان ينظرُ إليها على أنها أمّ له. كان يسجد بوقار للإيقونات. استغلَّ الشيطان هذه المحبة وَزَرع في فكرِ الراهب أفكارًا تجديفيّة. انقطع المسكين عن السجود للإيقونات. عَلِمَ الشيخ بالأمر فأمسكَ الراهبَ بيده وأجبَره على تقبيل إيقونة العذراء والمسيح

وللحال غادر الشيطان. قبّل الإيقونة في الوجه واليدين، ومع أن هذا تصرفٌ وقحٌ ولكنَّ الشيخَ أصرَّ لكي يطرد الأفكار من الراهب.

متى نُلام على أفكار التجديف

– يارونداا! عندما تداهمني أفكار شرّيرة تجديفيّة من دون قبول شخصيّ فهل أكون مذنبةً؟

– إنْ حزنتِ ولم تقبليها فهي ليست بشيء.

– يارونداا! متى يُلامُ المرءُ على أفكارِ التجديف؟

– إذا لم يشعر بالحزن وراح يحاورُ هذه الأفكار فإنه يكون مذنبًا. وبقدر ما يقبَلُ أفكارًا تجديفيّة، فإنه يقبَلُ إزعاجَ الشيطان. وعند مداهمة فكر تجديف يتقبَّلُ حالةً شيطانيّةً إن راح يناقشُ هذا الفكر بعقله.

– يارونداا! وكيف تغادر أفكارٌ كهذه؟

– إن حَزِنَ المرء ولم يفتح نقاشًا مع هذه الأفكار فإنها تنقطع من تلقاء ذاتها، لأن الشجرةَ التي لا تُسقى تَيْبَسُ. أما إذا فَرِح بهذه الأفكار ولو للحظات، فإنه يقدِّمُ لها القوتَ، فيُسقى بذلك الإنسان العتيق ويعودُ فيتجدد، فيصعُبُ عندها أن تيبَسَ أغصانُ الأفكار التجديفيّة.

– يارونداا! إني أقبل مرات أفكارًا تجديفيّة بموافقةٍ داخلية، ثم أَفطِنُ لها، ولكن الوقت يكون قد فاتَ لطردها.

– أتعلمين من أي شيء تُعانين؟ أحيانًا يكونُ فكرُك في مكان آخر، فتكونين مسلوبةَ الذهن وتُنْفِقين وقتَك بفمٍ فاغِر. عندها يأتي المجرِّب، ويضعُ في فمك حبة «بونبون» وتَبْدَئِين المصّ. تشعرين بطعمها ولا تقدرين على بصقها. ينبغي بصقُها فورًا عند أول إحساسٍ بالحلاوة.

– وعند مرور فكر تجديف: أَقْبلُه أولًا ثم أَطردهُ؟

– ينبغي أن تبصُقي حبة «البونبون» التي قدَّمها لك الشيطان فورًا. لأنه يُخشى في حالة كهذه أن ينتقل الشيطان من تقديم حبة «بونبون» إلى تقديم سمٍّ زُعاف.

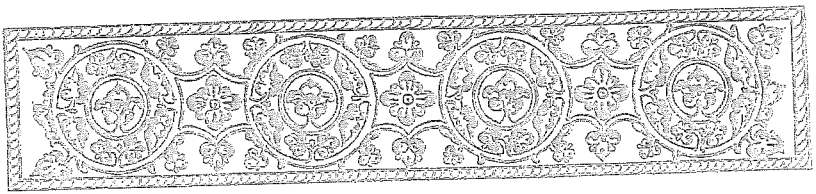

الفصل الثالث

الثقة بالفكر

الثقة بالفكر هي بداية الضلال

يا روندا! عندما أغضب أُصبح كالسيل الجارف ولا أستطيع السيطرة على نفسي.

– لماذا لا تستطيعين السيطرةَ على نفسِك؟

– لأني أُؤمِنُ بفكري.

– إيه، عندها تملكين إيمانًا ودستورَ إيمان خاصَّين بك. يقعُ اللَّومُ على الأنانيّة. لا تبرِّري فكرَك. عليك طردُ الفكر الأحمق من تلقاء نفسك وعدم قبوله.

– وكيف أفهم أن فكرًا ما هو أحمق؟

– أَخْبِري به رئيسةَ الدير واسمعي ما تقولهُ وأَطيعي أوامِرَها، وهكذا تَطرُدين الفكرَ الأحمق. أَن يَثِقَ إنسانٌ روحاني بفكره هو بداية الضَّلال. الكبرياءُ تُطفِئ نور العقل فَيُمسي في ظلامٍ وقد يَضِلُّ. ومن الأفضل في هذه الحالة أن يُصاب بالجنون إذ عندها سيكون لديه مبرّراتٌ ويُحاسَبُ كمجنون.

– أَلا يمكن أن يتلقى مساعدةً من الآخرين؟

– يجب أولًا أن يساعِد الإنسانُ نفسَهُ، وبعدها يطلب المساعدة من الآخرين. عليه أن يفهم أن الإيمان بفكره الذي يُصوِّر له نفسَه بطلًا أو قدّيسًا هو ضلالٌ. التواضعُ هو الذي يطرَحُ هذا الفكرَ. مرات كثيرة يطلبون مني أن أصلي من أجل حالات كهذه. أيّة صلاة سأصلي؟ وماذا أفعل من أجل إنسان في داخله فتيلُ الشيطان جاهز للاشتعال في كلّ لحظة. إنه أشبهُ بإنسانٍ يحمل بيديه قنبلةً نُزع فتيلُها ويطلبُ المساعدة من الآخرين.

– ياروندا! أصبحتُ سيّئةَ الطباع.

– من قال لكِ ذلك؟ فكرُك؟ أنا أتابعُك من الجبلِ المقدّس. أنتِ لستِ سيّئةَ الطباع. أما إذا كنتِ تؤمنين بفكرِك، فإن هذا الفكرَ سَيَقلِبُك رأسًا على عقب. لا تُؤمِني بفكرك مهما قال لك.

الثقة بالفكر تخلق مشاكل نفسيّة

– ياروندا! عندما يقتني أحد الأشخاص فكرًا مَفادُه أَنَّ الجميع يراقبونه، فكيف يتسنّى له طردَ هذا الفكر؟

– هذا الفكر من الشيطان، وعليه أن لا يبالي به وأن لا يُؤمنَ مطلقًا به. قد يَحدُث أن يرى إنسانٌ سيّءُ الظن أحدَ معارفه يتكلَّمُ مَع شخص آخر بصوتٍ منخفض فيعتقدُ أنهما يتحدّثان عنه. في حين يكونان يتحدّثان عن موضوع آخر. وقد يتطوّر هذا الفكر شيئًا فشيئًا، وينتهي به الأمر إلى الظن بأنه مُراقَب ومُلاحَق. والحقيقة أن الشيطان قد هَيَّأ الأمور من أجل إقناعِهِ، حتى ولو كان هذا الشخصُ يملِك أدلّةً ملموسةً عن المراقبةِ والملاحقةِ.

أعرف شابًا حادَّ الذكاء يُؤمن بفكر يَقُولُ له إنه ليس متّزنًا عقليًا. وقد خَلَقَ له هذا الفكرُ تعقيداتٍ كثيرةً. حاول الانتحارَ وأرهقَ والديه، وتحولت حياتُه وحياةُ أهله إلى عذاب دائم. ما لا أستطيع فَهْمُهُ، هو كيف يقبَلُ هؤلاء الأفكارَ الشيطانيّةَ التي تُفسِد المواهبَ والقوى، وتحوِّل الحياةَ إلى جحيم، وتُبعد الناس عن الله الذي يُحسن إليهم ويُحبُّهم. والنصيحةُ في هذه الحالة لا تُجدي نفعًا. على هؤلاء الأشخاص أن يتوقفوا عن الإيمانِ بالأفكار الشيطانيّة.

– ياروندا! هل الإنسان المرهف الحسّ ضعيفٌ ومريضٌ نفسيًا؟

– كلا! التفاني والإحساس المرهف موهبتان طبيعيتان ينجح الشيطان أحيانًا في استغلالهما. فالإنسان الحسّاس يَحُثُّه الشيطان على تضخيم الأمور، وبالتالي فلا يستطيع تَحَمُّلَ الصعاب، فيتراجعُ ويُصاب بخيبةِ الأَمل ويتعذّبُ. إذا استَغَلَّ حساسيَّتَه الوراثية ارتقى إلى السماء، وإذا سمح للشيطانِ باستغلالها ذهبتْ جهودُه سدى.

وإذا لم يستعملِ الإنسان مواهبه، استغلّها الشيطان وعندها تُطرَحُ عطايا الله. عندما يؤمن الإنسان بفكره ينتهي به الأمر عند الطبيب النفساني. أما الإنسان اللامبالي فلا ينتهي عند الطبيب النفساني رغم عدم سِيره سيرًا حسنًا. لذلك فإن الشيطانَ يصطاد ذوي الحساسيّة. وقد يحاول الشيطان إقناع بعض الناس أنَّهم يُعانون شيئًا ما، وأن عندهم موضوعًا وراثيًا، بقَصْدِ إخافتهم وتشويشهم وإفسادِهم. فليكن معلومًا في هذه الحالة أن كلّ أَمرٍ، وراثيًا كان أم مُكْتَسَبًا، لا يثبت أمام نعمة الله التي تغلبه وتحوله.

أتتذكرين القدّيس كبريانوس كيف تحوَّل من ساحر إلى كاهن وشهيدٍ للمسيح! أما القدّيس موسى الحبشي فقد تحوَّل من لصّ إلى

قدّيس أكثر رهافة من آباء كثيرين. موسى هذا مضى لرؤية القدّيس مكاريوس فسأله: «ماذا أفعل؟ العالم يُزعجني ولا أستطيعُ أن أجد الهدوء». فأجابه: «موسى! موسى! أنت رهيفُ الحسّ. إذهبْ إلى «باترايا» (شمال الصحراء العربية). لأنكَ لا تستطيعُ أن تطردَ العالَم»! وكذلك القدّيس أرسانيوس الكبير، كان مرهفَ الحسّ أيضًا من عائلة نبيلة، إنسانًا متعلمًا مثقفًا، فاقتنى تواضعًا جزيلًا. أرأيتِ ماذا تفعل نعمةُ الله! أحدُهم نبيل مثقف متعلّم، وآخر لص.

الأطوار الغريبة تبدأ من الفكر

– يارونداا! من أي شيء يعاني من يشعرُ بالاشمئزاز والقرف؟

– قولي لي. من أي شيء تَقْرَفِيْنَ؟

– من كلِّ شيء.

– إذًا لا تتعجبي إن رأيتِ الدودَ في الفاكهة أو الحبوب، أو رأيت شعرة في رغيف خبز. كلّها ستصادفينها.

– أهكذا تجري الأمور؟

– المجدُ لك يا الله! لو تعرِفين كم يساعدُ الله لتجاوزَ حالةَ القَرَفِ هذه!

– يارونداا! هل يبدأُ القرف من الفكر؟ لنفترضْ أن أُختًا وجدت شعرة في الطعام ووضعتها جانبًا.

– هذه بَركةٌ. أعطِيني إياها لآخُذَها بركة. أتذكَّرُ أننا ذهبنا ذات مرة في سيناء إلى أحد الأمكنة برفقة راهب. أعطيتُه خوختين ورحت أُراقِبُه. لم يأكلْهُما بل أراد غسلَهما قبل الأكل. لم يضعهما في جيبه خوفًا

من التقاط ميكروب. قال لي أخوه الذي أَنْجَب أحدَ عشر ولدًا: «إن أخي يُنْفِقُ على شراء الصابون لغسل اليدين أكثر مما تنفق زوجتي وأولادُنا الأحد عشر على غَسْلِهِم». أنظري ماذا حدث هناك! كانت العادة أن يُفرَزَ في سيناء لكلّ راهبٍ بدويٌّ يخدُمُه. وشاء حظ هذا الراهب أن يكون البدوي الذي أُعطِيَ له قَذِرًا إلى أبعد الحدود تفوح من ثيابه رائحة كريهة، وقد اسودّ جسمه من القذارة بحيث كان ينبغي نقعُه في الماء أسبوعًا ليتمّ تنظيفُه. وكان الراهب يصرخُ بالبدوي وهو ينقلُ له طبقَ الطعام وقد غَرَزَ فيه أصابعَه: «إذهبْ، إذهبْ». وبعد مرور أسبوعين لم يستطع هذا الراهب البقاء فقرّر المغادرةَ والرحيل.

أتذكّر راهبًا في الكينوفيون (دير الشركة الرَّهبانيّة) حيث كنت، كان سابقًا ضابط شرطة وقد جعلوا منه قارئًا نظرًا لثقافته. وقد أمضى سنوات عديدة في الدير مُظهرًا الاشمئزازَ والقرفَ. لم يكن يفتح الباب بيدِه بل بِرَكْلَةٍ من رِجْلِه. وكان يفتح باب الكنيسة بِرِجْله. وإذا صدف أن لامستْ يدهُ شيئًا فإنه يُسرع إلى غسل اليدين بالمطهِّرات. شَاخَ هذا الرجل فخرج الدود من رِجْلِهِ التي كان يَفْتَحُ بها الأبواب. وأذكر أنّني كنت ممرضًا مساعدًا عندما جِيءَ بهذا الرجل إلى مستشفى الدير وكانت رِجْلُه مربوطةً. عندما نزعتُ الرِّباط أُصبْتُ بقشعريرة إذ أن الدودَ كان يرعى في رِجل هذا الرجل. لم يكن الممرض قد عاد ومعه الضَّمادات، فطلبتُ من الرَجُلِ المصاب أن يذهب إلى البحر ويغتسل: ما هذا القصاص! لقد فهمت الأمر، ذلك أن الله – بسماح منه – قاصَصه لأنه كان يفتح باب الكنيسة بِرِجْلِه.

– ياروندا! وهل استمرّ – وهو في هذه الحالة – يفتح الباب برجله؟

– نعم! وقد شاخ راهبًا.

– أَلَم يفهمْ؟

– لا أعلم. غادرتُ فيما بعد إلى دير ستوميّو في كونيستا. أما كيف مات وكيف كانت حالته قبل الموت فلا أعلم.

بالمقابل فَقَدْ كنتِ تشاهدين في دير الشركة بعضَ الرهبان الأحداث يجمعون الفضلات من صحون الشيوخ لينالوا بركة. كانوا يجمعون الفُتَات. وآخرون كانوا يُقَبِّلون مقابضَ الأبواب لأَنَّ الآباءَ لمسوها.

– ياروندا! هل تندرجُ تصرّفاتٌ كهذه تجاه أمور مقدّسة في باب عدم التقوى؟

– من هناك يبدأ المرء، وإلى هنا يصلُ. لقد وصل إلى حدِّ عدمِ السجود للإيقونات خوفًا من أن يصابَ بمرض يلتقِطُه من رَجلٍ سَجَد قبلَه لها.

– هل ينبغي إذًا – تجنبًا للقرف – عدمُ إعطاء الأمور أهميةً؟

– ألا يشاهد الناس القُمامة التي يأكلونها؟ عندما يرسم المرء إشارة الصليب فلن يعرف الخوفَ أو مرضَ الخوفِ لأن المسيحَ يساعده.

كم من الناس المصابين بأمراض مختلفة يمرّون على القلّاية! بعضهم يرسُم إشارة الصليب ويتناولَ الكوبَ الموضوع هناك ويشرب. البعض الآخر يتوجَّسُ خِشيةً فلا يلمُسُ الكوبَ.

جاء منذ وقت أحد الأشخاص الذي يحتلّ منصبًا مرموقًا في إحدى دوائرِ الدولة. وكان المسكينُ يخاف كثيرًا من الميكروبات حتى إن يديه ابيضتّا من كثرة استعمال المطهرات. وكان يمسح سيارته بهذه المطهرات. حزنت من أجله.

أتعلمين ما معنى أن يحتلّ شخص هذا المركز المرموق وأن يتصرّف على هذا النحو؟ قدّمت له حلوى فلم يأخذْها لأن يدي لَمَسَتْها. ولو

كانت حبة الحلوى هذه في العلبة فإنه يتصرّف التصرّفَ نفسَه. ثم مرَّرْتُها على حذائِهِ وأكلتُها. فعلتُ ذلك مرارًا لأحمِلَه على التحرّرِ من هذا الداء.

اليوم جاءَت إلى ديركنّ لتراني فتاةٌ مصابة بمرض الخوف. عندما دَخَلَتْ لم تأخذِ البَرَكَةَ خوفًا من التقاطِ الميكروبات، وعندما همّت بالانصراف، ورغم حديثي معها عن سبل مساعدتها، لم تأخذْ أيضًا البَرَكة. وبرَّرتْ ذلك بقولها: «أخافُ من التقاط الميكروبات لذلك لم أُقبّلْ يَدَك!»

هكذا يجعل هؤلاء الناس حياتَهم سوداء.

ماذا عن الأمراض الوهميّة

المرضُ الأكبر هو إيمانُ الإنسان واعتقادُه بأنه مصابٌ بمرض ما. هذا الفكر يسبّب له الألمَ والقلقَ ويُسقِطه في الحزن، فيفقدُ شهيةَ الطعام ولا يذوق طعم النوم ويبدأ بتناول الأدوية، فيصبح مريضًا وهو سليم معافى. المرءُ المريض يتناولَ الأدوية للعلاج وهذا أمر نفهَمُهُ. ولكنْ أنْ يكون معافى، ويعتقد أنه مريضٌ ويستبدّ به الهمّ والقلق فهذا أمر لا نفهَمُهُ. إنسانٌ صحيح يتمتّع بقوّة جسدية وروحيّة لا يقوم بأي عمل البتَّةَ لاعتقادِهِ أنه مريض، ينتهي به الأمر إلى الانطفاء جسديًا وروحيًا. إنَّه لا يكذب. وهكذا، فالإنسان – مؤمنًا بأنه مصاب بمرض ما –، ينتابهُ خوفٌ ورعبٌ ويضعف فتنهار شجاعته ولا يستطيع عندها القيام بأي شيء.

يأتي بعض الناس إلى القلّاية وقد هَزُلَتْ أجسامهم لاعتقادهم بأنهم مصابون بمرض الإيدز. أسألهم: «ربما حدثَ شيء ما»، فَيُنْكِرُون.

أَطلبُ إليهم أَلَّا يحزنوا هكذا عبثًا. والأفضل لهم أن يُجرُوا فحوصاتٍ مِخْبريّةً لكي يغادرَ الفكر. يخاف البعض من نتيجة هذه الفحوصات فلا يستجيبون للطلب ويُقيمون في عذابهم. أما البعض الآخر فيطيعون ويُجرُون هذه الفحوصات، حتى إذا كانت النتيجة سلبيةً تنقلبُ حياتُهم وتعود البسمة إلى وُجُوهِهِم. بعضهم يَفقد شهيّتَه للطعام وينزَوي في بيته، لأنه يخاف من إجراء الفحوصات المخبريّة. حسنًا. أنتَ مصاب بالإيدز! أمام الله لا وجودَ لمشكلة صعبة. إنْ عشْتَ بروحانية أكثرَ شفافيةً، واعترفْتَ، وتناولْتَ،... فستجدُ العزاءَ والمساعدة.

– ياروندا! كيف يبدأُ الظنُّ عند إنسان بأنه مريض؟

– شيئًا، فشيئًا، ينمو هذا الفكر. قد يكون هناك أسباب واهية. وقد يُضَخِّمُ الفكرُ أمرًا ما.

عندما كنت في دير ستوميّو، كان هناك ربٌّ عائلة في كونيستا يعتقد أنه مصاب بمرض السلّ ولم يسمح لأحد – حتى زوجتِه – بالاقتراب منه. وكانت الزوجة المسكينة تحملُ إليه الطعام في سلة تقدّمها له من بعيد بواسطةِ عصا. أُصيبت زوجته بالإرهاق، وكان أولادُه ينظرون إليه من بعيد. لم يكن ذلك الشخص يعاني من أي شيء. ولكنه بسبب انغلاقِه على ذاته في غرفته وعدم تعرّضه لأشعة الشمس، بدا هزيلًا أَصفرَ اللون فازدادَ وهمًا بأنه مريضٌ بالسلّ. قصدتُه، فلما رآني قال لي: «لا تقتربْ مني، أيها الراهب، لئلّا ينتقل المرض إليك بالعدوى، وتنقله إلى زوّار الدير حيث أنت؛ إني مصاب بالسلّ». أجبته: «مَن قال لك إنك مصابٌ بالسلّ؟». جاءتِ الزوجةُ وقدمت لي حلوى مصنوعة بالجوز. طلبت منه أن يفتح فمه، فأطاعني، مع أنه لم يكن يعلم ما أنا مزمعٌ أن أفعله؛ وضعتُ الحلوى في فمه ومررتها هناك مرتين أو ثلاث

مرات ثم أكلتها. صرخ خائفًا: «كلا! كلا! لا تفعل ذلك ستصاب بالمرض». أجبته: «لن أُصاب بشيء لأنكَ صحيحُ الجسم ولا تعاني من أي مرض، فلو كنتَ مسلولًا، فهل أنا مغفّل لأتصرف هكذا؟ هيا إنهضْ من الفراش».

وطلبتُ منه أن نقوم بجولة في الخارج، كما أمرتُ زوجته برمي الأدوية والشراشف... خرجنا معًا لأوّل مرة منذ ثلاث سنوات عندما أقفل على نفسه بابَ غرفته. ثم شيئًا، فشيئًا، عاد إلى عمله. أرأيتِ إلى أي حدٍ تقودُنا الأفكار السيئة عندما نُنَمّيها؟

يمكن تجاوز الأُمور بالطاعة

– ياروندا! كيف ينال مساعدةً من يظنّ أنه يعاني من شيء ما؟

– لكي ينال مساعدة، يجب أن يكون لهذا الشخص أب روحي، يثق به ويُطيعه، فيكشف له فكرَه وعندها يقول له الأب الروحي: «لا تعطِ أهميةً لهذا الفكر، ولذاك انتبه منه...» إن كان عديمَ الثقة لا يطيع، فلن يستطيع طردَ هذا الفكر. هذا ما يحصل لكلّ من يأتي يطلب المساعدة مني وهو لا يقوم بمحاولة مُجْدِية.

جاءَني شاب يعيش حياة متقلّبة ويعاني من مشاكلَ نفسيّة. عيناه حمراوان، يُدمن التدخين. طلب مني مساعدةً. تقواه كانت كاذبة. طلب مني إيقونةً، كبركة من الإيقونسطاس، وقد دخل إلى الكنيسة والسيجارةُ في فمه. أجبته: «عيناك حمراوان كعيني كلبٍ مسعور. التدخين غير مرغوب به هنا في الداخل فأنا أُبخِّر المكان». أجابني: «لماذا لا تَشْفِيني؟» إنه يريدُ الشفاءَ دون القيام بأي محاولة. قلت له:

«أنت لا تحتاج إلى أعجوبة ولا تعاني مرضًا إنّما أنت تؤمن بفكرك». لم يشأ أن يطيعَ فلم يحظَ بالمساعدة. أما الذي يسمع ويطيع فيتقدّم ويتعافى.

قصد كاهن – ذات مرة – أحد الأديار فدعَوْه إلى المشاركة في الترتيلِ فأبى. وعندما سألوه عن سبب رفضه الترتيلَ برَّر ذلك بقول المزمور: «تعظيمُ الله في حلوقهم وسيوفٌ ذات حدين في أيديهم» (مز ١٤٩: ٦). كان يخاف السيف ذا الحدين إن هو رفع صوته وكان يعتبر اشتراكه في الترتيل أمرًا سيئًا. وعندما حاول الآخرون إفهامه أن الأمور ليست كما يراها، أصرَّ على موقفه لأنه كان يؤمن بفكره الخاص. ماذا يمكن أن نفعل لإنسان كهذا؟: إن كان يعتقد بصحّة ما يقول وقال له آخر: كلا الأمر ليس كما ترى، وأطاع هذا الآخر، فإنه سينال نعمة كبرى بسبب تواضعه. أما الذين يؤمنون بفكرهم ولا يعتبرون كلّ ما يُقال لهم، فكلّ ما يُفعل من أجلهم يذهب سدى؛ والشرّ لا يتوقف إن آمن إنسان بفكره، ولكنه ينمو في نفس الشخص الذي يتعذب بسببه وقد يصل به الأمر إلى الجنون.

باشر إنسان ببناء بيت فقيل له: كيف تبني بيتًا على هذا النحو؟ البناء سيسقط عليك؛ لو أصغى إلى ما يقولون لهان الأمر وهَدم ما بنى وأعاد بناءَه على أُسس سليمة صحيحة. ولكنه بعد أن أنهى عملية البناء يستحيل هدمه بسهولة. يقول له الناس: سيسقط البناء عليك، وهو يعلم ذلك جيدًا ويعاين الخطر، ولكنه يفكّر بالأموال التي أنفقها والمشقّات التي تكبدها فلا يتجاسر على هدم البناء الذي لن يتأخّر في السقوط عليه.

– هل يمكن مساعدة هذا الإنسان؟

– إن تَقَبَّل المساعدة فقد يكون له ما يريد. وأنَّى له ذلك وهو يبرِّرُ نفسَه؟

لنفترضْ أن شابًا يعاني من داء السكري وهو يجهل الخطرَ الذي يُحْدِقُ به. يقولُ له الطبيب: «الحلوى مُضِرَّة». فإذا لم يعمل بنصيحة الطبيب اعترضَتْهُ المشاكل. وإن أصرَّ على أكل الحلوى لأنها تُشْعِرُه بالدفء وتساعِدُه على النوم، فكيف يمكن التفاهم معه وهو مصرٌّ على رأيه.

– ياروندا! هل ثقة الإنسان بفكره أمر طبيعي؟

– من يؤمن بفكره فهو كثيرُ الأنانيّة.

– كيف سيفهمُ ذلك؟

– إن تذكَّر بعض حوادث طفولته التي تُظهر أنانيَّته فَسيَفهَم. راقبتُ وَلَدَيْن. تناول الأول وسادة قطنية ورفعها بشكل طبيعي، أما الثاني فرفعها موهمًا نفسه أنه يرفع كيسًا من الإسمنت. عندما كبر هذا الولد الثاني فهم أن تصرّفه ناجم عن الأنانيّة. اعترف وندم، فحلّت عليه نعمة الله وأعتقَته وساعَدَته. ليس الله بظالم.

– ياروندا! عندما ألاحظ التطوّر الناجم عن حالة نفسيّة بفضل الخبرة المكتَسَبة فهل يعني ذلك ثقة بالنفس؟

– لا تستخرجي استنتاجات من تلقاء ذاتك. الرسول بطرس سار على المياه عندما دعاه السَّيد المسيح. ولكنه بدأ بالغرق عندما فكَّر أنه سيغرق.

إن المتواضع وإن اجترح العجائب فلن يثق بفكره. كان في الأردن كاهن بسيط يجترح العجائب. كان يصلي على الناس والبهائم المصابين بالأمراض فيشفون. وكان المسلمون يقصدونه عندما يصيبهم مكروه

فَيُبْرِئُهُم. هذا الكاهن كان يتناول حساءً ساخنًا مع بعض الكعك قبل بَدء القداس الإلهي ويبقى دون طعام طيلة النهار. علم البطريرك أن هذا الكاهن يأكلُ قبل القداس الإلهي فاستدعاه إلى البطريركية. لبّى الكاهنُ الدعوة دون معرفة سبب استدعائِه. انتظرَ مع آخرين في قاعة كبيرة ريثما يتمُّ استدعاؤه. كان الجوّ شديد الحرارة في الداخل وكانت النوافذ مقفلة ولكنَّ شعاعًا من النور كان ينفذ من ثقب في النافذة فظنّه الكاهن حبلًا. بدأ الكاهن يتصبّب عرقًا فخلع جُبَّتَه وعلَّقها فوقَ الشعاع. عندما شاهد الآخرون الموجودون في القاعة ذلك فقدوا صوابهم فمضوا وأخبروا البطريرك. استدعاه البطريرك وطرح عليه جملة أسئلة: «ماذا تفعل؟ كيف تُمضي وقتك؟ هل تُقَدِّس بانتظام؟ كيف تتهيّأُ للقداس الإلهي». أجابه الكاهن: «إني أقرأ خِدمة السحر وأضرِبُ بعض المطانيات ومن ثم أحضِّر حساءً ساخنًا وأتناول وجبةً خفيفة ومن ثم أقدِّسُ». «ولماذا تفعل ذلك؟» سأله البطريرك. أجاب الكاهن: «إن أكلتُ قليلًا قبل القداس الإلهي فعندما «أتلَمَّظُ» الكأس (يأكل بشغف وتلذذ ويمسح شفتيه بلسانه، وهذا ما يفعله الكاهن عندما يتناول من الكأس المقدّسة الدم الإلهي، وكذلك بعد نهاية القداس الإلهي يذهب الشماس أو الكاهن إلى المذبح وينهي ما تبقى فيه بعد مناولة المؤمنين) يصبح المسيح من فوق، أما إذا أكلت بعد القداس الإلهي يصبح المسيح من أسفل». كان هذا الكاهن يتصرّف بفكر حسن. عندئذ قال له البطريرك: «ليس صحيحًا هذا القول، عليك أن «تَتَلَمَّظَ» الكأس ومن ثم تأكل قليلًا». ضرب الكاهن مطانية وقَبِل ما قيل له.

ما أريد قوله، هو أن الكاهن بالرغم من اجتراحه العجائب قَبِل ما قِيل له ببساطة. لم يؤمن بفكره ولم يقل: «أنا أصلي على الناس والبهائم

فيتعافَون، ما هذا الكلام الذي يقوله لي البطريرك؟ ما أفكِّر به هو الصحيح». لم يقل ذلك بل أطاع. فالخلاص هو الطاعة. لأن الطاعة تساعد كثيرًا، والمرء الضعيف العقل يصبح فيلسوفًا إن أطاع. والذكي أو الأحمق، المعافى أو المريض، والذي يتعذّب من أفكاره يتحرّر إن أطاع.

من يجرِ وراء أفكاره يتحطّمْ من تلقاء ذاته. قد يكون أحد الأشخاص ذكيًا ولكنه يتعذّبُ باستمرار إن هو أحبَّ ذاته وتفرَّد برأيه. يُواجهُ المشاكل ويتشوشُ فكره، وما عليه في هذه الحالة إلا أن يلجأ إلى أب روحي يطلب مساعدتَه بتواضع. غير أَنَّ بعض الناس يلجأون إلى طبيب نفساني قد يصف لهم أدوية لا تحلّ المشكلة، ذلك أنهم بحاجة إلى مساعدة روحيّة تُوقف عذاباتِهم وتُحَسِّن حالتَهم.

الفصل الرابع
الجهاد ضد الأفكار

عمق الحياة الروحيّة يكمن في الأفكار

ياروندا! لقد قرأت أن اليونانيين في حربهم ضد الإيطاليين حاولوا أولًا تدمير حصون العدو ومن ثم شنّوا هجومهم.

– وهذا ما يفعله الشيطان أيضًا. فكما أن العدو يقصف الحصون بالطائرات والمدفعية لتدميرها قبل شنّ هجومه، هكذا الشيطان يقصف الإنسان بالأفكار ومن ثم يشنّ هجومه. إذا لم يستطع الشيطان تدمير فكر الإنسان فلا يشنّ هجومه، لأن الإنسان المتحصّن بفكر حسن (هو كالجندي الآمن في «خندقه») لا يُغلَب.

الفكر الذي من اليسار (السيء) هو جسم غريب، وعلى الإنسان اقتلاعه. وكلّ واحد منا يمكنه أن يجاهد في هذا السبيل؛ فلا يتذرعنَّ أحد بالضعف أو عدم القدرة على ذلك. هذا الجهاد لا يتطلب سواعد قوية مفتولة لتحمل مطرقة ثقيلة أو معولًا. الموضوع يتطلب اقتناء أفكار حسنة (تأتي من اليمين). فلماذا أتفحص غرابةَ طَبْعِ الآخر؟ قد يكون

ما يقوم به سببًا وجيهًا لتواضعه. وهكذا دومًا ينبغي أن نوجّه أفكارنا من اليسار إلى اليمين.

– ياروندا! إني أضطرب لأنَّ كلَّ ما أقوم به يكون من اليسار. إني أجاهد ولكنني لا أستطيع الدَّوران نحو اليمين.

– يجب أن تَفْرِزِي الأفكار السيئة وتجاهدي لإبعادها بهدوء. وإن شئتِ أن تُحْرِزِي تقدمًا فلا تهتمّي لهجوم الشيطان ومحاولة جرِّك إلى صفّه، بل تجاهليه وأديري الدفّة بقوّة مضادة. حاولي أن تقتني أفكارًا حسنة. فكلُّ عمقِ الحياة الروحيّة يكمن في الأفكار. كما أن التقدّم في الحياة الروحيّة يتوقّف على الفكر.

– ياروندا! مَن يساعدني في الجهاد ضد أفكار اليسار؟

– اليقظةُ والصلاةُ الدائمة. باليقظةِ تحترسين وتجلبين أفكارًا حسنة. فإذا شاهدتِ كوبًا فكِّري فورًا بالكأس المقدّسة والعشاء السري حيث كان المسيح. والعكس صحيح.

حاولي أن لا تجمعي أفكارًا متعددة مختلفة ومن ثم تحاولين طردَها. صلِّي بتركيز صلاة يسوع، وإن تشتّت ذهنك وقت الصلاة حاولي استرجاعَه بصورة مستمرة. لا تسمحي لفكرك بالدَّوران ولو في الأمور التي لا تُعْتَبَرُ سيئة، لأن الدَّوران في فلك أمور تافهة جامدة – إضافة إلى التشتت – يؤدي إلى اعتراف في هدر الأفكار على غير طائل، وركودها. وعند ذلك يأتي الشرّير فيخلق أفكارًا ماكرة أشدّ خطرًا من الأفكار السيئة، لأننا لا نفهمها كي نطردها.

– ياروندا! يقول لي فكري: «لم تحرزي تقدمًا بعد سنوات كثيرة من وجودك في الدير».

– وماذا يقول لكِ فكركِ أيضًا؟ يبدو أنت تُنصتين إلى ما يقوله المُجرِّبُ. ما هذا الخداعُ الذي أَوقَعَكِ به؟ لماذا تثقين بالمجرِّب؟ ولماذا هذا الاضطرابُ؟ إهدَئي. أنت تتعذبين عبثًا وتحزنين ظلمًا. الشيطان يُريكِ الأمورَ مقلوبةً ويشوّش أفكارك، فيزرعُ فيها التشاؤم ليَصْرِفَك عن الصلاة والانتباه في العمل ويبدّدَ وقتك سدًى. وهذا التشويش والحزن والتشاؤم يُفرِحُه. حاولي عندما تعملين منفردةً اتباعَ النظامِ التالي: ترتيلٌ، تمجيدٌ، صلاةُ الرب يسوع بالذهن أو بصوت مسموع، وعندها يخرس همسُ الأفكار وتجدين طرقًا قوية. إن كان الشيطان قادرًا على استنباطِ طرقٍ، فلماذا لا نحذو حَذْوَه؟ في أحاديثي مع الأشخاص، وفي اللحظة التي أُزمِعُ فيها أن أقول لشخص كلامًا يساعده، يأتي أحد الأشخاص ويقطع الحديث، أو تحدث ضجّة ما فأتوقف مضطرًا عن الكلام. إذا كان الشيطان ينفّذ خططًا كهذه فلماذا لا نحذو حذوه؟ كوني ذكية واهزَئي به.

– يارونداا! يتآكلني الحزن والضجر حتى لأحسّ بالاستشهاد.

– الاستشهاد قبل الاستشهاد!... أنت تثقين بنفسك. لقد أصبحت أفكار اليسار حالةً ثابتةً فيك، لهذا تتعذّبين. أنت بحاجة إلى أفكار اليمين. إنَّ أفضلَ مشروع يقوم به الإنسان هو أن يُنشِئَ معملًا للأفكار الحسنة، وعندها فإن الأفكار السيئة التي يصنِّعُها ذهنهُ تغدو حسنة. إن نظرتِ روحيًا إلى إنسان، إلى نفس هذا الإنسانِ، تصعدين إلى السماء؛ وإن نظرتِ جسديًا إلى إنسان، تنحدرين إلى الجحيم.

– يارونداا! عندما أضع فكرًا حسنًا يأتي بعد قليل فكر سيّء ويُفسِدُه. هل ما أقوم به غيرُ نابعٍ مِن القلب؟

– يجب أن يكون ما تقومين به نابعًا من القلب؛ وإن داهمك فكر سيّء فاطرُدِيه وهكذا ينتهي الأمر.

– يارونداا! قد يحدث أنني أجاهد وأطردُ فكرًا من اليسار ولكنه يعود مجدَّدًا رغم إقفال الموضوع.

– نعم! انتهى الموضوع، ولكن الشيطان لم ينتهِ. الشيطان لا يموت أبدًا. فالكلب يهرب إن ركلتِه مرة أو مرتين، أما الشيطان فلا يغادر ويبقى مكانه. أضأتُ مرة شمعة لقدّيسي القلّاية طردًا للشيطان، فقالت لي الشياطين: «أمن أجلنا أَضَأْتَ الشمعة؟» فقلت: «وكيف أضيئها من أجلكم؟ لقد أضأتها من أجل القدّيسين». «نعم، قالت الشياطين، نحن أجبرناك على إضاءَتها».

– يارونداا! عندما يصاب الإنسان بمكروه ويتساءَل: «لماذا يا إلهي حدث هذا الأمر»، هل يمكن له أن ينال المساعدة؟

– وكيف ينال المساعدة؟ هل فسَّر الأمور بفكر حسن؟ بعض الناس، يملكون مواهب كثيرة ومؤهلات للحياة الروحيّة، ولكن دفَّتَهُم تُخطِئُ في تحديد الاتجاهِ الصحيح. إن استطاعوا إدارةَ الدفّة باتجاه الأفكارِ الحسنة، فإنهم يَتَقَدَّمَون في الاتجاه الصحيح الثابت.

تنمية الأفكار الحسنة

– يارونداا! هل الأفكار الحسنة تأتي من تلقاء ذاتها، أم يجب تنمِيَتُها؟

– يجب تنميتها. يجب أن تتابعي نفسك وأن تفحصيها. وعندما يجلب لك العدو أفكارًا سيئة، حاولي أن تَطْرديها وتضعِي مكانها

أفكارًا حسنة، وعندها ينمو تصرفك ويصبح أفضلَ من ذي قبل. وعندما يرى الله تصرفَك الحسن، يتنازلُ ويساعدك إلى حين اختفاء الأفكار السيئة من داخلك. تغادِرُك الأفكار السيئة، وتقتنين أفكارًا حسنة تميل بك نحو الخير، ويملأُ الصلاح قلبَك فيكونُ المسيح في داخلِك. ولكنَّ هذا الأمر لا يتم بين ليلة وضحاها. إنه يحتاج إلى جهاد مستمر، قد يستمر سنواتٍ تُحرزُ النفسُ في نهايتها إكليلَ الظَفَر. وعندها تختفي الحرب نهائيًا، لأن الحروب هي فيضُ عَدَمِ توازنٍ داخلي.

– إذًا، هل كلّ الذين يقتنون أفكارًا حسنة حقّقوا ذلك بالجهاد؟

– هذا يتوقف على حالة الناس. بعضهم يقتنون أفكارًا حسنة منذ بداية حياتهم الروحيّة فيتقدّمون. وبعضهم لم يحافظوا على أفكارهم الحسنة، فاقتنوا أفكارًا سيئة. وبعضهم تخلّوا عن أفكارهم السيئة واقتنوا أفكارًا حسنة. وقد تتساوى الأفكار الحسنة والسيئة في نفس إنسان. بالعمل الروحي وطرد الأفكار السيئة وتنمية الأفكار الحسنة يتوصّل الإنسان إلى اقتناء أفكار حسنة فقط. وقد تطول الفترة الزمنية الكافية لطرد الأفكار السيئة أو تَقْصُر. وقد يحدثُ أن تَمُرَّ فترةٌ لا يمتلك فيها الإنسانُ لا أفكارًا حسنة ولا سيئة، وعندها يستبدُّ به القلقُ النفسي فيتساءَل قائلًا: ماذا يحدثُ الآن، كنت أقتني أفكارًا سيئة حلَّت محلها أفكارٌ حسنة، والآن لا هذه ولا تلك. بعد هذا الفراغ يمتلئُ الذهن من النعمة الإلهية وتأتي الاستنارة الإلهية.

– يارونداا! كيف يكون هذا الامتلاء؟

– إن إنسانًا لم يرَ النجوم لا يستطيع أن يتصوّر شكل الشمس، والعكس صحيح.

– يارونداا! ما الذي يساعد الإنسان كي يصل إلى هذا الفراغ (من الأفكار) الذي ذكرته؟

– الهذيذُ الروحي والصلاةُ غير المنقطعة والصمتُ والنُّسْكُ المتفاني. فنفسٌ تجاهد ضد الأفكار السيئة تستطيع أن تصل إلى حالةٍ أفضلَ من نفس أخرى لا تملك أفكارًا سيئة. ففي بداية حياتها الروحيّة، قد تقتني النفس نسبةً ضئيلة من الأفكار الحسنة، ولكنها قد تصل إلى حالة أفضل من النفس التي تقتني نسبة ضئيلة من الأفكار السيئة.

نقاوة الذهن والقلب

– يارونداا! كيف نحصل على نقاوة الذهن والقلب؟

– قلتُ لكِ سابقًا، إنَّ على الإنسان أن لا يقبل الأفكار الشرّيرة التي جَلَبها له الشيطان وعندها يتطهّرُ الذهن. وعليه أن يفكّر بصلاح وينظرَ إلى أخطاءِ الآخرين بمحبةٍ ولين. وعندما تتضاعفُ الأفكارُ الحسنة يتطهّر الإنسان نفسيًا، فيتحرّكُ بتقوى ويهدأ ويعيش حياة سلامية. أما إذا نظر إلى الأمور بمنظار عدم الثقة فإن حياته تصبح جحيمًا، ويتحمّل الإنسان مسؤولية ضخمة في جعل حياته جحيمًا.

ينبغي أن نسعى ونعمل من أجل النقاوة. إن كنا لا نقتبل أفكارًا شرّيرة، ولا نفكّر بخبث، ونضع أفكارًا حسنة فإن الذهن سيتنقّى. الشرّيرُ لا يستكين، فهو لا ينفكُّ يرسل إلينا بعض البرقياتِ الشرّيرة. إن تحرَّرْنا من أفكارنا الخاصة، فإن مضايقاتِ الشيطان رغم جهوزيتها لن تؤثر فينا، خاصة إذا كان القلب نقيًا.

– يارونداا! ألا تساعد الصلاة في نقاوة الذهن؟

– لا تكفي الصلاة وحدها. إذا أشعل إنسان كيلوغرامًا من البخور وهو يصلي وكان ذهنه مملوءًا من الأفكار السيئة فإنه لن ينتفع؛ لأن من الذهن تنطلق البرقيةُ إلى القلب فتجعل الإنسانَ وحشًا. يريد الله منا أن نقتني «قلبًا نقيًا» (مز ٥٠: ١٢)، وقلبنا يكون نقيًا عندما لا نسمح بالأفكار السيئة أن تطرقَ بابَ ذهننا.

– يارونداا! إذا اقتنى الإنسان أولًا فكرًا حسنًا فهل يساعده الله؟

– إنتبهي. يستحقّ الإنسان المساعدة الإلهية عندما يقتني فكرًا حسنًا؛ فبالفكر الحسن يتنقّى القلب من كلّ خبث – لأن «من القلب تخرج كلُّ الأفكار الشرّيرة» (متى ١٥: ١٩) و«من فيض القلب يتكلم اللسان» (لو ٦: ٤٥) – وعندها يكافئُه الله.

أن نطرحَ تساؤلاتٍ على أفكار الشك

– يارونداا! ما الذي يساعدني على طرد أفكار الشك؟

– هل كلُّ الأمور هي هكذا كما تَرَينَها؟ إطرحي تساؤلًا على كلِّ فكر لك؛ وعندها ترين أنّها كلَّها من اليسار؛ إطرحي أيضًا تساؤلًا على كلِّ فكر حسن تجاه الآخرين. إطرحي تساؤلَين، فهذا أفضل. وإن طرحت ثلاثة فذلك أفضل بكثير. وهكذا تهدَئين وتنتفعين وكذلك ينتفع الآخرون. وإلا فإن أفكار اليسار تقودُك إلى السُّخط والاضطراب والحزن وينتهي بكِ الأمر إلى الأذى الروحي. واجهي كلَّ ما تشاهدينه بفكر حسن فسترين أن الأمور تسير نحو الأحسن. سأسرد عليك حادثة لتعايني ماذا يفعل الفكر الذي من اليسار: جاء

ذات يوم إلى القلّاية أحدُ الرُّهبان وقال لي: «الشيخ خارالمبوس ساحر لأنه يقوم بأعمال سحرية». أجبته: «هذا صحيح»؟ قال: «لقد شاهدتُه ذاتَ ليلةٍ مُقمرة وهو يرشّ شيئًا من زجاجة كبيرة داخل الأشجار ويغمغم: م، م، م م م».

بعد أيامٍ قصدتُ الشيخَ خارالمبوس وسألته: «ماذا يحدث أيها الشيخ خارالمبوس؟ كيف تُمضي أيامَك؟ كيف حالُك؟ لقد شاهدك أحدهم ترشّ شيئًا بواسطة زجاجة كبيرة داخل الأشجار وتغمغم: م، م، م م م». أجابني الشيخ خارالمبوس: «هناك بعض الزنابق داخل الغابة فخرجت لأسقيها وكنت أرشّ قليلًا من الماء على زنبقة وأقول: افرحي يا عروسًا لا عروسَ لها، وكنت أملأُ الزجاجة مجدَّدًا وأُعاود الرشَّ قائلًا: إفرحي يا عروسًا لا عروسَ لها». أرايتِ؟ لقد حسبَه الراهب ساحرًا.

إني أرى عند بعض الناس أفكارًا حسنة، فيما آخرون مساكينُ يقتنون أفكارًا تعذّبهم ولا تُوجد أصلًا حتى في مخيّلة الشيطان. بعد جفاف كبير أمطرت السماء قليلًا فشعرتُ بحالة من الشُّكر نحو الله، وفيما كنت جالسًا في القلّاية كنت أردّد باستمرار: أَشكرك يا إلهي مليونًا وألف مليون مرة. وكان علمانيٌّ في الخارج يسمع دون أن أعلم بوجوده. وعندما رآني لاحقًا قال لي: «لقد وقعتُ في الشّكوك والظنون أيها الأب، إذ سمعتك تقول: مليون وألف مليون، فتساءلت ما هذا الذي يقوله الأب باييسيوس!» ماذا كان بإمكاني أن أردّ عليه. كنت أشكر اللهَ ملايينَ المرات، وهو ظنّ أنني أعدّ أموالًا. لو كان شخصًا آخر لأطبق عليّ في عتمة الليل وراح يضربني بعصا غليظة طالبًا الأموال التي لا وجودَ لها أصلًا.

مرة أخرى، جاء أحد الأشخاص يحملُ آبنَه المريض. ذهبتُ به إلى داخل الكنيسة من أجل رؤيته. وعندما استمعت إلى مشكلته قلت له لأُساعِدَه: «عليكَ أن تفعل شيئًا من أجلِ آبنك. أنتَ لا تضرب مطانياتٍ ولا تصوم ولا تملك مالًا للإحسان، فقل لله يا إلهي إني لا أملك شيئًا حسنًا أقدّمه ذبيحةً عن صحة ولدي فسأُحاول على الأقلِّ الإقلاعَ عن التدخين». تأثر الوالد المسكين ووعد بالقيام بذلك. ذهبت لأَفتح له الباب لينصرفَ فترك علبة السجائر مع القداحة أَسفل إيقونة المسيح دون أن أنتبهَ لهذا الأمر. بعد انصراف الرجل، دخل إلى الكنيسة شاب يريد قول شيء لي ومن ثم مضى خارجًا وراح يدخِّن. قلت له: «أيُّها الشابُ! لا يليق بك أن تدخّن هنا، إبتعدْ قليلًا». فأجابني: «وهل يُسمح لكَ أن تدخّنَ داخل الكنيسة؟». لقد شاهد علبة السجائر مع القدّاحة اللتين تركهما والدُ الصبي المريض واقتنى فكرًا سيئًا عني ألا وهو التدخين. تركته يمضي ومعه فكرُه. حسنًا، إنْ كنت أدخّن فهل سأقوم بذلك داخل الكنيسة؟ أَرأَيتِ ما هو الفكر؟

– يارونداا! الشَّك وعدم الثقة باستطاعتهما إيذاء النفس. فإلى أيِّ مدى؟

– بحسب ما يكون الشك يكون الأذى. عدم الثقة يقود بسهولة نحو الإثم.

– وكيف يُشفى منهما؟

– بالأفكار الحسنة.

– يارونداا! أحيانًا يعرف الإنسان أن نفسه تسقط وتحيد بعيدًا عن الطريق السويِّ. ألا يساعده ذلك؟

– حذارِ السقوط أكثر من مرة، فإن كانت الأمور لا تطابق ما نفكّر به فإننا نسقط في الخطيئة. عندما كنت في دير الشِّركة (قبل أن يصبح الياروندا ناسكًا يسكن لوحده) في فترة الصوم الكبير وضع الأب دوروثاوس «قرعًا» في المقلاة ووضعها على النار. رآه أحد الأخوة فأسرع وقال لي: «إن الأبَ دوروثاوس يقلي سمكًا كبيرًا». أجبته: «لا يمكن أن يفعلَ ذلك في الصَّوم الكبير». «بلى، أجابني، وقد شاهدته بأُم العين يقلي سمكًا كبيرًا». هذا الأب كان يهتم بالشيوخ في الجبل المقدّس، منذ مجيئه وهو في سن الخامسة عشرة، ويعود المرضى ويعطيهم بعض الطحينة ونواة الجوز أو أيَّ شيء آخر يملكه. وقد ذهبت لرؤية هذا الأب، فماذا رأيتُ؟ رأيته يقلي قرعًا من أجل مستشفى الدير.

– ياروندا! لنفترضْ أَنَّ فكرَ شَكٍّ على الآخر كان صحيحًا؟

– من قال إن الأفكارَ – وإن كانت صحيحةً مرةً – ستكونُ صحيحةً في كلّ مرة؟ فضلًا عن ذلك، أنّى لك أن تعرفي إنْ كان اللهُ قد سمح أن يخرج ذلك الفكر صحيحًا ليقدّم للآخر امتحانًا روحيًا في التواضع؟ طبعًا على المرء أن يحترس لكي لا يدفعَ الآخرين إلى استنتاجاتٍ خاطئة. إن كان أحد قد وضع عليك فكرًا يساريًا فقد يكون السبب الحقد أو دوافع تسبّبتِ أنت بها. أما إذا فكّر الآخر بحقّك فكرًا سيئًا على الرغم من احتراسك، فمجّدي الله وصلّي من أجله.

النقاش مع الأفكار

– ياروندا! عندما يداهمني فكر كبرياء أتعذّب.

– هل تحفظينه في داخلك؟

– نعم.

– ولماذا تحفظينَه؟ أَوصِدِي له البابَ. إن كنت تحفظينه في داخلك ستتأذين. يأتي الفكر كالسارق، تفتحين له الباب فيدخل، وتتجاذبينَ معه الحديث ثم في غفلة يقوم بسرقتك. هل يتحدّث المرءُ مع سارق؟ إنه لا يتحدث معه فحسب، وإنما يُقفل البابَ في وجهه. لماذا تسمحين لهذا السارق بالمرور؟ لنُعطِ مثلًا: لنَفترضْ – وأنتِ بريئةٌ من ذلك – أَن فكرًا أتاك هامسًا في أُذنيك: باستطاعتك أن تصيري رئيسةً. وعندما يخطر هذا الفكر في البال قولي لنفسك: جيدٌ جدًا. تريدين أن تصبحي رئيسة إبدأي بكونكِ رئيسةً على نفسك، وعندها ينقطع الحديثُ للحال. هل نفتحُ حديثًا مع الشيطان؟ هل نُجري معه نقاشًا؟ عندما حاول الشّيطان تجربة السّيد المسيح قال له: «إذهب ورائي يا شيطان» (لوقا ٤:٨). المسيحُ قالَ للشيطان: «إذهبْ»، فهل نفتحُ نحن نقاشًا معه؟

– ياروندا! هل أَقوم بأمر سيء إذا تناقشت مع فكر من اليسار بُغيةَ معرفةِ مصدرِهِ؟

– الشَّيءُ السيِّء هو أَن المناقشة مع الفكرِ السيء هي مناقشة مع الشيطان. تُمضين ساعةً بسرور ثم تبدأ رحلةُ العذاب. لا تناقشي أبدًا أفكارًا كهذه. إرمي قنبلةً يدويّة على هذا العدو تقتليه، ولو أن القنبلة اليدويّة لا تنفجر حالًا وإنما بعد دقيقتين أو ثلاث.

وهكذا، فإنَ فكرَ اليسار إن طردتِه للحال لا يستطيع أن يُسبّبَ لك الأذى. ولكن قد يحدث أَنك تغفلين أحيانًا ولا تردّدين الصَّلاة ولا تستطيعين المُدافعةَ، فتأتي برقيات الشيطانِ فتستلمينها وتقرئينها مرات وتؤمنين بها وتحفظينها في الأرشيف. هذه الملفّاتُ سوف يُظهرها الشيطانَ في يوم الدينونة للإيقاع بك.

– ياروندا! متى يُعَدُّ هجومُ فكرٍ من اليسار سقطةً؟

– يأتي فكرٌ من اليسار وتطردينه في الحال ولا يُعتبر ذلك سقطة. أما إذا أَقَمتِ نقاشًا معه فهنا تكمنُ السَّقطةُ. إذا قبلتِه ثم طردتِه فذلك يشكِّل نصفَ سقطة، لأن الشيطان عندها يكون قد لوَّث ذهنك. المهم أن لا تستقبلي الشيطانَ في بيتك، أو تُلقي عليه السلام، أو تسأليه عن حالته، أو تقدّمي له الضيافة ومن ثم تطلبين منه الانصراف. لماذا أَدخلتِه وأنت تعرفين أنه الشيطان؟

الموافقة على الفكر

– ياروندا! لماذا تخطر على الذهن أفكار سيئة وأنا مقيمة في الدير؟ إن ذلك لم يحدث لي قط عندما كنت في العالم. لماذا يحدث لي ذلك؟ هل أسمح لها أنا بالمجيء؟

– كلا! أيتها المباركة! دعيها وشأنها إنها تأتي وتذهب. هل تأخذ الطائرات إذنًا منك وهي تعبر أجواء الدير وتخرق هدوءَه؟ هكذا أيضًا الأفكار. لا تفقدي الرجاء. هذه الأفكار هي من تقنيات الشيطان. إنها تشبه العصافير التي تبدو جميلة وهي تحوم في الفضاء وتطير، ولكنَّها تغدو مزعجة عندما تعشّش في المنزل وتتكاثر فتوسِّخ المكان.

– لكن! لماذا تأتيني هذه الأفكار؟

– هذا عمل يقوم به الشيطان، وداخلك لا يزال يحمل آثاره ولم يتنقَّ بعد. ولكنك لا تتحملين المسؤولية بما أنك لا تتقبّلين هذه الأفكار. دعي الكلاب تنبح ولا ترميها بالحجارة، فكلما رميت حجرًا ازدادت الكلاب نباحًا؛ هذه الحجارة الكثيرة ستكون صالحة لبناء منزل يصعب هدمه لاحقًا، فلا تهدريها على الكلاب سدًى.

– إذًا متى تحدث الموافقة على الأفكار؟

– عندما تمصّنها وكأنها حبة «بونبون». حاولي عدمَ مصِّ هذه الأفكار المغلّفة بالسكّر من الخارج والمحشوّة من الداخل سُمًّا زعافًا وإلا فَقدْتِ الرجاء. أن تمرَّ أفكار سيئة على الإنسان فهذا ليس مصدرَ قلق، فالملائكة والكاملون فقط بريئون من هذه الأفكار. ما يثير القلق هو أن يفتح الإنسانُ قلبه لاستقبال الشياطين. إنْ حدث هذا الأمر مرّة، عليه أن يُسرع ويعترف، وأن يحاول زرع أشجار مثمرة ليصبح قلبُه فردوسًا من جديد.

القسم الثاني
العدل و الظلم

«أتمنّى لو يظلمني كل الناس!
فالحقيقة، إنَّ أعذب فرحٍ روحي تذوّقته كان عندما
كنتُ أُعانيً ظلمًا كبيرًا.»

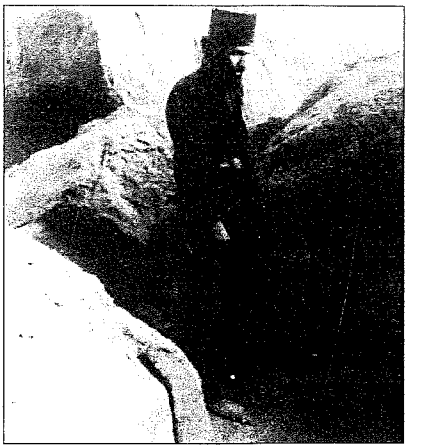

الياروندا في منسك القدّيسة
آبيستيمي في سيناء

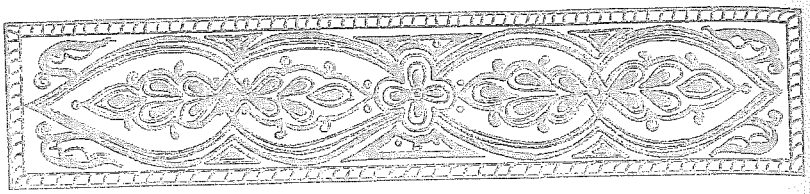

الفصل الأول

قبول الظلم

مواجهة الظلم الصحيحة

يا روندا! عندما يظلمني الآخرون يتحجّرُ قلبي.

– منعًا لتحجّر القلب لا تبحثي عن الذَنْبِ الذي ارتكبه الآخر والظلم الذي أَلحقه بك، بل إبحثي عن ذَنْبِك أنتِ. عندما يتشاجر الناس يدّعي كلّ واحد أن الحقَّ بجانبه ولهذا السبب يستمرُّ التشاجرُ والجدل. يلجأون إلى الشرطة، ويرفعون الدعاوى على الآخرين مدَّعين أن الآخرين ضربوهم من غير أن يذكروا عددَ الضربات التي سدّدوها للآخرين.

لو كنّا نفكّر أن المسيحَ هو المظلومُ الأكبر، لَتَقبَّلْنا الظلمَ بفرح. ذلك أَنه – وهو الإله – آنحدر إلى الأرض وحلّ في بطن العذراء تسعة أشهر، وعاش ثلاثين عامًا في الخفاء، وعمل على مدى خمسَ عشرةَ سنةً نجّارًا عند العبرانيين. هل تتصورين طبيعة ذلك العمل ومدى قساوته وصعوبتِه واستعمالِ منشارٍ خشبيٍ يدوي؟ كان يتنقّلُ حافيَ

القدمين يكرز. يشفي المرضى، يفتحُ أَعينَ العميان، ويُخرجُ الشياطين ورغم كلّ ذلك قال عادمو الشكر إن فيه شيطانًا. ورُغم كَثرةِ العجائبِ التي اجترحها، وكثرةِ الذين تنبأوا عنه، فقد انتهى به الأمر مصلوبًا على خشبةٍ بين لصّين.

لذلك، فالمظلومون هُمُ الأولاد المحبَّبون كثيرًا لدى الرب؛ يتعزّون داخليًا لأنهم يملكون المسيحَ المظلومَ في داخلهم. وعندما يتعرّضون للنفي أو السجن يعتبرون أنفسهم في الفردوس مع المسيح الذي كابد النفي والسجن ظلمًا.

– ياروندا! هل يمكن أن يحدث أن إنسانًا مظلومًا قد يكون لديه حمل يفوق طاقته على التحمّل؟

– إن الله لا يسمح بحِملٍ يفوق طاقتنا. وقد يحدث أن يترك الله الصالح الناس الصالحين بين أيدي الأشرار، يحمّلونهم أثقالًا لا طاقة لهم على حملها، لكي يجنوا بذلك أجرًا سماويًّا.

– ياروندا! هل ثَمَّةَ من علاقة بين التذمّر والشكوى؟

– نعم قد يحدث أن شخصًا لا يفهم تصرف الذين يهتمون به، فيشعر بالظلم ويتذمّر. وقد يظنّ أنهم يظلمونه عندما يطلبون منه الاحتراس وعدم اقتراف الخطأ فيشكو ويَئنُّ. قد تقترف أختٌ خطأً معيّنًا، مثلًا عندما تزيد نسبة السم فتحرق أوراق الشجر والزهر. وعندما تُوجَّه إليها ملاحظة، تشعر بأنها مظلومة فتبدأ بالبكاء بدل الاعتذار وطلب السماح، وتصرخ قائلة: «لو جاء الجراد وأتلف الشجر لاعتصم الجميع بالصمت. مسيحي! أنت وحدك تفهمني»؛ وقد تشعر بالفرح أيضًا متوهمة بأنها قد ظُلمت وستنال أجرًا عن الظلم الذي قبلته؛ هذه حالة خاطئة وضلال كبير مصدرهما التذمر والشكوى.

الفرح الناجم عن احتمال الظلم

– ياروندا! عندما أَقبَلُ بفرح توبيخًا ناجمًا عن مخالفةٍ قمت بها. فهل هذا الشعور بالفرح هو شعور صحيح؟

– إنتبهي! إن كنتِ ترتكبين مخالفاتٍ ولا تتذمّرين عند التوبيخ بل تفرحين وتقولين: «المجد لك يا الله! هذا ما أَستحقُّه»! فستشعرين بالفرح الجزئي. أما إذا تعرّضتِ للتوبيخ ظلمًا، وقبلتِ هذا الظلم بفكر حسن فستشعرين بالفرح الكامل.

أنا لا أَطلبُ منك أن تسعي لتُظْلَمي، فإن الشيطانَ قد يدفعك إلى الكبرياء. وإنما أطلب منك أن تقبلي الظلم عندما يحصل بشكل طبيعي، وأن تفرحي لأنك ظُلمت. هناك أربعُ درجات في مواجهة الظلم: ضرَبك أحدُ الأشخاص ظلمًا فتقابلينه بالمثل، هذه هي الدرجة الأولى. تشعرين في داخلك بانزعاج كبير ولكنك تضبُطين نفسك ولا تتكلّمين، هذه هي الدرجة الثانية. لا تضطربين عند تلقي الضربة، هذه هي الدرجة الثالثة. تشعرين بفرح كبير وتعزية نفسيّة كبيرة، هذه هي الدرجة الرابعة.

عندما يُظلم المرء ويقدّم البراهين على براءته، فيتبرّر ويشعر بالرضا، إذ ذاك ينعم بفرح عالمي. أَما إذا واجهَ الظُّلمَ مواجهةً روحيّة ولم يسعَ لإظهارِ براءته فيشعر عندها بفرح روحي، ويقتني في داخله التعزية الإلهية ويتحرّك ضمن نطاق «الذوكصولوجيا» (أقوال التمجيد لله).

أَتعلَمين مقدارَ الفرح الذي تشعر به نفسٌ عندما تُظلم ولا تبرِّر ذاتها لُيقال لها: «براڤو أو المعذرة»؟ الذين يَصِلُون إلى هذه الدرجة يرفعون الشكر للذين ظلموهم، لأن هذا الظلم وفَّر لهم الفرحَ الغامرَ في هذه

الحياة وضَمَن لهم الحياةَ الأبدية. أَرأَيتِ كم يختلفُ الفرحُ الروحي عن الفرح العالمي.

في الحياة الروحيّة الأُمورُ مقلوبةٌ. إنِ آحتفظتِ بالبشاعة أحسستِ بالجمال والعكسُ صحيحٌ. عندما تَقبلين الظلم تقتبلين المسيح المظلوم في قلبك وعندها يستوْطِنُ المسيح في داخلك ويملأُك سلامًا وتعزيةً. جرِّبنْ ذلك لتَعِشْنَ هذا الفرحَ. تعلَّمْنَ أَنْ تشعُرْنَ بالفرح الروحي وليس بالفرح العالمي، وستُعيِّدن الفصحَ كلّ يوم.

لا فرحَ أعظم من الفرح الناجم عن تقبُّل الظلم. وأَعترفُ بأن أَعذبَ فرحٍ روحي شعرت به هو الذي نلتُه جرَّاءَ الظلم؛ حبذا لو يظلمني كلُّ الناس! عندما يتّهمني أحدُهم بالضَّلال أفرحُ وأمجِّدُ الله لأنني سأنال أجرًا، أما قولهم عني بأني قدِّيس فَيُرَتِّب عليَّ دَيْنًا. لا يوجد أمرٌ أعذب من الظلم!

ذات صباح طرق بابَ القلَّايةِ أحدُ الأشخاص. تطلّعت من النافذة لأرى مَن الطارق، إذ لم يحنِ الوقتُ بعدُ لاستقبالِ الزوار، رأيت شابًا ذا وجه مستنيرٍ ففهمت أنه عاش حوادثَ إلهية كَشَفَتْها نعمة الله المستقرة عليه. بالرغم من انشغالي، قطعت العملَ الذي أَقوم به وفتحتُ الباب وأَدخلتُهُ. قدّمتُ له كوبَ ماء ثم بدأْت بطرح الأسئلة عن حياته فشعرت أن لديه قامةً روحيّةً كبيرة. سألتُه: «ماذا تفعلُ أيها الشاب؟» – «لقد كبرت في السجن حيث أَمضيتُ معظمَ سِنِي حياتي، وعمري الآن خمسٌ وعشرون سنة». – «حسنًا أيها الشابُ، ماذا فعلت لِتُزَجَّ في السجن؟» فتح الشاب قلبه وقال: «منذ صِغري، كنت أَتألمُ كثيرًا لدى مشاهدتي الناس الفقراء البائسين الذين كنت أعرفهم ليس فقط في رعيتي وإنما في الرعايا الأخرى. وكان

كاهنُ رعيتنا مع وُكَلاءِ الكنيسةِ يَجمعون الأموالَ بشكل متواصل ويُشيِّدُون الأبنيةَ والقاعاتِ ويرمّمون ويجمّلون أبنيةً أخرى. وقد أَهملوا الاهتمامَ بالبشر كما آهتموا بالحجر. أنا لا أَحكمُ إنْ كان ما يقومون به ضروريًا، لكنني رأيت آلبؤسَ يرتسِمُ على وجوه أُناسٍ كثيرين. مما دفعني سَرقة كميةٍ من الأموالِ التي جُمعتْ من الرعايا، كانت كافيةً لشراء أطعمةٍ وأَلبسة، وتركتها سرًا خارجَ بيوت الفقراء. ومنعًا لاعتقال أحد أو توجيهِ تهمةٍ باطلة ظالمةٍ إليه قصدتُ مركز الشُّرطة وأَخبرتُهم بأَنني سرقتُ الأموال من الكنيسة وصرفتُها كلَّها. إنهال عليّ رجالُ الشُّرطة بالضرب المبرِّح وأَمطروني بالشتائمِ ونعتوني باللص والحقير والشقيِّ، وكنت خلالَ ذلك كلّه معتصمًا بالصمت. ثم زجّوني في السجن وأغلقوا عليّ الباب. وقد استمر ذلك لمدة ثلاث سنوات. وقد عُرفتُ بعدها باللص والحقير في المدينة التي أقطن فيها، وعدد سكانها ثلاثون ألفَ نسمة. وَصِرْتُ المُتَّهمَ الرئيسي في كلّ عملية سرقة. فكنت أَعتصمُ بالصمت ممتلئًا فرحًا. واعتُقلت مرة لمدة ثلاثِ سنواتٍ ظلمًا. بعد هذا الاعتقالِ المتواصلِ دخلتُ أيضًا السجنَ ظلمًا مرة لعدمِ آكتشافهمِ السارقَ، ولكنهم عادوا فأطلقوا سراحي لدى اكتشاف المذنبِ الحقيقي. ولهذا السبب، قلت لك يا أبتي: «إني أمضيت معظم سنيّ حياتي في السِّجن».

بعد أن آستمعتُ له بانتباه قلت له: «أيها الشابُّ مهما كان العمل الذي قمتَ به عظيمًا فهو ليس صائبًا، وإياك أن تُعيد الكرّةَ ثانية. إسمعْ ما سأقولهُ لك: إبتعدْ عن هذه المدينة وامضِ إلى مدينة مجهولةٍ حيث لا يعرفُك أحدٌ، إلى المدينة «الفلانية» حيث سأُساعدك على الالتقاء بأناس صالحين. إشتغلْ وساعدِ الفقراءَ المتألمين على مقدار ما تستطع

من دَخلك، فهنا تكمن قيمةُ العطاء. أما مَن لا يملك شيئًا ليُحسِنَ إلى فقير، ويتألّم قلبه؛ فإن الإحسانَ بدمِ القلب هو أفضلُ إحسان يقوم به إنسان. فمن يملك شيئًا ويُحسِن به إلى الفقراء يشعرُ بفرح، ومن لا يملك شيئًا ليُحسن به فإنه يتألمُ وهذا الألم في القلب هو إحسانٌ بحدّ ذاته». وَعَدَني الشاب بالعمل بما قلتُه له وانطلق فرحًا. بعد سبعةِ أشهر آستلمتُ رسالةً من سجنٍ جاء فيها: «طبعًا ستتساءَل يا أبي لماذا أكتبُ إليك من السجن مجدّدًا بعد النصائح التي أسديتَها لي والوعدِ الذي قطعتُه لك. إعلمْ أنني هذه المرة أقضي عقوبةً في السجن سبق أن قضيتُها (أي أنه سُجن مرتين للسرقة نفسها). لقد حصل خطأٌ ما. من حسن الحظ أنه لا توجد عدالة بشرية، لأن الناس الروحانيين سيُظلَمون كونُهم يخسرون الأجرَ السماوي. فالعدالة البشريّة تَنفي الظلمَ عن الروحانيين فيخسرون بذلك الأجرَ السماوي».

عندما قرأت هذه الكلمات تعجّبت من هذا الشاب الذي اقتنى هذه الحرارةَ في الحياة الروحيّة وفَهِمَ المغزى الأعمقَ للحياة. لصٌ من أجل المسيح! المسيحُ في داخله! لم يستطعْ أن يكبحَ نفسه عن الفرحِ الذي كان يشعرُ به. لديه جنونٌ إلهي، عيدٌ روحي!

– يارونداا! هل يأتي الفرح من العار؟

– من الظُلم يأتي الفرح. سمعتِ قصة هذا الشابِّ الذي هو إنسانٌ عالمي. لم يقرأْ كُتُب سِيَرِ القدّيسين ولا الكتبَ الآبائية، لازمَ الصمتَ عندما ضُرب ظلمًا وأُلقي في غياهبِ السجون ولُقِّب باللص والحقير والشرّير وواجه كلَّ هذه الأمور مواجهة روحيّة. إنسان شابٌّ لم يهتمَّ بتدبيرِ شؤونِ نفسه وإنما اهتمَّ بكيفية مساعدة الآخرين. اللصوص الكبار نادرًا ما يدخلون السجون، في حين أن هذا الشابَّ المسكينَ

سُجِن مرّتين بسبب سَرقةٍ قام بها، وسُجِن بسبب سرقاتٍ أُخرى ظلمًا ولم يُطلقْ سراحُه إلا بعد اكتشافِ السارق الحقيقي. لكنَّ الفرح الذي كان يشعر به هذا الشاب لم يشعرْ به أحدٌ من سكانِ المدينة.

لذلك أقولُ: إن الإنسان الروحانيَّ لا يشعر بأي حزنٍ. فعندما تغمرُ المحبةُ القلبَ، يحترقُ هذا القلبُ من العشق الإلهي فيذوبُ الحزنُ إلى غير رجعة. إنَّ محبة الإنسان الفائقة نحو المسيح تجعلهُ يتغلبُ على الآلام والشَّدائدِ التي يُسبّبها له البشرُ.

الريح الناجم عن الظلم

– ياروندا! تتَّهِمني أحيانًا إحدى الأخوات بعملٍ أنا بريئةٌ منه، فأشعرُ نحوها ببرودة.

– توقّفي قليلًا! ماذا يقول تيبيكون الكنيسةِ عن هذا الأَمر؟ أنتِ غيرُ مذنبةٍ لأنك ظُلِمْتِ، وبذلك تجنين ربحًا. أما الأُختُ الأُخرى التي ظَلَمَتْك وقالت شيئًا بحقّك لكي تبرّر نفسها، فسيؤنّبُها ضميرُها وتقلق ثم تتوب وتتقرب إليك بمحبةٍ أكبر. وهكذا تسنحُ لك الفرصة لكي تغتني وتصبحي بَطْرِيْقَةً، وعندها تستطيعين إغناءَ إنسان آخَر. وهل يُعقل أن تلبث الواحدةُ غجريةً وترفضُ أن تصبح بَطْرِيْقَةً.

– يُصِرُّ الفكر أن أَسأَلَ الأُخت عن سبب اتهامي.

– طبعًا! فالشيطان يحثُّك على طرح الأسئلة لتزكّي نفسك. عندها تطردين المسيحَ، الذي ربحته بسبب صبرك على الظلم، من داخِلك.

– ياروندا! أُريد من الآخرين أن يعامِلوني بتسامح عند وقوعي في خطأ.

– ماذا؟ تريدين أن يبرّرَك الآخرونَ! لنقل إنهم قاموا بتبريرِك، فهل تربحين روحيًا أم تخسرين؟

– أَخسَرُ.

– إنْ كنتِ تملكين متجرًا، أتودِّينَ الربحَ أم الخسارةَ؟

– الربح.

– إذًا! إنْ كنا في الأمورِ المادية الفانية لا نُحب الخسارة، فكم بالأحرى ينبغي لنا أن نتجنّب الخسارةَ في الأمورِ الروحيّة؟ الناس العالميون يسعَوْن وراء الربح المادي ولا يتركون شيئًا يذهبُ سدىً، فهل من الصَّوابِ أن يرميَ الناسُ الروحانيّون الربحَ الروحيَّ؟

والناسُ العالميون يبدّدون أموالهم على أمور مادية، أَما نحن – فبعدم تقبّلنا الظلمَ – نُبدِّد الأمورَ الروحيّةَ السماوية. لماذا نستبدلُ السماوياتِ بالأرضياتِ؟ الناسُ العالميون يَجهلون الأمور الروحيّة أما نحن فنعرفُها. أصبَحْنَا رهبانًا لنربحَ السماويات، ننطلقُ من أجل شيء ولكننا ننتهي بشيء آخر. أن يُعامَل إنسانٌ عالميٌّ بقسوة أو يُنتَقَدُ أو يُصرف ظلمًا فهذه أمور موجِعةٌ بالنسبة إليه. أما نحن، فإننا نسعى وراء هذه الأمور ونطلبُها ونصبِرُ عليها محبةً بالمسيح. يجب أن نسعى وراءَ الخِزيِ والإزدراءِ والإهانة لنجنيَ ربحًا روحيًا لنفوسنا. لدى العالميين مبرّراتٌ، أما نحنُ فلا. ربُّ عائلة مضطرٌّ للمطالبة بحقّه لإعالةِ وتأمين قُوْتِ ولباسِ عائلته إن فقدَ اعتباره أو صُرِف من عمله. أما نحن الرهبان فلماذا نطالبُ بحقنا؟

عندما نُظلَم ونتقبَّلُ الظلمَ نُحسِن في الجوهرِ إلى نفوسنا. يُفترَى عليَّ ظلمًا بارتكاب جريمة. حسنًا! ضميري مرتاحٌ لأنني لم أقترفِ الجرم وسأَنالُ أجرًا سماويًا. فهل يوجد نفعٌ أَفضلُ من ذلك؟ لا أتذمرُ، بل على العكس أُمَجّدُ اللهَ وأشكرهُ لأنني لم أقترفِ الذَنْبَ وأَرتكِبِ الجُرْمَ،

ولو قمت بذلك لما احتملتُ عذابَ الضَّمير. عندئذ يصبح السجن فردوسًا. هل ضَرَبنِي أحدهم ظلمًا؟ أشكركَ يا رب! ربما أسدّدُ الدَّيْنَ عن بعضِ الخطايا. هلْ شَتمني أحدُهم ظلمًا؟ أشكُرك يا رب! إني أَقبَلُ الشتيمةَ من أجل محبتك، فقد صُفعتَ وشُتِمتَ من أجلنا.

التّوفير والإدّخار في «بنك» السماء

– ياروندا! إني أَحزن عندما لا يكوِّن الآخرون رأيًا حسنًا عنّي.

– أحسنتِ لأنك أخبرتني بهذا الأمر. منذُ اليوم سأصلّي كي لا يكوِّنَ الآخرون رأيًا حسنًا عنك، لأن هذا يثيرُ اهتمامَك يا بنيَّتي الصالحةَ. إنَّ الله يسمحُ بأَنْ يظلمَنَا الناسُ أو يُسيئوا إلينا ببعض الأحاديث لكي نسدِّدَ الدَّيْنَ عن بعض الخطايا أو لندَّخرَ لنا شيئًا في الحياة الثانية. لا أستطيعُ أن أفهم كيف تُريدين الحياة الروحيّة! لم تفهمي بعدُ مصلحتَك الروحيّة، وتريدينَ المكافأةَ في هذه الحياة! لم تتركي شيئًا لأجلِ السماء! ماذا تقرأين؟ أتقرأين كتابَ الأڤيريتينوس[1]؟ أَلم تجدي فيه ما يتوجّبُ عليك عمله؟ أتقرأين الإنجيل؟ إفعلي بحسب ما تقرأين كلّ يوم.

– ياروندا! عندما أَقومُ بعملٍ جيد أَحزنُ عندما لا يعلمُ به الآخرون.

– حسنًا! ماذا تريدين؟ أن يعلمَ المسيحُ بهذا العمل أم الناسُ؟ أَلا يعود عليك نفعٌ أكبرُ عندما يعلمُ المسيح به؟ وماذا سينفعُكَ إِنْ عرفَ الآخرون بهذا العمل وانتبهوا له؟ إنْ أدركوا الآن الصلاحَ الذي تقومين به فستسمعينَ في الحياة الثانية: «نِلتِ خيراتِك في هذه الحياة» (لوقا ١٦: ٢٥).

---

١ مختارات من تعاليم وأقوال الآباء القدّيسين، جمعها في القرن الحادي عشر الراهب بولس مؤسس دير «عذراء آڤيريتينوس» (العذراء المحسنة) في القسطنطينية، فنسب إسم آڤريتينوس إليه وإلى مختاراته.

يجب أن نفرح عندما لا يعلمَ الآخرون بأتعابنا ولا يكافئوننا، لأنَّ المسيح سيأخذ هذه الأتعابَ بعينِ الاعتبار وستكون المكافأةُ أجرًا سماويًا. المكافأةُ الإلهية موجودةٌ، فلنسعَ لتوفير بعض الدراخمات (عملة يونانية) في بنكِ التوفير السماوي. يجب أن نقبلَ الظلمَ ونعتبرَه بَرَكَةً لأننا منه ندَّخر بركةً سماويةً.

– يارونداا! عندما يقبل الإنسان الظلمَ ويعتبره شيئًا حسنًا دون أن يفكِّرَ بالدينونة العتيدة، فهل لهذا الأمر نصيب من الصحّة؟

– إيه! لن يقودَه هذا الأمر إلى السماوات. إنه يحترس طمعًا في أَنْ يصبح إنسانًا صالحًا فقط كما يتصرف ذوو النزعة الإنسانية في أوروبا. عليه أن يفكّر أنه إيْقونة الله وأنّ عليه أن يماثِلَ خالِقَه. إذا فعل ذلك فهو يسير في طريق الصواب، وإلا فإنه يعرِّض نفسه للسقوط في هرطقة مذهب الأنَسية الفلسفي (l'humanisme). (مذهب يُعنى بتنمية مناقب الإنسان وفكره بما يتمثله من ثقافة أدبية وعلمية فقط).

الرباء المقدّس

– يارونداا! كم هو عدد النساك العراة في الجبل المقدّس؟

– لا أعلم! يقولون إنهم سبعة. هناك في بعض السنين يصعب على المرء أَنْ يجد مكانًا هادئًا للتنسك. لذلك وجد بعضُ الآباء، إبّان وجود الأديار الايديوريثميّة (عكس الشِّركَوية، أي كلٌّ يعيش بمفرده بحسب برنامج خاص مع بعض الحرية، ويخضع الجميع لبعض القوانين العامّة) في الجبل المقدَّسَ، طريقةً أخرى للتنسُّك؛ إذ كانوا يتذمّرون من عدم شعورهم بالراحة حيث هم (في القلالي أو غيرها من الأديار الرسمية)

فيمضون إلى أحد الأديار الايديوريثميّة للعملِ وجمع المال. وكان الآخرون يصدّقونهم. مَضَوا واشتغلوا في هذه الأديار لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر ومن ثم طلبوا علاوةَ كبيرة. ولما رُفضَ طلبُهُم غادروا وانطلقوا خفية إلى بعض المغاور، وزادُهم قليلٌ من الخبز اليابس، وراحوا يمارسونَ النُسك بطريقة صارمة هادئة. اعتقد الآخرون أنَّهُم آنطلقوا يفتّشون عن عمل أَفضلَ في مكان آخر. وعندما يُسألُ عنهم في الدير كانوا يجيبون: «نعم، لقد مرَّ الأبُ «فلان» من هنا ولكنَّهُ كان غريبَ الأطوار، أرادَ جمع المالِ وطلَبَ علاوة. راهبٌ ويطلبُ علاوةً!» هذا الناسك كان يتعرض لإدانة الآخرين ولمضايقات اللصوص الذين سمعوا أن الراهبَ «فلانا» يملكُ المال. كان هؤلاء اللصوصُ يباغتون الراهب في مغارته ويعذبونه ثم يتركونه عندما لا يجدون معه شيئًا. هؤلاء هم طغمة النساك العراة في الجبل المقدَّس. عراء كامل، ونسيان كامل، مع ظلم كامل وسيرة ملائكية غريبة عن الطبيعة.

– يارونداا! كيف بإمكاني أن أَتشبّه بأُخت فاضلةٍ تعيشُ في الخفاء؟

– عبثًا تحاولينَ آقتناءَ فضيلة إذا لم تتمكني من إخفائها. إن القدّيسين جاهدوا كثيرًا من أجلِ إخفاءِ فضائِلِهم. أَتعلمينَ ماذا فعلَ المتباهون من أَجل المسيح؟ هربُوا أولًا من رياء العالم ومن ثم دخلوا في حيِّز الحقيقة الإنجيلية. ولكنَّ هذا الأمرَ لم يُرضِ طموحَهم فساروا قُدُمًا في الرِّياءِ المقدّس محبةً بالمسيح. ولم يعد يهمّهُم ماذا يقول الآخرون عنهم أو ماذا يفعلون بهم. وهذا الأمر يحتاج إلى تواضعٍ عظيم. الإنسانُ العالميُ يزعِجُه كلامٌ قيل فيه، ويُحزنه ذمٌّ أو هجاء، وينتظر شكرًا أو مدحًا على عمل قام به. أما هؤلاء فكانوا يفرحون عندما يرميهم الناسُ بسهام كلامهم أو يكوّنون فكرًا خاطئًا عنهم. قديمًا كان بعض الآباء يدَّعُون أن بِهم مسًّا شيطانيًا من أجلِ إخفاءِ فضائلِهم وتبديلِ الانطباعِ الحسنِ الذي كُوِّنَ عنهُم.

عندما كنتُ في دير فيلوثاوو، كان يقيمُ فيه أحد الآباء الذي نَسَكَ سابقًا في «ڤيغلا». وعندما فَهِم أن الآباء في «ڤيغلا» قد ارتابوا من نُسكه وتقدُّمِه الروحي، غادر الدير ببركة أبيه الروحي بعد أن ادّعى أنه ملَّ أكل الخبز اليابس العفن وأنه ماضٍ إلى دير إيديوريثمي ليعيش هناك كإنسان يأكل اللحم. جاء إلى دير الفيلوثاوو وأدَّعَى أن به مسًّا شيطانيًا. عندما علم إخوته بالمسّ الشيطاني قال أحدهم لرفيقه: «لقد مُسّ المسكين، كان يجب أن يحصل له ذلك. لقد غادَرنا لأنه ملَّ أكل الخبز اليابس العَفن ومضى إلى دير ايديوريثمي ليأكل لحمًا». أما ذاك الراهب الذي أُسيء الظن بسلوكه، فإنه لم يطبخ طعامًا ولم يذق طعمَ النوم على مدى خمس وعشرين سنة. كان خلال الليالي يجول في الممرات حاملًا مصباحًا محاولًا طرد النعاس، وكان عندما يستبدّ به التعب يستند إلى الحائط وَيَجْفَلُ عندما يُثقل النوم أجفانه، فيبدأ بتلاوة صلاة يسوع بصوت خفيف مسموع ومن ثم يتابع الصلاة ذهنيًا. وعندما يلتقي بأحد الرهبان كان يقول له: «صلِّ، صلِّ لكي يخرج الشيطان». وهكذا عُرف من الكلّ بأنه ممسوس. قال لي مرة راهب صغير السن في الخامسة عشرة من عمره: «أُنظر الممسوس»، فأجبته: «لا تقل هذا الكلام، إنه يملك فضيلة كبرى ويدّعي المسّ الشيطاني»، وعندها راح هذا الراهب الصغير ينظر إليه بوقار.

وعندما مات، وجده الآباء وقد أمسك بيده ورقة كتب فيها أسماء كلّ الأخوة ومقابل كلّ اسم لَقَبٌ ليُبعد عنه كلّ فكر حسن قد يكوّنه الآخرون عنه. وفي النهاية فاح منه الطيب. لقد حاول هذا الراهب أن يعيش في الخفاء فكشفته نعمة الله.

لذلك حاذري أن تحكمي على إنسان ما، من خلال تصرّفه، وتخرجي باستنتاجات خاطئة، إن كنتِ لا تستطيعين أن تعرفي ما يُخفيه.

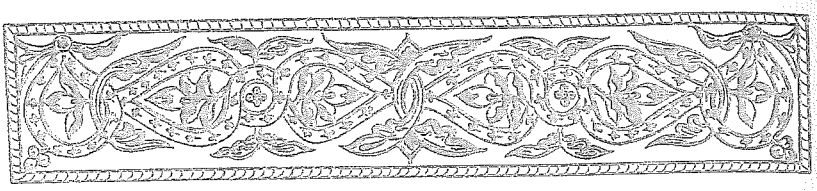

الفصل الثاني
التبرير يطرد نعمة الله

التبرير يعيق التقدم الروحي

ياروندا! عندما يقول البعض إنَّ التبريرَ غيرُ موجود في الكتاب المقدّس فماذا يعنون؟

– يعني ذلك أن التبرير غيرُ مبرَّر (لا عذر له).

– ياروندا! عندما أبرِّرُ نفسي أفكّر من جهة أخرى أن التَّبرير ليس من صفات الراهب.

– ليس بهذه البساطة، فالتَّبرير لا يمتُّ إلى الحياة الروحيّة بأيَّةِ صلة. يجب أن أَفهم، أَنني عندما أبرِّرُ نفسي فأنا في دائرةِ الخطيئة. وفي هذه الحالة أَقطعُ الشركةَ مع الله وأُحرَمُ من النعمة الإلهية، لأن النعمةَ الإلهية لا تتآلف مع الخطيئة. وفي اللحظة التي يقوم فيها الإنسان بتبرير الأمور غيرِ القابلة للتَّبرير، فإنه يعزِلُ نفسَه عن الله، ويقومُ عازل بينه وبين الله. هل ينتقل التيارُ الكهربائي عَبْرَ العازلِ؟ كلا! وهكذا لا يُوجد عازلٌ أقوى من التَّبرير بالنسبة

للنِّعمةِ الإلهية. وكأنَّ الإنسانَ يبني حائطًا ليفصلَ نفسَه عن الله ويقطعَ كلَّ شركةٍ معه.

– ياروندا! غالبًا ما سمعتُكَ تقولُ: «أَنْ نحاول على الأقل أَنْ نُمسك الأساس الروحي». ما هو الأساسُ الروحي؟

– هو الإقرارُ المتواضعُ بالذَنْب. هو عَدَمُ تبريرِ النَّفس عندما يُذنب الإنسان وتُوجَّه إليه الملاحظات. العظيمُ هو من لا يبرّر نفسه، وتُلقى عليه التُهمُ وهو منها برَّاء. من يُبرّر نفسه لن يُحرزَ تقدمًا ولن يشعر براحة داخلية. لن نتعرّضَ للشَّنق من أجل ذَنْبٍ اقترفناه، ولكن ليس علينا أن نبرِّرَ أنفسَنا لذَنْب اقترفناه واعتباره أمرًا طبيعيًا.

– إن قيل لي إني أخطأتُ في أمر ما ولم أستطع أن أقدِّرَ مقدارَ الخطأ، فهل أستفسرُ عن الخطأ مرة أخرى أم التزم الصمت؟

– إذا كان الخطأ يوازي نسبة ٥٪، ألا تربحين إن اعتبرتِ النسبةَ ٢٥٪، فكلما زِدتِ النسبة أحرزتِ تقدمًا. قومي بالعمل الروحي التالي: فتّشي عن الذنب ولا تحاولي التبرير، وإلا فإنك لن تجدي الراحة.

– ياروندا! عندما يعتاد الإنسان على تبرير ذاته ولكنه يُدرك خطأه لاحقًا ويرثي لنفسه، فهل ينفعه ذلك؟

– على الأقل تبقى لديه خبرةٌ ينتفعُ منها. وإن فَهِمَ وتابَ فإن الله يعطيه شيئًا من الخزينة الأخرى، من خزينة التوبة.

التبرير وليد الأنانيّة

– ياروندا! عندما لا أبرِّرُ أعمالَ الآخرين فهل يعني ذلك أن قلبي قاسٍ؟

– أتبرِّرينَ نفسَك ولا تبرِّرين الآخرين؟ سيأتي المسيحُ ولن يبرِّرَكِ. قد يصبحُ قلب الإنسان قاسيًا كالحجر إن تصرَّف بحقد وإساءة، كما قد يصبحُ رقيقًا كالنسيم إن تصرَّف بمحبة. إقتني قلبَ أمٍّ. فقلب الأم يسامحُ دائمًا ويغضُّ الطَرَفَ عن كلّ إساءَة. من يشتغلْ عملاً روحيًا صحيحًا فإنه يبرّرُ أعمالَ الجميعِ ويلطِّفُها في الوقت الذي لا يبرّر نفسه حتى وإن كان على حق. يعتبر نفسه مذنبًا لأنه لا ينمّي الفُرَصَ التي تُسْنَحُ له. يرى إنسانًا يسرق فيفكِّرُ أنَّه هو نفسه قد يكون سارقًا لو لم يساعدْه الله. ولكنَّه بالمقابل ارتكب سرقة أكبر لأَنه اغتصَبَ عطايا الله. والفرقُ بينه وبين السارق الآخر واضح. سَرقةُ الآخر ظاهرةٌ علنيةٌ أما سرقته فخفيّة. وهكذا يشجب نفسه وتصرُّفَها ويحكُمُ على الآخر بلين ورفق. فإذا رأى في الآخرين عيوبًا، صغيرة كانت أم كبيرةٌ، فإنه يبرِّرُها وينظر إليها بمنظار الأفكار الحسنة. ويعرف أيضًا أن عيوبَه كثيرةٌ يراها الآخرون. فكلُّ إنسان يفتّشُ في حنايا نفسه يجد عيوبًا كثيرةً ونقائصَ كبيرةً فيسهلُ عندها تبريرُ الآخرين. كم من الأمور قمنا بها! «خطايا شبابي وجهلي لا تذكرها يا رب» (مز ٢٤:٧).

– ياروندا! عندما يُطلب مني تأديةُ خدمة أُنفِّذُها باندفاع، وبسبب العجلة أرتكبُ مخالفاتٍ بسيطةً تستوجب ملاحظاتٍ فأُبرِّرُ نفسي.

– ذهبتِ للقيام بأمرٍ حسنٍ فاقترفتِ مخالفةً صغيرة. أَديري الملاحظةَ على المخالفةِ الصغيرة لتنالي الأجرَ كاملاً. الشيطانُ ماكرٌ كبير. إنه يُتقِنُ عمَلَهُ بامتياز ويستغلُّ خِبراتِ سنواتٍ طويلة. لقد دفعكِ إلى تبريرِ نفسك لتخسَري المنفعةَ الناتجةَ من الصلاحِ الذي قُمتِ به. عندما تشاهدين إنسانًا ضعيفًا يرزحُ تحت حمل ثقيل وتبادرين لمساعدته فهذا الأمر يبدو طبيعيًا إلى حد ما؛ شاهدتِ الحِمْلَ فتحرّكتِ وقدمتِ له

المساعدة. أَما إذا احتملتِ قولًا ظالمًا ساقَه الآخرون بحقّك فهذا أمر فيه خبز؛ لأن كثيرينَ بيننا يَلجأُون إلى تبرير أنفسِهم عندما تُوجَّهُ إليهم ملاحظة، وهذا دليلٌ واضحٌ على أن الأيديولوجيةَ العالميةَ تعيشُ في داخل كلّ واحد منا.

– يارونداا! من أين يأتي التَّبرير؟

– من الأنانيّة. التَّبرير يطرُد نعمةَ الله. هو سقطةٌ. ليس على الإنسان أن يبرّر نفسه وإنما عليه أن يحبَّ الظُّلم الذي وقع عليه. فالتَّبرير طرد آدمَ من الفردوس. عندما سأل الله آدم: «هل أكلتَ من الشجرة التي نهيتُك أن تأكلَ منها؟» اعترف آدم بأنه خاطئ مذنب ولكنه برّر نفسه واضعًا اللوم على المرأة التي أعطته ليأكلَ ولم يخالفْ لها أمرًا، وكأنه بذلك يضعُ اللومَ على الله لأنه هو الذي انتزع ضلعًا من آدم وجعله امرأة. وعندما سأل الله حواء أجابت: «الحية أغوَتْني» (تك ٣: ١١-١٣). لم تُسَوَّ الأمور، لأن آدم وحواء حاولا تبرير نفسيهما ولم يعترفا بالذنب المُرْتَكَب.

– يارونداا! ما ذَنْبُ الإنسان إذا لم يفهم عِظَمَ الشرِّ الناتج عن التَّبرير؟

– ما ذَنْبُه؟ عندما يبرِّرُ المرءُ ذاتَه باستمرار ويظنُّ أَنَّ الآخرين لا يفهمونه وأنهم يظلمونه وهو يعاني باستمرار كونَه الضحيةَ، فإنَّهُ يصبحُ غيرَ قابلٍ للتوبيخ. وقد تنقلب الأمور. فعندما يكون هو نفسه الظالمَ والمذنبَ ويقول: «سأحتملُ الظُّلمَ ولا أريد معاقبة الآخرين»؛ يبادر إذًا إلى تبرير نفسه بدافعِ المحبة حسب ظَنِّه، لكي يصل الآخر إلى حالة من الإدراكِ فيشعر بخطئه ويعتقد أنه هو الظالم ولكن يطلقه دون عقاب. أرأيتِ العملَ الدقيق الذي يقومُ به الشَّيطان؟

من يبرّر نفسه لا يمكن مساعدته روحيًا

ما لفت انتباهي أن الناس، كبارًا كانوا أم صغارًا، يُبرِّرون الأشياءَ كلَّها بفكر شيطاني. كلُّ الأمور يفسِّرها لهم الشيطانُ بطريقته الخاصة فيعيشون بعيدينَ عن الواقع، ذلك أن التَّبرير تفسيرٌ شيطانيٌّ.

– يا روندا! كيف يحدثُ أَنْ يجدَ البعضُ لكلِّ كلمةٍ كلمةً معاكسة؟

– شيءٌ مخيف أن تسألي إنسانًا آعتاد أن يبرِّرَ نفسه، لكأَنَّهُ تَتَلمذ على يَدِ شيطان. كلُّ الذين يبرّرون أنفسَهم – ليسامِحْني الله – يتّخذونَ الشيطانَ رئيسًا لهم. هُم أناسٌ معذَّبون لا يعرفون السلامَ الداخلي ولا يستقرُّون، فهم كاللصِّ الذي لا يذوقُ طعم النوم مفكِّرًا بكيفية قيامه بالسرقة ونجاحِه في مهمَّته. هم أيضًا يفكّرونَ دومًا بتبرير زلّاتهم. هؤلاء لا يصحُّ التَّعامل معهم لأَنَّهُم كالمحامين. وأنا شخصيًا عانيتُ الكثير من أناسٍ كهؤلاء. كنتُ أَقول للواحد منهم: «هذا الأمر الذي تقوم به مُعيبٌ، عليك أن تحترسَ فأنت لا تسيرُ في الطَّريق الصحيح، عليك أن تفعل كذا وكذا». وبعد حديث طويل، يقول لي: «لم تقلْ لي ماذا يجبُ عليَّ أن أفعل». «أيُّها الإنسان المبارك، كم من الساعاتِ مرَّت ونحن نتكلم. كيف لم أقلْ لك ذلك؟ أنت تُخطئ وتحاولُ تبريرَ نفسِك بشكلٍ متواصل وتسلكُ الطريقَ غيرَ السليم». غريبٌ أمرُه! أسوقُ له أمثلةً أُفْهِمُه بواسطتها أَنَّ الطريقَة التي يتَّبعُها هي طريقة أنانيّة شيطانيّة وأنه يتقبَّلُ تأثيراتِ الشيطان وأَنَّه في النهاية سيضلّ، فيقول لي: «لم تقل لي ماذا يجب عليّ أن أفعل»! يكاد يُفْقدُني صوابي لأَنَّه ليس بمبرَّر ولكن غير ضالٍّ. إن كان الإنسان لا مباليًا يمكنُه تجاوزَ الأمورِ بعبارةِ: «لا بأس». لذلك، أطوِّبُ اللامبالين.

– لكنْ ياروندا! أَلَا تريدُ في بعض الحالاتِ أن تكونَ لا مباليًا؟

– اللامبالي لا يفقدُ الصَّواب عبثًا. أَنْ يعاني الإنسانُ من أجل إنسانٍ متألّم فهذا شيءٌ له معنى. لكنْ أَنْ تُرهقي نفسك مع إنسانٍ وتُسدي إليه النصائحَ وتُمطريه بكلامٍ كثير ليقولَ لك: «لم تقولي لي ماذا يجبُ عليَّ أن أفعل»، ويبرِّر الأمور. إن إنسانًا كهذا ينتهي شيطانًا مخيفًا.

لو فكَّر بالتعب الذي تتكبدينه – دعي الألم جانبًا – من أجل مساعدته، لغيَّر نَمَط حياته قليلًا. ولكنَّه رُغم المعاناةِ والتَّعبِ والعذابِ فهو لا يبالي ولا يأخذُ شيئًا بعين الاعتبار.

– ياروندا! إنْ قام إنسان بتبريرِ مخالفةٍ ارتكبَها وأوضحتَ له ذلك على أنه تبرير ولم يرعوِ، فهل يمكنُ ردعُه؟

– وكيفَ يرتَدِعُ؟ إنَّه يفهم الخطأ الذي ارتكبَه بسبب عذابهِ ولكنَّه لا يودُّ الإعترافَ بذلك. إنها الأنانيَّةُ المخيفة.

– نعمْ ولكنه يقول: إنَّك لا تساعدني – أريد منكَ المساعدة. أنت تحتقرني ولا تحدّثني.

– هذا نابعٌ أيضًا من الأنانيَّة. وكأنَّه يقول: «أنا غيرُ مذنب. أنت هُو المذنب». اتركيه فهو غيرُ قابل للمساعدة. ينتهي حيث هو. لا أحدَ يتحمّلُ مسؤوليةَ نفس كهذه، لأنها أنانيّةٌ شيطانيّةٌ وليست أنانيّةً بشريةً. فالأنانيّةُ البشريةُ تكونُ بعدم التواضعِ وعدمِ طلبِ المسامحة ولكن الأنانيَّ يلازمُ الصَّمتَ ولا يبرِّرُ نفسه. من يبرِّرْ نفسه عندما يَخْطَأ ويزلَّ يحوِّلْ قلبه إلى ملجأٍ للشيطان، وسيستمر في الوقوع في الخطأ ولا خلاصَ إلا بسحقِ أناه. من يجهل مقدارَ الإساءَة الناجمةِ عن التَّبرير فهو معذورٌ، أما إذا كان على معرفة أو اطلاع فهو غيرُ معذور.

عليكِ أن تنتبهي عندما تبادرين لمساعدةِ إنسان اعتادَ أن يبرِّرَ نفسَه، فكلّما أظهرتِ له عدمَ صوابِ ما يقوم به، ازدادَ تبريرًا وأطلق لنفسه عنانَ الكذبِ مفتِّشًا عن تبريراتٍ أخرى. وهكذا تُساهمين – من حيثُ لا تدرين – في إمعانه في الكذبِ والأنانيَّة. كلُّ ما عليك فعلُه هو أن تصلّي من أجله.

– يارونداا! عندما تُوجَّهُ إليّ ملاحظةٌ، أرى من واجبي تقديم إيضاحات وقول: «نعم هذا ما حصل ولكنْ...»

– ماذا تريدين من هذه ألـ«لكنْ»؟ هذه الكلمةُ تقلِبُ الأمورَ رأسًا على عَقِب. قُولي: «سامحيني واشمليني بصلواتِك كي أنتبهَ في المرَّةِ القادمة».

– يارونداا! قد يستنتج أحدُهم استنتاجًا خاطئًا لعملٍ قمتُ به. هل يجب أن أوضّحَ له الأمورَ؟

– إن تحلّيتِ بالتواضعِ، فاقبلي أنَّك أنتِ المذنبة ولا تتكلمي. دعي الله يبرّرك. إذا لم تتكلمي فالله هو الذي يتكلم. يوسف – عندما باعه إخوته لم يقل: «لست عبدًا، إنهم إخوتي، وأبي يحبّني أكثر منهم جميعًا». لم يتكلم، ولكن الله تكلم فيما بعد وأقامه ملكًا (تك ٣٧: ٢٠؛ ٤١: ٤١). الله هو أدرى بالأمر. إذا أظهر الله الحقيقةَ فلا بأس، وإن لم يُظهِرْها فإنَّ ذلك قد يكونُ لمنفعتك. عندما يظلِمُك أحدُ الأشخاص، فكّري في أنَّ الظلم لم يكنْ عن سوءِ نيّةٍ. وإذا لم يكنِ الشخصُ الظالمُ سيِّء النيّة، فإن الله يُنذره وسيتوب. أما إذا كان سيّءَ النيّة، فإن الله لا ينذره، ولكنه لا يتركك بل يعاملك بمحبته المعهودة.

– يارونداا! أيجوزُ أن أسألَ إيضاحاتٍ بعد حصولِ سوءِ تفاهم؟

– هل تعكّر فكرُكِ؟

– كلا.

– إذا لم يتعكّر الذهنُ فلا حاجةَ إلى إيضاح ما جرى. أما إذا تعكّرَ فكرُك، فحسنٌ أن يُقدِّمَ الآخرُ إيضاحًا كي لا يتعكَّرُ الفكرُ أكثر.

– يارونداا! إذا لم تقدِّم إيضاحات لتبرير نفسك واقتصر الأمر على شرح مواجهة الوضع فكيف تتحرّك؟

– لا حاجة لذلك. الأفضلُ أن تقولي: «سامحوني»، دونَ تقديم إيضاحات. أما إذا طُلب منك تقديمُ إيضاحاتٍ، فعليكِ أن تفعلي ذلك بتواضع كليّ.

– إذًا متى يتوجبُ على المرءِ تقديمُ إيضاحاتٍ؟

– عندما يحصلُ سوءُ تفاهم مع الآخرين، عندها ينبغي تقديمُ إيضاحات قَصد المساعدة. وقد يكون المرءُ رهيفَ الحسّ أو أنانيًا فيتأذى إن لم يتكلمْ، وعليه في هذه الحالة أن يقدِّمَ إيضاحاتٍ عن كيفيةِ التصرُّف.

– يارونداا! مرات كثيرة لا نستطيع فصلَ التبرير عن التوضيح.

– التبريرُ لا يوفّر السلامَ للنَّفس، أما التَّوضيح فيجلبُ للنَّفس راحةً وسلامًا.

من يتابع نفسه بشكل صحيح لا يبرّرها

– يارونداا! كيف يحدُث لي أنا الضعيفةَ أن أبرِّرَ نفسي؟

– لم تشعري بضعفك، لذلك تبرّرين نفسك. لو كنتِ تشعرين بهذا الضعف لما كنت تبرِّرين نفسَك. نحن نُحبُّ أنفسنا ولا نريد الصُّعوبات ونهربُ من التَّعب. وكم حاولَ البعض جَمع ثرواتٍ دون

تعب! بمواجهتنا الأمور على هذا النحو، فإننا لا نسير سيرًا روحيًا حسنًا وعلينا أن نتواضع.

– هل بإمكانِ الذي يتابعُ نفسَه ويفحصُها أن يبرِّرَها؟

– من يتابع نفسه بشكلٍ صحيح لا يبرِّرها. بعضُ الأذكياء والنوابغ يقومون بأعمالٍ تافهةٍ وهذا بسبب وجودِ التكيّف: «ما يلائمني وما يخدمني».

– يارونداا! من يبرّر نفسه، ألا يشاهد سقَطاتِه في جهاده؟

– مهما فعل فإنَّ الشَّيطان يضحكُ عليه ويبرّرُ الأمور كلَّها ويردُّها إلى الإرادة الذاتيةِ، إلى العنادِ والكذبِ والأنانيَّة.

– إنْ شاهدَ نفسه في الكُتب الآبائيَّة وخاصةً في الكتاب المقدّس أَلا يساعدُه ذلك؟

– كلُّ المشاكل تجدُ حلًا لها من خلال الكُتبِ الآبائيَّة والكتابِ المقدَّس، إنْ فكَّر الإنسان روحيًا وبشكل صحيح. عندها يشاهدُ الأمورَ بصورة واضحة. أَمَّا مَن لا يشتغلُ روحيًا ولم تتطهَّرْ نفسُه فإنَّه يفسِّرُ الأمورَ بطريقة مقلوبةٍ ولنْ يجدَ مساعدةً حتى من الكتاب المقدَّس. من الأَفضل له أن يبوح بمكنونات أفكاره إلى الأَب الروحي الذي يساعدُه على تفسير ما يقرأ. مثلًا قد يطالع العهدَ القديمَ ويفسِّرُ ما يقرأُه بخُبثٍ. وما لفَتَ انتباهي هو أَنَّ بعضَ الناس يفسرون أمورًا روحيّةً وفقَ ما يناسبُ أهواءَهم. إنَّهم يستوعبون ويفهمون ما يقرأون ولكنَّهم يفسّرونه على هذا النحو ليبرّرُوا نفوسَهُم. شيءٌ مخيف! وقد لاحظتُ أيضًا أَنَّهم نادرًا ما يفهمونَ الأمورَ الروحيّة التي يسمعونها بشكل صحيح. أَسوقُ حادثةً على سبيل المثال لأُشدِّدَ على أمر ما. ففي حين أشدّد على شيء، يُفَتّشُ البعض عن شيء في الحدث يتمسّكون به ليبرّروا عيبًا أو خطأً من

أخطائهم ويريحوا بالتالي أهواءَهم. لا يفكِّرونَ أَنَّ ذلك الشخص الذي ذَكَرْتُه في مَثَلي للتَّشْديد على أمر ما، لم ينتبهْ وانتهى به المطافُ إلى حيث انتهى. لكنَّهم يقولون: «نحن في حالة جيدة جدًا نظرًا لوجود أناسٍ في حالات مزريةٍ جدًا». دائمًا يجدُ الشَّيطان تبريراتٍ.

التبريرات لا تجلب الراحة

من يبرِّر نفسه لنْ يجدَ راحةً. إنَّه يفتقرُ إلى التَّعزية. من يبرّر نفسه فهل تبرِّرُه نفسُه؟ نفسُه وضميرُه لا يبرِّرانه، من هنا القلقْ وعدمُ الراحة. وهذا دليل على ذَنْبٍ اقترفَه. عظيمةٌ هي حكمةُ الله. أعطى الإنسانَ الضَّميرَ. قد يستطيع الإنسان تحقيقَ ما تصبو إليه نفسه بخبث أو دهاء أو عنف أو قسوة أو مداهنة، ولكنَّه لن يجد الراحة. وهذا دليل واضح على أن هذا الإنسان لا يسير سيرًا حسنًا.

عندما يتقبَّلُ الإنسانُ الظُّلم فإنه يشعر بالفرح وكأنَّه نال ثروةً روحيّة. أما إذا برَّرَ نفسه فإنَّه يخسر جزءًا من هذه الثروة ولا يشعر بالفرح. إذا برَّر الإنسان نفسَه فإنه يخسرُ الراحةَ الروحيّةَ التي كان سيقتنيها لو لم يفعلْ ذلك. فكم بالأحرى عندما لا يكونُ الحقُ بجانبه ويبرِّرُ نفسَه. إنه بذلك يبدِّدُ ثروة أُعطِيَتْ له ويحصدُ غضبًا إلهيًا. فكيف له عندها أن يجدَ الراحة؟

بالتَّبرير يُصابُ المرءُ بالعمى. والشيطانُ يبرِّرُه حتى ولو قَتَل إنسانًا. «كيف احتملتَه كلَّ هذا الوقت؟» يقولُ له. كان يجبُ أن تقتلَه قبل الآن. وتِبعًا لذلك قد يتجاسرُ ويطلبُ أجرًا من المسيح لأنه أطال أناتَه عليهَ بضعَ سنوات.

– يارونداا! بما أَنَّ الذي يبرِّرُ نفسه يتعذّب. فلماذا يقبلُ هذا العذابَ من الضَّمير؟

– بسبب العادة. ولكي يخالفَ العادةَ فإنَّه يحتاج إلى الإرادة. ويجب عليه أَنْ يعلم أَنَّه ليس بحاجة إلى تبرير نفسه وإنَّما إلى وضع داخلي سليم. فالأَفضلُ في هذه الحالة أَنْ يبرِّرَ نفسه لأنَّه إنْ كانَ لا يبرِّر نفسَه مؤمنًا بأَنَّه مظلوم فحالتُه تسوء أَكثر. وعندما يبرِّرُ نفسَه، سيقولُ له الآخر شيئًا فيعرف عندها نفسه ويخرج من الضلال. أَما أَن يلازمَ الصمتَ مدَّعيًا أن الحقَّ بجانبه فيلبث دومًا في ضلاله.

أن نحمل الثقل على عاتقنا

– يارونداا! ماذا تعني بقولك: الصبرُ شيءٌ والاحتمالُ شيءٌ آخر؟

– ليس الصبر أَنْ نحتملَ الآخر. احتمالُ الآخر يعني أَنَّه في حالة بائسةٍ وأنا في حالة جيدة ولذلك أحتمِلُه. الصبرُ الحقيقيُّ هو الشعورُ بالذَنْبِ من أجل الآخر والتألمُ من أجله. وفي ذلك تواضعٌ ومحبة كبيران، وعندها أَقتبِلُ نعمةَ الله وأساعدُ الآخر.

إنْ رأيتُ – على سبيل المثال – كسيحًا أو أصمَّ أو مدمنًا على المخدرات فينبغي أن أفكِّر: لو كنتُ في حالة روحيّة حسنة لتضرعتُ إلى الله وشفيتُه، فالمسيح قال: «إنَّ من يؤمن بي فالأعمال التي أعملها أنا يعملها هو أيضًا ويعمل أفضلَ منها» (يو ١٤: ١٢). أما إذا قلتُ: «أنا إنسانٌ ضعيف فماذا يمكنني أن أفعلَ، فلأجلسْ إلى جانبه وسأنال أجري». عندها أكونُ قد برَّرتُ نفسي بأنني أَتْمَمْتُ واجبي.

– يارونداا! هل بِحَمْلِكَ دومًا الذَنْبَ على عاتقك تساعدُ الآخرين؟

– نعم! حَمْلُ الذنب (بطريقة روحيّة واعية وليست مَرَضيّة) يساعد كثيرًا. أَنْ تلومي نفسَك على كلِّ الأمور وأن تحملي ذَنْبَ الآخر وأنتِ تتضرَّعين إلى الله كي يمنحَك القوَّةَ من أجل حمله.

بهذه الطريقة، عندما تحمّلين نفسَك مسؤوليةَ ذَنْبٍ، أو عندما تكونين غيرَ مُذنبةٍ وتؤمنين بأنك أَذْنَبْتِ، فعندئذ لن تُلقى الأحمالُ على كتفيك ولن تصابي بالكبرياءِ بل ستَحُلُّ عليك نعمةُ الله الغنية. لكنْ ينبغي أن تحترسي من عدم حَملِ أثقالٍ ينوءُ بها جسدُك لئلا يسببَ لك ذلك الأذى في جَسَدِكِ (فتاق وديسك).

– ما هو الفتاقُ والديسك في هذه الحالة؟

– أن تحملي ذنبًا لا تستطيعين حملَه، فتتذمرين وتسخَطين وتَدِينين.

– لكنْ إذا قدّمتُ إيضاحاتٍ أفلا يُعتبرُ ذلك تبريرًا؟

– تطلّعي إلى تبرير الأمر الذي لا تستطيعين تحمُّلَه ودعي الأمرَ الآخر جانبًا. إن كان المرء رهيفَ الحسّ فَلْيَتَطلعْ إلى حَمل ثقلٍ على قَدْرِ استطاعته وليس فوق طاقته لكي لا يخدَعَه العدوُّ بالحساسيّة المرهفة ويوقعَه في اليأس ويُفْسِدَ الهدفَ.

– يارونداا! في بعض الأحيان لا أتحمَّلُ قبولَ الظلم وفوق ذلك أوجِّهُ مسؤوليةَ السقطةِ على الآخر.

– أنتِ لا تحملين أثقالَ الآخرين بدافع المحبة، وإنما تريدين إلقاء أحمالِك الثقيلةِ على عاتقِ الإنسان المريضِ لا المعافى. أنتِ بحاجة إلى اقتناءِ شجاعةٍ روحيّةٍ لكي تتحملي مسؤوليةَ خطيئتِك.

بقدر ما نحمل على كواهلنا ذُنوبَ الآخرين ونزيدُ ثقلًا على نفوسِنا،

فإنَّ الإلهَ الصالحَ يحرِّرُنا من النير ويُلقي في نفوسنا التعزية الإلهية.

أَنْ يحملَ إنسانٌ قويُّ البنية، متينُ العضلاتِ، كيسَين من الإسمنت ليريحَ إنسانًا ضعيفَ البُنية خائرَ القوى، لا يعادلُ حَملَ ثقلِ خطأِ الآخر وجعلِه خطأَه وكأنه هو المُذْنبُ. هنا تكمُنُ الفضيلةُ والتواضعُ.

في أحد أديار الشركة (كينوفيون: جماعة تخضع لنظام واحد مشترك) في الجبل المقدّس وجَّهَ راهبٌ مبتدئٌ كلامًا قاسيًا إلى التيبيكاريس (الذي يدير مسيرة الخدمة الليتورجية) الذي كان كاهنًا، لأنه أشار إلى قطعة القنداق الذي يُقرأ ساعة الخدمة (قبل البدء بالخدمة). وقد خَرَج ذلك الراهب عن طوره. بعدَ الخدمةِ أَغلقَ الراهبُ المبتدئُ على نفسه في قُلَّايته محتدِمًا غيظًا. عادَ التيبيكاريس إلى نفسِه فحزن لأنه سبَّب ردّةَ الفعلِ التي قامَ بها المبتدئُ وألقى الثقلَ على عاتقه. وقد أَنَّبهُ ضميرُه ولم يأخذْ بعينِ الاعتبار المسؤوليةَ الملقاةَ على عاتقه، فقرَّر المضيَّ إلى قلَّاية المبتدئ ليضربَ له مطانية ويقولَ له: «لقد سببتُ لك أيها الأخ الغَضَبَ». كان البابُ مقفلًا ولم يفتحِ المبتدئُ هذا الباب، فاضطرَّ الكاهن إلى الانتظارِ خارجًا على مدى ساعات. اضطرَّ المبتدئ أن يخرجَ من قُلَّايتهِ للذهابِ إلى صلاة الغروبِ، فسقط التيبيكاريس على الأرض ضاربًا له مطانية وقائلًا: «سامحني أيها الأخ لقد أذْنَبتُ». نعم، هكذا تأتي نعمةُ الله.

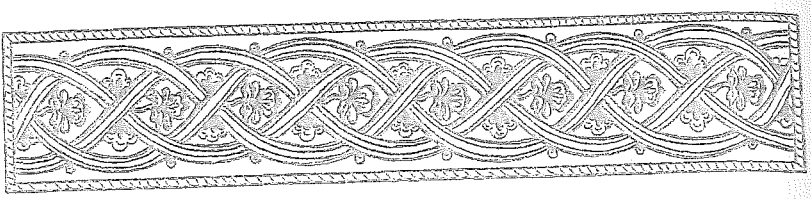

الفصل الثالث

العدالة الإلهية والعدالة البشرية

– ما هي العدالة الإلهية؟

ياروندا! – العدالة الإلهيةُ هي أَنْ تفعلي ما يُريحُ الآخر. هي أَنْ تعطي الآخر، ليس فقط نصفَ ما تملكين، وإنَّما قدرَ ما يشاء؛ هي أن تُعطي الجيِّدَ وتُبقي على الفاسدِ. أَنْ تعطي الكمِّيةَ الكبرى وتُبقي على الكميةِ الصغرى. أن تُعطي دونَ حساب. لنفترضْ أَنَّ أختًا أحضَرَتْ لنا عشرَ خوخات. إنْ تقاسَمْنَا مناصفةً هذه الخوخات نكون في حيِّز العدالة البشرية. أَمَّا إذا رأيتُ أَنَّكِ تحبّين الخوخَ وأكتفي بواحدةٍ وأتركُ لك البقيَّةَ مدَّعيًا أنني لا أحبُّ الخوخَ ومتظاهرًا بأنه يُؤلمُ معدتي ويُضِرُّ أمعائي، فأكون حينئذ في حيّز العدالةِ الإلهية.

– إذًا ما هي العدالةُ البشريةُ؟

– هي أَنْ تتقاسمي شيئًا مع أحد، فتعطيه النصفَ وتحتفظي بالنصف الآخر.

– ياروندا! ما هي مكانة العدالةِ البشرية في الحياةِ الروحيّة؟

– العدالةُ البشريةُ ليستْ للنَّاس الروحانيِّين، هي مِكباحٌ للنَّاسِ العالميين. الإنسانُ الروحاني لا يسعى إليها وإلا عُدَّ مُغَفَّلًا، لأنها – مقارَنةً مع العدالة الإلهية – صفرٌ. والإنسانُ العالميُّ الذي يُطبِّق العدالةَ البشرية في هذه الحياة لا يذوقُ طعمَ الراحةِ ولا يشعرُ بالفرح الحقيقيِّ. لنفترضْ أن أخوَين يملكان أرضًا مساحَتُها عَشَرَةُ آلافِ مترٍ مربع. العدالةُ البشرية تقضي بأن يأخذَ كلٌّ منهما خمسةَ آلافِ مترٍ مربع. العدالةُ الإلهية تقضي بأَنْ يأخذَ كلُّ واحد منهما ما يحتاجُ إليه. فإنْ كان أحدُ الإخوةِ يشغلُ وظيفةً أقلَّ شأنًا من وظيفةِ أخيه أو كان عددُ أفرادِ عائلتِه أكبرَ بكثيرٍ من عدد أفراد عائلة أخيه، عندها يجب أَنْ يأخذَ الحصَّةَ الكبرى. فمن الظلمِ أن يتقاسمَ الإثنان مناصفةً قطعةَ الأرضِ هذه.

لكنَّ الإنسانَ العالميَّ لا يهتمُّ بأخيه الذي يواجهُ صعوباتٍ معيشيّةً. لا يفهم أَنَّ القسمةَ المزمعَ أن يقومَ بها غيرُ منصفةٍ، فهو لا يفكّرُ روحيًا. وإنْ أبدَيْتِ له ملاحظةً تقول بأَنَّ عليه مساعدةَ أخيه المحتاجِ بإعطائِه حصةً أكبر، يجيبُك بأَنَّني لا أظلِمُه. إنْ كان إنسانًا روحانيًا فإنَّ عليه أن يقبلَ بقسمةِ أخيه ولو كانت حصتُه ألفَ متر مربع (حصة واحدة من أصل عشر حصص)، وعليه أن يُقنِعَ زوجتَه وأولَاده بذلك ولو أبدَوْا اعتراضًا. كما أن عليه أَنْ يلازمَ الصمتَ كي يشعرَ أخوه براحةِ البال.

لقد لفتَني نُبل ابراهيمَ. فعندما اشتدَّ الخِصامُ بين رعاةِ ابراهيم ورعاة لوط من أجلِ أرضٍ، مضى ابراهيمُ إلى لوط وقال له: «نحنُ رجلان أخَوَان لذا يجب أَنْ لا نتخاصمَ. أين يروقُ لك أن تذهبَ؟» تحرَّكَ لوط بشريًا واختارَ أرض صادوم وعموره كونها خضراءَ خصبةً صالحةً

للرَّعي. أما ابراهيمُ فتحرَّكَ في حيِّز العدالةِ الإلهيةِ وفرح لاختيارِ لوط الأرضَ الأفضلَ وأراد تأمين الراحةِ لأخيه لوط. ولكنْ... ماذا حلَّ بلوط أخيرًا؟ (تك ١٣: ١-١٣)

حكم الله العادل

– يارونداا! ما هو حكمُ الله العادلُ؟

– حُكمُ اللهِ العادلُ هو طولُ أناةٍ، تواضعٌ ومحبة. الله كثير العدل، لكنَّه كثيرُ الرأفةِ ورأفتُه تَغلِب عدالتَه. سأَسوقُ لك مثلًا لتفهمي: إنْ لم يتسنَّ لأحدٍ أن يعرفَ اللهَ ويَسمعَ عنه فإنه لا يُحاكَم بحسب الحالة التي وُجد فيها، وإنما بحسب الحالة التي سينوجد فيها لو عرفَ الله. وإلا فإن الإلهَ لن يكونَ عادلًا. العدالةُ الإلهيةُ تختلف مقاييسها الحسابيةُ عن غيرها، فواحد زائد واحد لن يساوي، بالضرورة وبشكل دائم، اثنين.

– يارونداا! كيف تُطَّبَق العدالةُ الإلهيةُ على شخص أذْنَبَ؟

– العدالةُ البشرية تفرِض عقوبةً على ذَنْبٍ اقتُرِفَ. العدالةُ الإلهيةُ تقول: عَرَفْتِ خطأَك وتُبْتِ! حسنًا، تنالين الغفران.

القانونُ البشريُّ يحكم بلينٍ على إنسانٍ اقترف جُرمًا وتابَ بصدقٍ وبادرَ إلى تسليم نفسه من تلقاءِ ذاته. فإن كان البشرُ يَحكُمُون بلينٍ، فكم بالأحرى الله القاضي العادلُ الكثيرُ الرأفة!!

نحن بين أيدي الله. إنَّه يتابعنا بدقَّةٍ ويعرِف قلبَ كلِّ واحد منا. وبما أن العدالةَ الإلهية والثوابَ الإلهيَ موجودانَ والله يحبُّنا – وهذا هو الأهمُّ – فكلُّ أمر حسنٍ يقوم به الإنسانُ لا يذهبُ سدى. لذلك فإنَّ من يطلبُ أن يُبرَّرَ من البشر هو تائهٌ وضعيفٌ.

ما لفتَ انتباهي، هو أَنَّ الإنسان عندما يُظلم ويطبّقُ العدالةَ الإلهية فإنَّ الله يبرِّزُه في هذه الحياة الدُّنيا أيضًا. عندما كنَّا في الجيشِ جاء القائدُ بعد انتهاءِ الحرب وقلَّدَ بعضَ الجنودِ أوسمةً. كنتُ غائبًا في ذلك اليوم، وعندما جاء دوري تقدَّم جنديٌ من تساليا وأخذَ الوسام. لازمَ الجنود الآخرون الصمتَ خوفًا من تعرُّض ذلك الجندي للحبس لأنه كذّب. بعد ذهابِ القائد اختبأَ ذلك الجنديُّ خوفًا من تعرُّضِه للضَربِ على يدِ رفاقِهِ. عندما عدتُ، ازداد خوفه فجاءَ إليَّ وقال لي: «سامحني! لقد فعلتُ كذا وكذا». أجبتُه: «حسنًا فعلتَ وأخذتَ الوسام إذ ما حاجتي إليه؟» إطمأنَّ وراح يَلبِسُه في الاستعراضات العسكرية. بعد أربعينَ سنة، جاءَ إلى الدير (دير السوروتي) قائدُ الجيش من تساليا ليقدِّمَ لي وسامَ الاسكندرِ الكبير. عندَما رأيته ارتسمتْ بسمةٌ على شفتيّ. ماذا! بعد أربعينَ سنة! لاحظي: الجنديُّ الذي أخذ الوسام كان تساليًا وقائد الجيش جاء من تساليا.

أرأيتِ كيف تحدث الأمور! إنْ طلبنا التبريرَ نخسر الأمور هنا، كما نخسر ما يُعدُّهُ لنا المسيح في الحياة الأخرى. لأمورٍ دنيوية تافهةٍ قد نخسرُ أمورًا أبديةً أكثرَ أهمية. فالأمورُ الباطلةُ التافهةُ على الأرض لن تكونَ لها قيمةٌ في السماء!

حقوق الراهب يحفظها المسيح للحياة الأُخرى

– يارونداا! ما هو الحقّ؟

– الحقّ هو منطقٌ عالميٌّ. وبقدر ما يكونُ الإنسان عالميًا يملك حقًا. أما الروحاني فَيقِلُّ حقُّه. للراهب واجباتٌ فقط وليسَ له حقوقٌ.

وليس من الضروري أَنْ يكون للراهب مطالبُ من شخص ما أو من جهة معينة.

أَنْ يلتمسَ الراهب حقوقًا في الحياة، وهو الذي تخلَّى عن كلّ شيء محبّةً بالمسيح، أمرٌ خاطئ. وفي ذلك إهانةٌ للمسيح وللرهبانيّة. للعالميين حقوقٌ كثيرة، أما حقوق الروحاني، والراهب خاصة، فيحفظها المسيح للحياة الثانية.

المطالبةُ بالحقوق مطلبُ الأَحداث في كلّ يوم. بعض الرهبان الأَحداث لا يعلمون لماذا أصبحوا رهبانًا، أو ماذا تقول الرَّهبانيّة، لذلك يطالبون بحقوقهم. إنه المنطق الغريب، الروحُ العالمية، العدالةُ البشرية. وهذه العدالة البشرية بَزَغت من الروح الأوروبية (الغريبة عن التقليد) ودخلت إلى الرَّهبانيّة.

في عصرنا الحاضر نجد هذه الروحَ الأوروبيةَ في الحياة الرَّهبانيّة: لم أُؤْذِه ولا أُريدُه أن يُؤذِيَني. لم أَظْلِمْه فأَنا على ما يرام. يقول البعض: قُمتُ بعملي وأنهيتُه وقدَّمتُ مساعدةً، لذا فأنا ماضٍ إلى القلَّاية من أجل الروحانيات لأَنَّ العمل الآخر لا يَخُصُّني. لا يَتَحرَّى عن الآخر: هل هو مريضٌ؟ هل يعاني من آلام في الرأس؟ هل يقوى على العمل؟ هل أَنهكَهُ التعبُ بعد سهرانية فراح يعمل بِبُطْءٍ؟ أو يقولون: هذه الحُصَّةُ من الطعام تَخُصُّني إنها حَقّي، دون التفاتٍ إلى الآخر الضعيف أو الذي يستهلك كمية أكبر من الطعام.

هؤلاء، رغم وجودهم في بيئة روحيّة، فإنهم يتصرفون بذهنية عالمية.

أتعلمين ماذا يعني أن تُشاهدي أناسًا روحانيين يواجهون الأمور مواجهةً عالمية؟ بعضُ الرهبان يرتدون الثيابَ الرَّهبانيّة ويقومون بالصوم

والصلاة والخدمة وواجب العمل ولكنهم يواجهونَ الأمور بنظرة عالمية بدلَ مواجهتِها روحيًا. هُم في حيِّزِ العدالة العالمية، وأنّى لكِ أن تتفاهمي معهم روحيًا. إنَّهم يُريدون أن يُجرُوا حساباتِهِم بمفردهم... لديَّ تذمر من الذهنية المعاصرة التي أراها عند بعض الرهبان الأحداث.

عدالةٌ بشرية! كيف تكونُ عدالة بشرية في الحياة الروحيّة؟

العدالة البشرية لا توفِّرُ عواملَ النجاح في الحياة العالمية، فكم بالأحرى في الحياة الروحيّة! عندما كنتُ في دير الشركة كانت التَّضحيةُ الهدفَ الأسمى الذي يسعى إليه الجميع. وكانت روحُ التضحية هذه في العمل والطعام وكلّ شيء. كان الواحدُ يفكّرُ بأخيه ولذلك كانوا يعيشون في الفردوس. كان الواحدُ يَحرِمُ نفسَه من الطعام ليوفّرَه لأخيه غيرَ عابئٍ بضعفِ جسدِه. كان يُضحّي. عندما يطلبُ الراهب من الآخرين عدم ظلمِه، وعندما يفكّر بالراحة ويُؤْثِرُ عدمَ التعب خوفًا من ذهاب تعبه سدًى، فإنه بذلك يعرِّض نفسه لخسارة الحياة الأخرى والثوابِ الإلهي من خلالِ عدمِ إيمانِهِ بوجود الله والدينونة العتيدة.

إن آشتغلَ الراهبُ فإن تعبَهُ لن يذهبَ سدًى. فقط تَعَبُ الحيوانات يذهبُ سدىً. هذه الحيواناتُ البائسةَ تتعذَّبُ بسببنا وتُضَحّي من أجلنا. شيءٌ مخيف! فالحيواناتُ البرِّية عندما تُصاب بجرح من قبل الصيادين تصبح عاجزة عن الجري فتهاجمها الحيوانات الكبيرة الأخرى وتنزع أحشاءَها وتأكلُها. والإنسان، إنْ لم يفهم هذه الأمورَ فهو ليس بإنسانٍ، ذلك أنَّ الله حَبَاهُ العقل لكي يتصرّف بشكل صحيح ويجد طريقه ويعمل بتفانٍ.

– إذًا ياروندا! تريد منا أن يقفزَ قلبُنا فنغمرَ الآخرَ بالراحة والمحبة؟

– نعم! فعندما تتطلعين لإراحةِ الآخر وتسلِّمين نفسَك بنقاوة لله فلن تشعري بالتعب. أما إذا تعبت وشَكَوْتِ من هذا التعب فإنَّك تخسرين بذلك الأجر. فالمسيح ليس مستعدًا للدفع من أجل تفاهة. فَلِتفاهة الصفعُ.

لذلكَ آحترسي للأمر على قدر استطاعتك. هذا هو العمل الروحي الذي يتوجّب عليك القيام به. لن تنفعَ أَعمالُ النسك إنْ لم يَقُمِ المرءُ بهذا العمل وعندها تذهب سدىً الأصوامُ والمطانيات. أنا لا أقول بعدم القيام بالمطانية والصوم، وإنما أدعو بصراحة إلى عدم الإتكال عليها وحدها والاعتقاد بأَنَّ ذلك يؤمّن الحياة الروحيّة.

لقد أُبدعوا إنجيلاً آخر

– يارونداا! متى يكون الإنسان عادلًا؟

– الإنسانُ العادلُ، حسب المفهوم البشري، هو الذي يحكم بالعدل بين الناس. أما الكمالُ، فهو أن يكونَ الإنسان عادلًا بِحَسَبِ العدالةِ الإلهيةِ وليس بحسب العدالة البشرية، وعندها يبارِكُه الله. عندما أَتخلى عن أنانيَّتي ومصلحتي في أعمالي فإنني أُجْبِرُ اللهَ – وأستطيع أن أقول ذلك – على إرسال النعمة الإلهية. في العدالة البشرية – مهما سَمَتْ لتبلغَ الكمال – عنصرٌ بشري. والعدالةُ البشرية في الإنسان الروحاني جسمٌ غريب يحاول الروحُ القدس طردَهُ. أما العدالةُ الإلهية فهي التي تؤمِّنُ الصفاءَ الروحي والاستنارة الإلهية.

– يارونداا! إنْ تعرَّضَ أحد الأشخاص للظلم وأخبرتُه بأَنَّ هناك عدالةً إلهيةً، فهل أساعِدُه بذلك؟

– كلا! الأفضلُ أن تقولي له: إفحصِ الأمورَ الروحيّة بحسب روحِ الإنجيل. فإذا قُلتِ له: هناك عدالة إلهية، فإنه يَتيقَّنُ من أنَّهُ ظُلِمَ ويُخشى من قيامه بعمل ظُلْمٍ.

بالحقيقة إن نفسي تتألَم. تعرَّفتُ إلى أحد الأشخاص الذين يثابرون على ارتيادِ الكنيسة، والصلاة والصوم بانتظام. كان غنيًا يمتلك خمسَ شُقَقٍ سكنيةٍ، ومتزوجًا ولكنه لم ينجبْ أولادًا؛ ورغم ذلك لم يُعطِ قرشًا واحدًا لرجلٍ فقير. قلتُ له: «لديك أقرباءُ كثيرونَ فقراء فلماذا لا تعطيهم شيئًا؟ ماذا ستفعلُ بهذه الأموال؟ أَحسنْ إلى الأراملِ والأيتام». أتعلمينَ ما كانَ جوابُه؟ «أتُريدُني أن أسامحَ أختي بالإيجار؟» فارَ الدم في عروقي عندما سمعتُه. هذا هو مفهومُ العدالة البشرية. الجياعُ ليسوا أولادي ولا يمتُّونَ إليَّ بصلةٍ فلماذا أتحمَّلُ مسؤوليتَهُم؟ يحاولون التفتيشَ عن الراحة بطرقِهِم الخاصة ولكنَّهم لن يعرفوا الراحةَ الفعليةَ. إنَّهم يتجاهلون الأَوضاعَ القاسيةَ بمنطِقِهِم العالمي وعدالتِهِم البشرية، فكيف يشعرون فيما بعد بشيء روحاني؟

قد يَهِبُ البعضُ بيتًا ومن جهة أخرى يتقدّمون بشكوى ضد رجل لم يدفعْ لهم الإيجارَ الشهري. كيف تفسِّرين هذا الأمر؟

– يارونداا! هل هي العدالة البشرية؟

– كلا! هذه ليست عدالةً بشريةً! باليد اليمنى يُعطون مبلغًا كبيرًا من المال، وباليد اليُسرى يقودون شخصًا إلى الشرطة من أجل حفنةٍ من القروش. كيف تفسِّرين ذلك؟

– ربما عقولُهم ليست على ما يرام.

– كلا! إنَّهم بخير.

– يارونداا! ربما يُعطون بكبرياء من أجل إرضاءِ نفوسِهِم.

– هذا هو الصحيح. يُعطون بكبرياءٍ كثير، وإنَّما يفعلون ذلك لتتمجَّدَ نفوسُهم لا ليمجِّدُوا الله. قد يُعطون كلَّ ما يملكون ولكنَّ عطاءَهم ناقصٌ، إذ تنقصُه المحبةُ.

الناس الروحانيّون قد يلتمسون عدالة قانونيّةً مُدَّعين أنهم يُؤْمِنون بالله! «حقّي وحقُّك» هذا هو إنجيلُ المنطق! المنطق المُستغرب. وإنما يطالبون بذلك دَرْءًا للسُّخرية وإحقاقًا للحق. ألا تَرَينَ إلى أين وصل المسيحيون في المحاكم؟ يجب أن لا يذهبوا إلى المحاكم حتى ولو كان الحقُّ بجانبهم، فكم بالأحرى إن لم يكنْ هذا الحق بجانبهم! بسبب هؤلاء قد يَفقِدُ البعضُ إيمانهم. فقد يَرَون إنسانًا لا يصوم ولا يصلي ولا يقصد الكنيسة أو يحضر السهرانيات، ولكنه لا يرفع دعوى ضد أحد ولا يقصِدُ المحاكم. وهناك إنسانٌ آخر يصوم ويصلِّي ويحضر السهرانيات ولكنه يَجرُّ إنسانًا بائسًا إلى المحكمة لأنه لم يفِ له دينًا استدانَه منه. وإذا طرحتِ عليه أسئلة معينة: هل أنت محتاج؟ هل لديك عائلة كبيرة؟ هل مارَسَتْ زوجتك عليك ضغطًا فَصِرْتَ في موقف حرج؟ يجيبك: ليس شيء من ذلك وإنما أريد أن آخذ حقي.

أتذكَّرُ حادثة لا أستطيع نسيانها: كانت ممرضات مكرَّسات يَقُمن بالخدمة في بيت للقُطَاء. احتاج الطبيب يومًا أن يُجرِي فحصًا بالأشعة لأحد الأطفال المرضى. طلب من ممرضة أن تساعدَه فرفضت جميع الممرضات ذلك خوفًا من إصابتهن بالنشاط الإشعاعي. كان يُفترَضُ بهؤلاء الممرضات أن يتسابَقْنَ للقيام بهذا العمل. أخيرًا مَضَتْ ممرضة أخرى، لا تعيش حياةً روحيّة وتنوي الزواج، فقدمت المساعدة لأنها أَسِفَت لحالة الطفل.

والأسوأُ من ذلك هو أَن هؤلاء الناس لا يشعرون بتأنيب الضَّمير، بل على العكس يقولون: هذه الأمور ليست لنا. نحن هنا من أجل الأمور الروحيّة. وقد يَدَّعون أَنهم على عكس الذين يشعرون بالراحة عند قيامهم بالتضحية، فهم يرتاحون عندما يعيشون في هدوء. ولكنَّ هؤلاء نَسَوا أن المسيح يرتاح حيث النُبلُ والتضحية والصمت والعمل الخفي.

– يارونداا! عندما تشاهد إنسانًا في محنة، أليس من المفروض أن تَمُدَّ له يد المساعدة مهما كانت حالتُك؟

– طبعًا. لكن ما لفت نظري هو أن الناس أبدَعوا إنجيلًا عالميًا خاصًا بهم، إنجيلًا على حَسَب قامتهم قائلين: «يجب على المسيحي أن يحافظَ على كرامتِه ولا يقبلُ أن يكون موضعَ سخرية». أي أنهم يواجهون الأمور بمنطقٍ وعدالةٍ عالميين. لا يريدون ظُلْمَ الآخرين ولا يقبلون بظلمٍ يقع عليهم مُتَذرِّعين بأن الحقَّ إلى جانبهم. إن أناسًا كهؤلاء يفتقرون إلى التضحية والتفاني ويقطعون كلّ صلة لهم مع الله لأنهم ابتدعوا إنجيلًا خاصًا بهم. فكيف سَتُظَلِّلُهُم النعمة؟

خلال تأديتي لخدمة العَلَم، كان يأتي إلى فرقتنا عامل لاسلكي من سلاح الجو ليأخذ الرموز اللاسلكية. كان لاهوتيًا يَكْرِز بالإنجيل. كان الجميعُ يُطلقون عليه لقب «اليسوعي»، لأنه لم يقم بأية تضحية ولم يهتم بخدمة صغيرة. قلت له ذات مرة: «بما أنك ذاهبٌ إلى المطار، أرجوك أَخْذَ هذه الرموز اللاسلكية وتسليمها إلى «فلان»». أجابني: «كلا! لقد قمت بعملي فليقُمْ هو بعمله». كان يُرِيح فكره بقوله: «أنا لم أَظلم الآخرين». ولكنه تناسى أن المسيح قال: «من سخَّرك ميلًا فامشِ معه ميلين، ومن أراد أن يخاصِمَك

ويأخذ ثوبك فخلِّ له الرداءَ أيضًا» (متى ٥:٤٠-٤١). كيف ستحلّ نعمة الله على إنسان كهذا؟ ولكنه في تطبيقه للنص الإنجيلي فإن المسيح يشتغل ويغيِّر المسخَّر روحيًا من خلال تأمّله: لقد سَخَّرتُه ميلًا فمشى معي مسافةً أطول، يا له من نُبل.

لو كان لدى المسيح هذا المنطق العالمي، الذي نَشْهَدُه اليوم عند الكثيرين من الروحانيين، لما ترك عرشَه السماوي لينزلَ إلى الأرض ويتعذّبَ ويُصلبَ. لكن من داخل هذا «الفشل» (خيبة الأمل) الذي حصل له مع الإنسان كان يكمن خلاص جميع البشر. كم كابدَ المسيح من أجلنا! وصل إلى اللَطْمِ والهُزء: «تَنَبَّأ من لطمك!» كان العبرانيون يلعبون مع المسيح تمامًا كما يفعل الصغار في لعبتهم المشهورة: تنبأ من ضربك. نحن نريد مسيحية من دون صلب. مسيحية فيها قيامة فقط. مسيحيةِ ورهبانيّة نُبْدِعُها وِفْقَ أهوائنا. لكنْ، لكي نعيش أمورًا خارقة الطبيعة ينبغي أن نعيش بطريقة خارقة الطبيعة.

القسم الثالث

الخطيئة والتوبة

«التوبة الحقيقة هي أن يشعر الإنسان أولًا بذنبه، أن يتألم،
أن يطلب الصفح من الله، ومن ثم أن يعترف؛
وعندها تأتي التعزية الإلهية.
لذلك لا أنصح فقط بالاعتراف، وإنما بالتوبة والاعتراف معًا.»

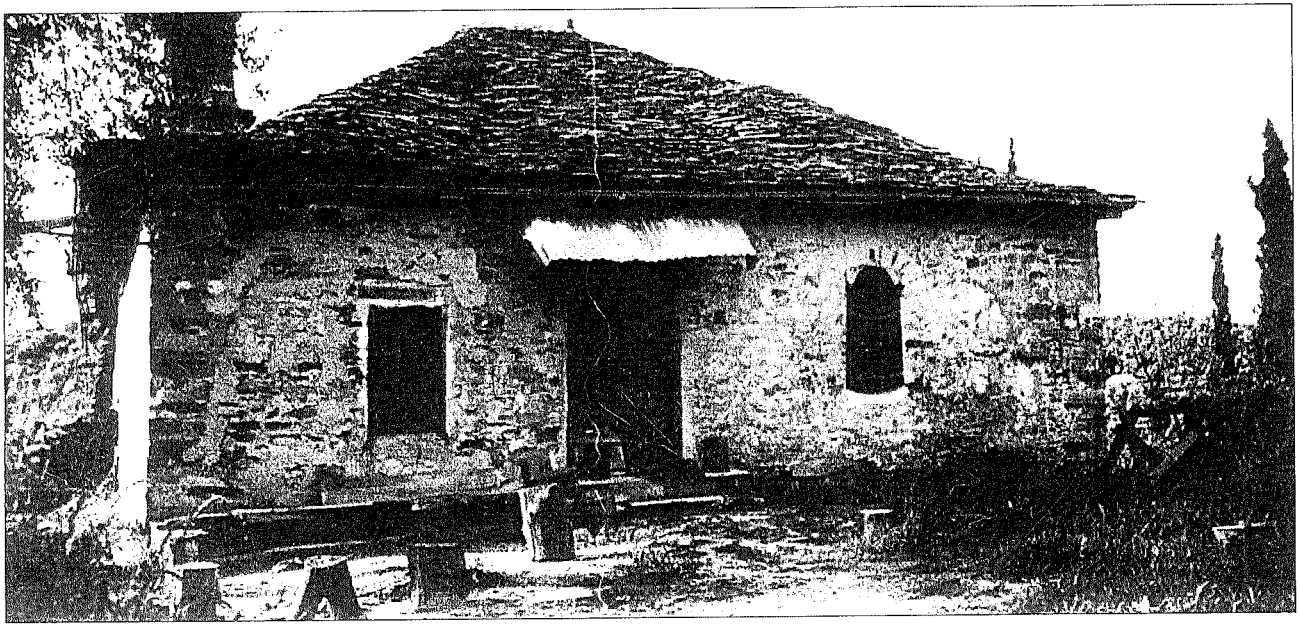

مضافة اليارونذا في الپاناغوذا في آثوس

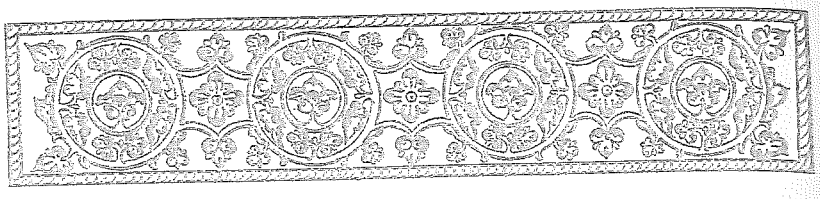

الفصل الأول

الخطيئة تعذب الإنسان

طهارة القلب

يارونداّ!

هل كلُّ قلبٍ يستطيع أن يَسَعَ المسيح؟

– المسيحُ يَسَعُ الكلَّ، غير أن البشر لا يَسَعونه لأنهم لا يحاولون إصلاح نفوسهم. لكي نَسَعَ المسيح في داخلنا ينبغي أن يتنقّى القلب: «قلبًا نقيًا أُخْلُقْ فيَّ يا الله» (مزمور ٥٠:١٢).

– يارونداّ! لماذا لا تؤذي الحيواناتُ الضاريةُ القدّيسين؟

– عندما يهدأ البشر، تهدأ الحيواناتُ الضاريةُ وتُدرك أَنَّ الإنسانَ سيدُها. قبل السقوط، كانت الحيوانات الضارية تلحس في الفردوس أرجل أُولي الجِبلةِ بكلِّ إلفة، ولكنَّها بعد السقوط راحت تنهشها وتعضُّها. وعندما يستعيد الإنسان حالتَه الأولى، تعود الحيوانات إلى لحس قدميه لأنَّه سيدها. غير أَنَّني أشاهدُ اليوم بشرًا أَسوأَ من الحيوانات الضارية والأفاعي السامّة؛ يَسْتغلُّون شبانًا فيأخذونَ أموالَهم، ولا يتأخرون من توجيه التُّهم إليهم فيستدعُون الشرطة؛ ويتركُونهم في

أوقاتٍ حرجة، كي تلقي القبض عليهم؛ وفي حال يأسهم وخيبة الأمل لا يتأخرون من أن يَسوقوهم إلى مستشفى للأمراض العقلية. لهذا السبب فإني أردِّدُ في صلواتي المزمور ١٤٧ (امدحي الرب يا أورشليم... جعل تخومك في سلام... لم يصنع هذا إلى جميع الأمم...) الذي كان يصلّيه القدّيس أرسانيوس الكَبّادوكي لجعل الحيوانات الضارية أليفةً لا تُؤذي الإنسان، أَقرأُ هذا المزمور من أجل أن يَهدأَ الناسُ فلا يفعلون شرًا بإخوتهم في الإنسانية.

– يارونداا! كيف يستعيد الإنسان حالته الأولى قبل السقوط؟

– ينبغي أَنْ يتطهَّر القلبُ؛ فيقتني النقاوةَ، والصدقَ، والاستقامة، والنزاهة، والتواضع، والصلاح، والمسامحة، والتضحية. وعندها يستطيع إقامةَ علاقة مع الله فَتَحُلّ عليه النعمة الإلهية. الطهارة الجسدية وحدها لا تُجدي نفعًا إن لم تَقترِنْ بالطهارة النفسيّة، لأنَّ اللهَ لن يرتاحَ مع الخبث والكبرياء والإساءة... حاولي إذًا اقتناءَ الطهارة النفسيّة. ومن هنا يبتدئُ جهادك.

– يارونداا! هل يمكن قَطْعُ عادةٍ سيّئة بصورة مباشرة.

– يجب أولًا أن يفهم الإنسان أن هذه العادة تؤذيه وأن عليه أن يُجاهِدَ لقطعها، وهذا يتطلبُ إرادةً قوية جبّارة. فكما أن الحَبْلَ الذي يُمسك الدلو لننال الماء من البئر، يفتح ثلمًا صغيرًا في فوهة البئر شيئًا فشيئًا، هكذا فإن كلَّ عادةٍ تفتح ثِلمًا في القلب ولا تَخرجُ منه إلا بصعوبة. لذلك، على المرء أن ينتبه كثيرًا فيبتعد عن العادات السيّئة التي تتطلّبُ جهودًا جبارة وتواضعًا كبيرًا وإرادة قوية للإقلاع عنها. قال لي مرة الأب تيخن: «العادةُ الحسنة هي الفضيلة، والعادة السيئة هي الرذيلة».

عندما يجاهد الإنسان ويستمرّ في السقوط دون أن تتحسّن حالتُه، فذلك يعود إلى أنانيَّتِه وحُبِّ ذاته وإيثار المصلحة الشخصيّة. وعندما يغيبُ التواضع والمحبة، يتعثّرُ ويتأخر التدخّل الإلهي. وفي حالة كهذه، فإن الإنسان لا يُساعدُ اللهَ كي يساعِدَهُ اللهُ.

وإن تخطى الانسان المتكبِّرُ هوًى معينًا بمعونة الله، فإنه يعتزّ بنفسه ويتعالى، لظنّه أنَّه بقوَّته الذاتية قد تَخَطى ذلك الهوى وليس بمساعدة الله، فيعود ويسقط من جديد في هوًى أكبر.

الإنعتاق من ظلمة الخطيئة

– يارونداا! هل من الخطورة بمكان تلويثُ المعموديةِ المقدّسة؟

– يتوقف الأمر على مقدار التلوّث. هل هو قليل أم كثير؟ هل يلطّخُ أحدهم بقعةً أم بقعتين؟

– وهل تلَوِّث الخطايا الكبيرة المعموديةَ؟

– عادة تُلوِّثُ الخطايا الثقيلة المعموديةَ وعندئذ تبتعد النعمة الإلهية عن ذاك الإنسان. طبعًا لا تَهْجُرُه، كما أن ملاَكَه الحارسَ لا يهجُرُه. أتتذكرين ماذا قال الشيطان لكاهنِ الأوثان عن راهب أراد الزواج من ابنته: «لا تتسرّعْ! هذا الإنسان هجر الله، ولكن الله لم يهجره بعد...!» (آڤريتينوس A)

– يارونداا! هل يستطيع إنسان أن يعيش في ظلمة الخطيئة ولا يشعر بذلك؟

– كلا! الناس يشعرون ولكنهم لا يبالون. من أراد المجيء إلى نور المسيح عليه الخروج من ظلمة الخطيئة. مثلًا: إنسانٌ أُلقِي خطأ

في قبو مظلم؛ ما إن يرى شعاعًا من نور يَتدفّق من شِقٍّ في الحائط أو الباب، حتى يسعى جاهدًا لتوسيع هذا الشقّ والخروج إلى دائرةِ النور. وهكذا فإن الإنسان الذي يملأُ ذاتَه الاضطرابُ الحسنُ فإنَّه سيقوم بمحاولة للخروج من ظلمةِ الخطيئة. إذا اعترف بأنَّه لا يسير سيرًا حسنًا وأَن ما يقوم به هو عمل خاطئ، فإن نعمة الله تحلّ عليه لتواضُعِهِ؛ ومن ثم يتقدّم بشكل طبيعي. أما إذا لم يدخل الاضطراب الحسن في ذاته، فمن الصعوبة أن يلقى المساعدة إنسانٌ في مكان مُقفل يُحسّ بضيق؛ لأنكِ تنصحينه بالنهوض وفَتْحِ الباب والخروج لاستنشاقِ الهواء النقي واستعادةِ العافية والنشاط، ولكنَّه يرفض العملَ بالنصيحة. وقد يَخطرُ على باله: لماذا أنا في الداخل؟ لماذا لا أقوى على التنفس؟ لماذا تضاءَلت كمية الأوكسيجين؟ لماذا وضعني الله هنا وجعل الآخرين في الخارج؟ ولكنه لا يَمتثِلُ للنصيحة. فكيف تريدين مساعدة هذا الإنسان وهو لا يصغي إلى آخر قادر على مساعدته روحيًا وانتشاله من العذاب.

إن الإنسان بارتكابه الخطيئة يجعل من الفردوس جحيمًا. والخطايا الثقيلة التي تُلوّث النفس تجعلُه يتعذّب ويقاوم ويَفقدُ سلامه. والعكسُ صحيح أيضًا، فالإنسان القريب من الله يَغُوصُ متأمِّلًا بالمعاني الإلهية ولا يفتكر فكرًا سيئًا، فيعيش الفردوس وهو على الأرض ممتلئًا سلامًا. وهذا الإنسان يتميّز بشيء عن الإنسان البعيد عن الله، وهو شعوره بالحاجة إلى المساعدة الروحيّة، وهكذا تأتيه النعمة الإلهية بذاتها لتُرشِدَ خطواته إلى النور إن كان يعيش في الخفية وقد تعسّر أن يلقى المساعدة من أي مصدر روحي منظور.

الذنوب بحسب النوايا

يجب أن ننتبه للذنوب التي تحصل عن سابق نيّة وتصميم لأن الله هو فاحص النوايا. أما الخطأ الذي نَقْترفه عن عدم انتباه فقد يكون خفيفًا ويُمكن أن يُبَرّر.

علاوة على ذلك، فإن الله يدبّر الأمور عندما نُخطئ عن غير قصد فإنه يُحوّلُ أخطاءنا لأجل خيرنا؛ ولكن هذا لا يعني أنّه كان علينا أن نَخْطأ لِيَتِمَّ هذا الخير. كلا... وإنما إن حصل بدون معرفة وقصد، فإن الله عندها يحوّله لخيرنا. أما إذا اقترفْنا ذَنْبًا بمعرفتنا ومن ثم أعلنّا التوبة، فلترافقِ الصلاةُ الحارّةُ توبتَنا لننجوَ من شر الخطيئة التي اقترفناها عن قصد.

– ياروندا! كيف خَلُص ذلك الراهب الذي كان يسقط يوميًا في إحدى الخطايا على مدى عشر سنوات وكان يتوب أيضًا؟

– لقد هزمتِ الخطيئةُ ذلك الراهب فأصبح أسيرًا لها. لم تكن لديه نيّةٌ سيئة، إنما لم يجد عونًا، وكان ينحرف نحو الشرّ؛ لهذا السبب استحقّ المساعدة الإلهية. حارَب وتألم، وكانت توبته صادقة، وفي النهاية خلّصه الله.

قد يكون لدى المرء نيّة حسنة ولكنه بسبب انجرافه نحو الشرّ وعدم نيله المساعدة منذ البداية، يصعب عليه النهوضُ من كبوته. يحاول فينهض، ولكنه يعود فيسقط. إنه يُجابِهُ، ولكنه مسكين لا يستطيع وحده أن يقاوم، وعندما يطلب المساعدة الإلهية فإن الله لن يتركه. إنه يشبه إنسانًا يقصد مكانًا معينًا وليس لديه نيّة لاقتراف خطيئة؛ وخلال سيره يتعرّض لتجربة فَيَخطأ ثم يتوبُ وينهض، ويعود للسقوط مجدَّدًا ثم يتوب، وهكذا يستطيع أن يتوب دومًا بعد خطيئته لأنَّ لا نيّةَ شرّيرةً لديه لاقتراف الخطيئة.

أما الذي يَخْطأ عن سابق تصوّر وتصميم، يرسمُ خطة جهنمية ويُقيم حلفًا مع الشيطان، فإنه يقوم بهذا العمل الشرّير الآثم عن سابق تصوّر وتصميم فيقعُ في التجربة. إنه لا يستحق المساعدة الإلهية، لذلك لن يلقى مساعدة وفي النهاية يموت دون توبة.

أما الذين يقولون عندما نشيخُ نتوب فهل هم واثقون بأنه سيتسنّى لهم وقتٌ للتوبة. من يضمن أنهم لا يموتون موتًا فجائيًا؟ قال أحد المقاولين: «عندما أشيخ، سأذهب إلى أورشليم وأعتمد في نهر الأردن، وعندها تُمحى خطاياي». استمرَّ عائشًا في الخطيئة، وعندما هَرم وخارت قواه قرّر الذهاب إلى أورشليم ليعتمدَ في نهر الأردن. فقال لأحد مستخدميه: «إني ذاهب لأعتمد في نهر الأردن». تنبّأ له مستخدمه فقال: «يا أستاذ، إن كنت نقيًا وتطلب المعمودية عن إيمان سوف تصل إلى نهر الأردن، وإلا ستموت في الطريق». وفيما هو منطلق إلى أثينا لإتمام معاملات السفر، خرَّ ميتًا. اهتم بدفنه بعض الناس، بعد أن اختلسوا أمواله، فمضوا به إلى مكتب لدفن الموتى ومن هناك أُرسل بالتابوت إلى منطقته.

أن نفعل الخير محبة بالمسيح

– يارونداا! أخاف من السنوات الصعبة التي تنتظرنا.

– من أي شيء تخافين؟ ربما من الذهاب إلى الجحيم والعذاب هناك مع الشياطين؟ قولي: «ساعِدْني، أيها المسيح، كي أمضي إلى الفردوس، فلا أُحزِنَك، لأنه يصعب جدًا، بعد كلّ ما فعلتَ من أجلي، أن تجدني في الجحيم» هذا أمرٌ أتفهمُه. أما إذا كنتِ تودين الذهاب إلى الفردوس لتنعمي بالراحة، فهذا الأمر ليس فيه تفانٍ.

أنا لا أقول هذا، لنحيا بالتراخي ونصنع المخالفات فنذهب إلى الجحيم، إنما قد يكون عند البعض ميل شديد أو رغبة قويَّة في فعل الصلاح لكي لا يخسروا الفردوس. لو كنَّا متفانين لفكَّرنا: «كم من الناس سيذهبون إلى الجحيم، وفي حياتهم على الأرض لم يشعروا بشيء من الفرح الحقيقي، وأنا أفكّر فقط في ذاتي؟» حقًا أقول لكِ: أنا لا يهمُّني إلى أين سأذهبُ، لأنَّني زَهِدْتُ بنفسي. بالطبع، لا أريد أن أكون بعيدًا عن المسيح، ولكن لا أسعى إلى عمل الصالحات من أجل الدخول إلى الفردوس، إذ ليس هو غاية الصالحات، وأقول: «وإن طَرَدْتَنَي، يا مسيحي، فسأكونُ شاكرًا، ذلك أَني لا أستحقُّ الفردوس»، مريدًا أن أفسح المجال لغيري ليرتاح هناك، وأنا يكفيني أن أنظر من بعيد فأرى المسيح، أما عمل الصلاح فهو تعبير متواضع عن محبتي للمسيح فقط ولا شيء غير ذلك.

حياتنا اليوم أصبحت فاسدة وصعبة. فقد نَدُرَت البطولة والتفاني. حتى الناس الروحانيّون باتوا يفكّرُون كما يفكّر البقّالون؛ توصّلوا أن يعيشوا حياةً روحيّة كاذبة، وراحوا يتطلّعون كيف يستَمْتِعُون بما يريدون وصولاً إلى الحد الفاصل بين هذا الاستمتاع والخطيئة. راحوا يعملون حساباتٍ تجاريةً في حياتهم الروحيّة فيتطلعون إلى الأشياء ويقولون هذا يُحْدِرُنا إلى الجحيم، وذلك يُصْعِدُنا إلى الفردوس. ففي موضوع الصوم مثلاً يقولون: «غدًا هو يوم الجمعة، فلنأكلنَّ الليلة اللحم لغاية الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق، فإنه بعد الثانية عشرة لا يجوز تناول اللحوم إذ يُحتَسبْ ذلك خطيئة». يعني إنهم يريدون الاستمتاع بهذه الحياة، دون خسارة الفردوس وبذلك، يواجهون الجحيمَ والخطيئةَ على غرار البقالين. لو فكَّرَ هؤلاء بنبل وتفانٍ لقالوا:

«لقد صُلِبَ المسيحُ وكابد الآلام من أجلي فهل أُحْزِنُه بعملٍ خاطئ أقترفه؟ لا أريدُ الذهابَ إلى الجحيم، كي لا أسبب الحزن للمسيح بوجودي هناك، وليس لأي سبب آخر.»

علينا أن نجاهد محبةً بالمسيح لا لننال أجرًا، علينا طرد الأنانيّة من قلوبنا والمصلحة الشخصيّة من تفكيرنا. علينا أن نصوِّر في أذهاننا أنَّ المسيح يرانا ويتابعنا، وأن نحاول مرضاته وعدم إزعاجه، وبخلاف ذلك يبلى إيمانُنا وتنتفي محبتنا.

لو تأمّلنا ما نقوم به من نُسك وصيام وسهرانيات لرأينا أن هذه جميعَها تساعد على اقتناء صحّة جسدية جيّدة. أينامُ الإنسان على سرير قاسٍ؟ والأطباء يحبِّذُون ذلك ويحذّرون من مغبّة النوم على سرير لين ناعم! أيضربُ المرءُ مطانيات؟ والآخرون يمارسون الرياضة لتقوية العضلات! أينامَ ساعات قليلة؟ والنوم الكثير يُضعِفُ الإنسانَ! إذًا الروحانيات تساهم في تكوين صحّة جسدية جيدة. أضف إلى ذلك، التعففُ يساعد الإنسان كثيرًا. والذين يقومون بالأبحاث يعيشون حياة متعففةً دون تشوش. نحن لا نتعفف من أجل هذه الغاية، (الأبحاث العالمية)، إنما من داخل الأعمال الروحيّة التي نحن نقوم بها لهدف روحي سامٍ تنبثق الأمور الصالحة التي يتوق إليها العالميون جسديًا. نقوم بالروحانيات ومن داخلها تبزغ صحة الجسد.

التجارب في حياتنا

إن الله يسمح بالتجارب وفقًا لحالتنا الروحيّة. يسمح تارة بأن نقترف خطأ؛ وقد يكون هذا الخطأ حافزًا للاعتراف وتفادي الوقوع مرة ثانية،

أو ربما تجنّب شرّ عظيم يحضّره لنا الشيطان. كما أنه قد يسمح للشيطان باختبارنا من خلال تجربة نقع فيها. تذكّري قولَ الشيخ فيلاراتوس: «يا بني، لقد تخلّى الإلهُ عنّا، فلم أواجه اليومَ أيةَ تجربة». لقد أراد هذا الشيخ محاربةَ الشيطانِ يوميًا لينال الإكليل من المسيح.

إنسان قوي، كالشيخ فيلاراتوس، لا يتجنّب التجارب بل يواجهها طالبًا من المسيح إرسالها ومنحه الشجاعة لمحاربتها في الوقت نفسه. أما الإنسان الضعيف، فيلتمسُ من المسيح عدم تجربته. «لا تُدخلنا في تجربة» (متى ٦: ١٣). مرات كثيرة عندما نواجه تجربة نقول: إني إنسان لا أحتمل شيئًا آخر. وكان الأفضل أن نقول: إني إنسان «عتيق» ساعدني يا إلهي كي اصبح إنسانًا (جديدًا). نحن لا نسعى وراء التجارب، وإنما إن جاءتْ نواجهها بالثبات والصلاة.

بعد كلّ شتاءٍ روحي، علينا أن ننتظر بصبر ورجاء قدوم الربيع الروحي. أكبر التجارب تدوم عادة للحظات معدودة؛ فإن تجنبناها في تلك اللحظات، مرّت التجربة وَمَضَتْ زُمرةُ الشياطين، وخَلُصْنا. عندما يتّحد الإنسان مع الله، تختفي التجارب. أيستطيع الشيطان أن يُلحقَ الأذى بملاك؟ كلا، سيحترق.

الحياة الروحيّة بسيطةٌ جدًا وسهلة. نحن نجعلها صعبة، لأننا لا نجاهد جهادًا صحيحًا. بمحاولة الجهاد قليلًا، ولكن بتواضع وثقة بالله كبيرين، يستطيع المرء أن يتقدّم بسرعة. فحيث يحلُّ التواضع لا يجد الشيطان مكانًا. وعندما يغيب الشيطان تَغيب التجارب.

– ياروندا! هل السقوط في إحدى الخطايا ناجم عن تخلٍّ إلهيٍّ؟

– كلا. الله لا يتخلّى عنا لكي نُخطئ. نحن الذين نتخلّى عن الله فيأتي الشيطان ويجرّبنا. عندما أتكبّر، أطردُ نعمة الله، فيبتعد عني

ملاكي الحارس ويأتي ذاك الملاك...، الشيطان. فهذا التخلّي إنما هو منّي، وليس من الله.

– ياروندا! هل من الصواب القول عند السقوط: «لقد جرَّبَني الشيطان؟»

– مرات كثيرة أسمع أيضًا بعض الأشخاص الروحانيين يضعون اللوم على المجرِّب عندما يعانون. وفي الحقيقة هُمُ الملامُون كونُهم لا يواجهون الأمور مواجهةً صحيحة. علاوة على ذلك فالمجرِّب هو مجرِّب. فهل يعيقنا عن فعل الشرّ؟ إنه يقوم بعمله، لذلك لا نلقي كلّ شيء عليه في حين أننا نحن نفسح له المجالَ للتدخل.

كان متبدئٌ يعيش مع شيخه في قلّاية. ذات يوم، وفيما هو وحيد، تناول بيضة ووضعها فوق مفتاح كبير، كتلك المفاتيح القديمة، وأشعل تحته شمعة يريد أن يَشويَ البيضة. عاد الشيخ فجأة ورآه فسأله: «ماذا تفعل هنا؟» أجابه: «ياروندا! لقد دفعني الشيطان إلى فعل ذلك». إذ ذاك سُمِع صوت قوي يقول: «لم أكن أعرف هذه التقنية، لقد تعلمتُها من المبتدئ»... أحيانًا كثيرة يكون الشيطانُ نائمًا ونحن نوقِظُه.

لدى الخطأة مقومات كثيرة للتواضع

كلّ الذين عاشوا حياةً سربلَتْها الخطيئة ثم تابوا وبدأوا حياة روحيّة جديدة، عليهم أن يقبلوا بفرح وشكر الأمور التي تسبب الأحزان وتدفعهم إلى التواضع؛ فهم بذلك يُسدِّدون ديونَهم.

لنأخذ مثلًا مريم المصرية التي عاشت حياة خاطئة وانغمست في الفسق والفجور. وعندما تابت غَيَّرت نمط حياتها فعذَّبتها الرغبات

العالميّة. إلا أنها صارعت هذه الرغبات صراعًا عنيفًا وطردتَها. قال لها الشيطان: «ماذا تخسرين لو شاهدتِ الإسكندرية؟ لا أطلب منك العودة إلى اللهو وإنما فقط مشاهدةَ المدينة من بعيد». لم تلتفتْ مريم المصرية لتتطلّع. ما هذه التوبةُ التي أعلنتها؟ لقد واجهت حربًا ضروسًا، وهذه المعاناة هي الكيُّ الناتج عن جروح الخطيئة.

– يارونداا! ألا توجد في هذه الحالات تعزية إلهية.

– كيف لا؟ كثيرًا، كثيرًا. لقد وصلت البارة مريم إلى قامة روحيّة بحيث كانت ترتفع عن الأرض عندما تصلي.

إن ذوي الخطايا الكثيرة يملكون مقوّمات كثيرة للتواضع لأنهم يعرفون نفوسهم. السقطة تكون حافزًا للتواضع والصلاة الحارّة عندهم. إن استُخدِمَتِ الخطايا للتواضع، تكون كالسَّماد الذي يُرشّ على المزروعات والأغراس. فلماذا لا يستعمل الإنسان هذا العنصر ليُسمِّد حقلَ نفسه فيَخْصَب ويُثمر؟ من يتواضع عند اقتراف خطايا كبيرة ويشعر بحجم ذَنْبِهِ يتقبّلْ نعمةً كبيرة ويتقدّمْ بثبات ويصل إلى قامة روحيّة. أما الذي لم يقترف خطايا كبيرة فقد يتخلف عن الجري سريعًا ليلحق روحيًا الآخر الذي سقط، إن لم يقل: «لقد حماني الله من تجارب خطيرة؛ فأنا إنسان ناكر للجميل، أنا إنسان خاطئ».

تذكري مثل العشار والفرّيسي (لو ١٨: ٩-١٤). الفرّيسي كان يعمل الصالحات ولكنه كان متكبرًا. أما العشار فكان خاطئًا ولكن كان لديه تواضع مع انسحاق ومعرفة لذاته، وهذا أهم ما يطلبه الله من الإنسان، ولهذا فإن العشار قد خَلُص بسهولة. أرأيت كيف يصوِّرون الفرّيسي في الإيقونات؟ إنه يشير بأصبعه إلى العشار، وكأنه يقول: «أنا لست مثل هذا!» أما العشار المسكين فيختبئُ وراء عمود ولا يجرؤ على

الالتفات ليشاهد ما حوله. ورغم محافظة الفرّيسي على أنظمة الناموس فإنها لم تُفِدْهُ وَذَهَبَتْ سدىً. أرأيتِ ماذا تفعل الكبرياء؟ إذا كان الإنسان خاطئًا ولم يكنْ متواضعًا فيكون لديه عندئذ خطايا العشار وكبرياءُ الفريسي.

حاولي أن تَطْرُدي السمومَ الروحيّة، والأهواءَ، لكي تقتني صحتَك الروحيّةَ.

الفصل الثاني
عمل الضَّمير

أن نفحص ضمائرنا

لقد منح الله الصالح لأوّل الجبلة الضَّميرَ، الناموس الأول الإلهي. غرسه في قلب آدم وحواء غرسًا عميقًا بحيث أن كلّ ذريتهما تكتسبه وراثيًا. وعند عدم التصرّف باستقامة، فإن هذا الضَّمير يوبّخ ويؤنّب ويقود إلى التوبة. لذلك، فإن على الإنسان أن يفحص ضميره ليسمع صوته وأن يشتغل عملاً روحيًا صحيحًا؛ ففي عدم فحص الضَّمير، فإن الإنسان لا ينتفع من القراءات الروحيّة ولا من نصائح الشيوخ القدّيسين، ولن يقدر حتى على حفظ وصايا الله.

إن عدم فحص الضَّمير ومحاسبة النفس وإزالة الغبار من قبل الإنسان يسمح بِتَكَوّن طبقة سميكة تحجب ضميره وتجعله عديم الإحساس، فيخطئُ ذلك الإنسان وكأن شيئًا لم يحدث.

– يارونداا! قلْ لنا شيئًا عن عمل الضَّمير!

– لكي يتأكّدْ الإنسانُ أنه يقوم بعمله وفق ما يمليه عليه ضميرُه فإنَّ عليه أن يعرض نفسه على الأب الروحي، فقد يكون ضميره غافلاً ويظنّ نفسه مستقيمًا، أو قد يقترفُ جُرْمًا ويظنُّ نفسَه محسِنًا، أو يجعل ضميره شديد الحساسيّة فيتأذى.

– ياروندا! إني لا أوبِّخ ذاتي ولا أحسَّ بندامة حقيقية، وربما أصبحتُ عديمة الحسّ!

– أنتِ بحاجة لمزيد من الإنتباه. عندما يقترف الإنسان خطيئة للمرة الأولى يشعرُ ببعض الندمِ ويحزن، فإن سقط في الخطيئة للمرة الثانية يشعر بندم أقلّ، وقد يفقد ضميرُه ميزةَ التمييز بين الخطأ والصواب ان استمرَّ اقترافُ الخطايا.

عندما تُوَجَّه إلى البعض ملاحظاتٌ حول اقترافِ خطايا، فإنهم يغيِّرون الحديث كي لا يزعِجَهم ضميرُهم ويحزنون على غرار الذين يَصِلون في الهند إلى النيرڤانا. في جبال هماليا، قتل شابٌ خمسةَ متسلّقين إيطاليين؛ وبعد أن قام بدفنهم، جلس منحنيًا وطفق يردّد على مدى ساعتين «عصا – عصا» في محاولة لتركيزِ تفكيره والخروج إلى الفراغ والنسيان.

لنفترضْ أنني وبَّخت أختًا خالفت الأوامر والقوانين. إن كانت تلك الأخت لا تشتغلُ عملاً روحيًا خالصًا ولا ترغب في إصلاح نفسها فقد تلجأ إلى تغيير الحديث وترداد عبارة: «اليوم سندقُّ ناقوس الغروب في وقت مبكّر.» بعد ذلك، سيتدخل الشيطان لتشويش فكرها وتبريرها، قائلاً لها: «لا تضطربي! ما قمتِ به كان من أجل عدم إحزان الياروندا». أرأيتِ كيف يتصرفُ الشيطان؟ يحاول ذرَّ الرماد في العيون كي لا نرى أخطاءَنا.

– يارونداا! هل يمكن للمرء أن يتعامى عن أخطائه الكبيرة ويذكر التفاصيلَ الصغيرة؟

– كيف لا يمكن ذلك؟ أخبرني أب روحي مرة الحادثة التالية: جاءت إحدى النسوة للاعتراف وقالت وهي تبكي وتنتحبُ: «لم أَشَأْ أن أقتُلَهَا». فطمأنَها الأب الروحي إلى أن الله يمنح الغفران عند الإعترافِ والتوبة، وقد سامحَ داودَ النبي. أجابت المرأة: «نعم ولكنني لم أَشَأْ ذلك؟» حسنًا، قال الأب الروحي: «وكيف قَتَلتِها؟» أجابته بأنها كانت تُزيل الغبار فضربت الذبابة بالمنديل وقتلتها دون عمد! كانت تلك المرأة قد هجرت زوجها، وأهملتْ أولادها، وهامت على وجهها في الطرقات، تَروي كلَّ هذه الأمور وكأن شيئًا لم يحدث. تتذكر وتنتحب على قتل الذبابة، ولا يعنيها شيء أنها دمَّرت منزلها. لذلك قال لها الأب الروحي: يجب أن تُقاصَصي. فقلتُ له «ولماذا القصاصُ فوق كلّ هذا القصاص؟» فقال متنهدًا: «وكيف سأُساعدها؟»

الضّمير «المُغطّى» (المستتر)

– يارونداا! عندما يُقال لي: «هذه الرغبة تتمّ فيكِ من دون وعي، ولكنك لا تلاحظينها». فماذا أفعل لألاحظها؟

– بقليل من الانتباه، تُلاحظين أنك لست على ما يرام بالرغم من أنك تقولين أن ليس هناك من شيء يزعجني. وفي هذه الحالة ينبغي إجراءُ فحوصات لمعرفة الأسباب، تمامًا كما يخضع إنسان لا يعاني من مرض ظاهر ولكنه ليس على ما يرام. يكون هناك خلل صحيّ

غير مكشوف. ولذلك يجب إجراءُ تحاليلَ طبيةٍ وصور أشعة... لمعرفة الأسباب التي جعلته يشعر أنه ليس في حالة جيدة.

إن كنتِ تَرَيْن أن في داخلك اضطرابًا لا سلامًا، فاعلمي أنَّ عدمَ الاستقرار هو الذي يغلِّفُ نفسَك وصار لزامًا عليك إصلاحُ ذلك. لنفترضْ أنك اقترفت خطأً وحزنت دون الإعتراف به. ثم حدث لك أمرٌ مفرحٌ فشعرتِ بالفرح. هذا الفرحُ يظلّل حزنَ خطأك، وشيئًا فشيئًا تنسِينَ هذا الحزن، وهذا الخطأ كونه محجوبًا بالفرح، فالأفراح تظلِّلُ الخطأ وتدفعه إلى مكان سفلي أكثر عمقًا، غير أنه يستمرّ في العمل داخليًا. وهكذا فإن ضميرَ الإنسان يتحجّرُ وقلبُه يقسو. ويروح الشيطان يبرِّر للإنسان ذلك موهمًا إياه بأن ما يُحسُّ به هو أمر طبيعي. ولكن هذا الإنسان لا يعرف الراحة؛ لأن الحزن يعمل من أسفل، فيستبدُّ به القلق وعدم الاطمئنان ويعاني من العذاب المستمر دون أن يعرف السبب لأن الأخطاء تكون مغطاة، ولا يفهم أن معاناتِه إنما سببُها اقتراف الخطايا المطمورة.

– ياروندا! هل يُمكن مساعدة إنسان كهذا إن كَشَفْتَ له سببَ معاناته؟

– انتبهي! يجب الاحتراسُ في هذا الشأن. فعندما تتوضحُ الأمور على حقيقتها يستيقظُ الضَّمير ويبدأ التوبيخُ. إذا تواضعَ الإنسان، فإن يدَ المساعدة قد تمتدُّ إليه. وإذا لم يتواضعْ، فسيصل إلى اليأس بسبب عدم احتماله للحقيقة.

– ياروندا! هل هناك أناس وُلدوا وضميرهُم خالٍ من التمييز؟

– كلا، فالله لم يضع ضميرًا كهذا. ولكن عندما يبرِّرُ الإنسان ذنوبَه ويغطّيها، تتكوَّن عندها طبقةٌ تعطِّل عمل الضَّمير فيتوقف عن التوبيخ والتأنيب.

– وهل يصبح عندها مستقلّ الذات، يضع أنظمة خاصة به؟
– نعم. وهذا شيء مخيف.
– أهذا ضلال؟
– نعم، إنه ضلال.

الضَّمير الضال

– ياروندا! كثيرًا ما تنبّه من خطورة تكوين «ضمير ضال». فكيف يتكوّن هذا؟

– عندما يريح الإنسان فكره، يدوس ضميره. وعندما تطول الفترة الزمنية التي يرتاح فيها الفكر يتكوَّن عندها الضَّمير الخاص، الضَّمير على حسب قامة الشخص، «الضَّمير الضال»، في هذه الحالة من المستحيل أن يجد الإنسان راحة في داخله.

أيضًا، عندما يقترف أحد الأشخاص خطأ ويُقال له: «أنت غير مذنب فلماذا تحزن؟» أو يخطأ ويتصرّف وكأنه لم يرتكب شيئًا، فإنه لن يجد راحة. هناك البعض يتعاملون مع «الغورو» guoro وعندما يفطنون أنهم لا يسيرون سيرًا حسنًا يأتون ويطرحون عليَّ بعض الأسئلة. أحاول مساعدتهم، فأقول لهم شيئًا؛ يرفضون، لأن ما يؤمنون به هو الصواب. أُجيبهم عندها قائلًا: «حسنًا بما أن ما تقومون به هو الصواب وأنتم مرتاحون، فلماذا أتيتم طلبًا للمساعدة؟» هؤلاء لا يرتاحون في أعماقهم، ومع إنهم يحاولون إيجاد راحة كاذبة، من هنا ومن هناك، ولكن يبقى من المستحيل أن يجدوا راحة حقيقية.

– يارونداا! هل يستطيع الإنسان أن يعيش طيلة حياته «بضمير ضال؟»

– نعم. يمكنه ذلك إذا كان يؤمن بفكره.

– وكيف يعود إلى السبيل القويم؟

– بتفكيره بتواضعٍ، وبعدم الثقة بفكرِهِ، وبمناقشةِ هذا الفكرِ مع الأب الروحي.

– يارونداا! هل يمكنُ لإنسان ذي إحسّاسٍ مرهفٍ أن يكوِّنَ «ضميرًا ضالًا؟»

– لكي يتكوَّنَ لديه «ضميرٌ ضالٌ» قد تكون حساسيتُه خاطئةً وليست بمكانها. فالضلالُ يتولدُ من الضلال. بعضُهم يدّعي أنه حسّاسٌ جدًا، ولكنه يعامل الآخرين بفظاظةٍ ويوبِّخُهم بقسوة دون سبب.

– يارونداا! هل الذين يبرّرون أنفسهم تكون ضمائرهم مصابة بالتكلّس؟

– من يبرِّر نفسَه ويحسَّ بتوبيخ داخلي بسيط لا يكون عديم الإحساس. وعندما لا يكون عديم الإحساس يتألمُ لزلّتِه فينال التعزية الإلهية. أما الذي يكوِّن «ضميرًا ضالًا» فيصير عديم الإحساس. هذا يفتخر بالجرم الذي اقترفه. وهناك كثيرون اقترفوا جرائم وتحدثوا عنها وكأنها مآثر.

عندما يُنَمِّي الإنسان «ضميرًا ضالًا» فإن هذا الضَّمير لا يفقد ببساطة التمييزَ بين الخطأ والصواب، وإنما يكون قد بلغ مرحلة متقدمة من الفقدان.

عندما كنت في دير ستوميو في كونيتسا جاء أحد الأشخاص يريد أن يعترف. ولما أعلمتُه بأني لست كاهنًا أصرَّ على أن يقول

ما عنده. وكانت بعض النسوة في زيارة للكنيسة فطلبت منهن المغادرة ولكنَّ الرجل طلب منهن البقاء. راح يسرد ما فعله في حداثته فقال: «عندما كنت شابًا، رحت أتعلم مهنة صُنْعِ الأحذية، وكنت أشعر بالنعاس نهارًا لأنني كنت أُمضِي الليلَ مع عصابة للسَّرقة. مرةً قال لنا قائد المنطقة: «أريد لنفسي خروفين، ومن ثم اسرقوا ما تشاؤون». ذهبنا إذًا إلى بيوت المسيحيين وأَسكَتْنا الكلابَ بضرباتٍ عصا غليظة وتسلّلنا فسرقنا خروفين ومن الحملان ما استطعنا. أعطينا الخروفين إلى القائد وخبّأنا الحملان في إسطبل مجاور. زجَّنا القائد في السجن. وفي صباح اليوم التالي حضر أصحابُ الماشية إلى مركز الشرطة وتعرَّفوا علينا واتَّهمونا بالسَّرقة. ولكن القائدَ أبدى تعجبًا ماكرًا قائلًا: ولكنّ فلانًا وفلانًا موجودان في السجن. فلماذا تَفْتَرُونَ عليهما؟ وراح يضربهم... وذات مرة سَطَوْنا على قطيعٍ يحرسه راعٍ ضخمٌ مع أبيه. قتلنا الراعي، وربطنا أباه على جذعِ شجرة، وأخذنا ما نريد من الخراف...» كان يسرد هذه القصص وهو يقهقِهُ معتبرًا إياها أعمالًا بطوليةً. أرأيتِ إلى أين يقود «الضَّمير الضال».

بالمقابل، تعرفتُ إلى شرطي كان يبكي باستمرار لأنه رافق أحد الأشخاص في انتقاله من سجن إلى آخر. وبعد مثول هذا الشخص أمام المجلس العسكري حُكِمَ عليه بالموت فأُعدِمَ. راح هذا الشرطي يبحث عن أقرباءِ هذا الشخص ليعتذِر ويسألَ الصفحَ. أرأيتِ الفرقَ بين الحالتين. أحدُهما اعتبر نفسه مذنبًا لمرافقته مجرمًا رغم كونه تحت واجب الخدمة، وآخر تحدّث عن جرائمه مفاخرًا ومعتبرًا إياها أعمالًا بطولية.

الكلام الكاذب لا يُريح

– ياروندا! إن كان إنسان يعيش في عالمٍ خاص، مؤمنٌ بفكره، فهل تساعده صلوات الآخرين؟

– ما حاجته إلى المساعدة وقد كوَّن عالمًا خاصًا به؟ وهل يُعتبر ذلك أمرًا صغيرًا؟ وهل يشعر هذا الإنسان بالراحة أو الفرح؟ هذا كلام كاذب. لنفترضْ أن إنسانًا اضطُرَّ إلى الكذب ليخلِّص شخصًا آخر ويُنَجِّيه من الموت. هذا الكذب قد يكون «نصف خطيئة». وقد يحدثُ أن يكذبَ الإنسان بفكرٍ حسن ليساعد شخصًا آخر أو لكي يتجنّبَ مَعثرةً. قد يأتي إلى الدير – مثلًا – أحد الأشخاص سرًا، وهو معروف في المجتمع ويعاني من مشاكل عائلية، فيتكلم ويرتاح. قد يأتي أخوه لاحقًا ويسأل: «هل مرَّ فلان من هنا؟» إن أجبتِ بنعم فقد تخلقين مشكلة كبرى وتعرِّضين الآخر للخطر. الأفضل أن تقولي: «لا أعرف». ولكن على المرءِ الاحتراس. فبعد عدة حوادث من هذا النوع، قد يعتاد الإنسان على الكذب فيستعمله على نحو غير متوقَّع ويكوِّن «ضميرًا ضالًا». وقد يصل به الأمر إلى تلفيق الأكاذيب دون أن يؤنِّبه ضميره على الإطلاق. هذا الأمر يصبح في ما بعد ضربًا من العلوم.

كيف يجعلون الأقوال الكاذبة متناغمة إن لم يكونوا قد تدربوا عليها! يؤلّفون حديثًا كاملًا كاذبًا ويقنعونك به!

جاء إلى القلّاية شخص أعرفه، وفي الوقت عينه جاءت مجموعة أشخاص من منطقة بصحبةِ شاب كنتُ قد قدّمت له مساعدة. كان شابًا ذكيًا ولكنه مسكين اعتاد على السهر والبطالة. بعد محاولات

يائسة متكررة لمدة سنوات أربع، طلبت من هذه المجموعة أن يدبّروا له عملاً وقلت لهم: «حاولتُ مراتٍ كثيرة مساعدته وقد أرسلته إلى «كاسْتورْيا» ليتعلّم صنعة دباغة الفراء فلم يَثْبُتْ في عمله وغادر. إنه شاب، ومن الخطأ أن يُنفِقَ وقتَه في البطالة والتسكّع وهو يتيمُ الأب». هنا انبرى الشخص الذي أعرِفُه وراح يشرح كيف تعاون معي ليذهب الشاب إلى «كاسْتورْيا» لتعلُّم مهنة دباغة الفراء. وراح يتحدّث عن الأموال التي أنفقها على برقيات أرسلها إلى أهل الشاب للاطمئنان فضلاً عن اعتقاده بأن هذا الشاب لن يثبتَ في عمله. دُهِشْتُ لهذا الحديث، ولم أقلْ شيئًا كي لا أجرَحَه. لقد اختلق حديثًا كاملاً كاذبًا سبَّب لي إرباكًا.

– هل تحدّث عن هذه الأمور بحضورك؟

– نعم، وكان هناك أشخاص آخرون.

– ماذا فَهِم؟

– لقد شعر برضًى أنانيٍّ، ولكنه سيتعذب لاحقًا لأنه لن يعرف السلامَ الداخلي.

– عندما يسرد المرء حادثة ويضخِّمها قليلاً، هل يفعل ذلك بدافع من المجد الباطل؟

– ومن أي شيء يكون؟ من المجدِ الباطل والأنانيّة.

– وكيف يمكن مساعدة إنسان كهذا من أجل إصلاح أمره؟

– بالتوقف عن الكذب. فالكذبُ – وإن كان مبرَّرًا – هو خطيئة.

– ياروندا! إذا قال الآخرون لنا شيئًا بهدف مساعدتنا، فهل نظنّ أن هذا الشيء قيل لنا لأننا نستحِقُّ ذلك؟

– انتبهي! إن قلتُ لكِ: أيتها الأخت! تستطيعين أن تصلي إلى مستوى القدّيسة التي تحملين اسمَها. قد تبتسمين قليلًا، لكنَّك لن تشعري بالراحة في داخلك؛ فالكلام الكاذب لا يريح لأنه يفتقر إلى نعمةِ الله. والظالم الذي يمارس الظلم مدَّعيًا أن هذا هو حقه لن يشعر بالراحة.

عايني الأتراك في القسطنطينية بعد سنوات كثيرة من عملية التبادل السكاني؛ فعندما يأتي اليونانيون إلى المدينة، يشعر الأتراك بأن صاحب المُلك قد أتى وبأنهم قد اغتصبوا الأرضَ منذ سنوات طويلة.

الضَّمير المستقيم يُنبئ الإنسان أمورًا صحيحة

ليس هناك أعظم من الضَّمير المرتاح. شيء عظيم أن لا يؤنِّبَكِ ضميرُكِ عندما تستطيعين القيام بشيء مخالف لأوامره (الضَّمير) ولا تقومين به. في هذه الحالة يشعر الإنسان بفرح داخلي مستمر وكأنه في عيد روحي. وهذا الفرح الداخلي يُولِّد القوّة الروحيّة.

– يارونداا! كيف يفهم الإنسان أن ما يقوم به يكون مقبولًا عند الله؟

– لدى الإنسان معرفة داخلية.

– هل تكفي معرفتُه أم يلزمُه شهادةٌ من آخرين؟

– إني أتكلمُ على إنسان ذي ضميرٍ مستقيم وليس على إنسان ذي «ضمير ضال». الضَّميرُ المستقيم يُنبِئُ الإنسان أمورًا صحيحة فيشعر الإنسان عندها بيقين ورجاء ويقول متواضعًا: «أنا لا أصلحُ للفردوس، إني أصلح للجحيم، ولكنْ أُؤمنُ أن محبةَ الله ورحمته لن

تتركاني». إنه يشعر بذلك لأنه يجاهد. لا يتسكّع مُريحًا فكرَه وجسدَه ويقول: «سوف يخلِّصُني الله».

الضَّمير ... شيء مخيف. لا توجد نار أعظم ولا جحيم أعظم من احتراقِ الضَّمير. لا توجد سُوسَةٌ أكثرُ ألمًا ورعبًا من سُوسَة الضَّمير. الموجودون في الجحيم يتعذَّبون أبديًا لأنهم خسروا صالحات الملكوت من أجل أعوام قليلة عاشوها على الأرض مليئة بوخز الضَّمير. فالأهواء وإن لن تكونَ مصدر سرور، وإنما هي مصدرُ عذاب آخر.

– ياروندا! كيف يستطيع الراهب أن يعيش فعليًا استشهادَ الضَّمير؟

– استشهادُ الضَّمير هو للجميع وليس فقط للراهب، للرهبان استشهادُ النُسك الحلو؛ وعند إنسانٍ يجاهد جهادًا صحيحًا لا وجود لما يسمى استشهاد الضَّمير. وبقدر ما يتألم المرء روحيًا، إما لمشاركته في الآلام التي كابدها المسيح من أجلنا أو بسبب حالتِه المُزرية، بقدر ما يُكافَأ بالتعزية الإلهية. فعندما يرتاح الضَّمير، فإن الإنسان يشعر في داخله بالتعزية الإلهية، حتى لو أصابته الآلام وعَصَفَتْ به الأحزان.

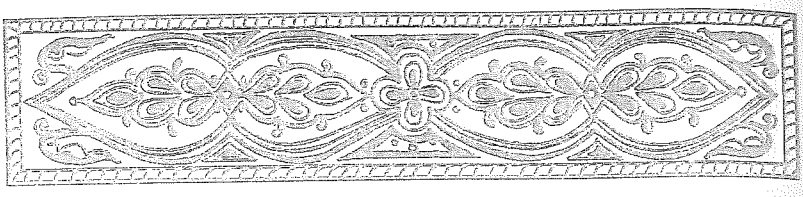

الفصل الثالث

متابعة ومعرفة ذواتنا

درسُ ذواتنا

كانت لدينا في الجيش – في سلك الاتصالات – شَبَكةُ بثٍّ مبرمجةٌ وجدولٌ متعارَفٌ عليه. كنا نتابع الموجاتِ الغريبةَ التي كانت تتداخلُ في الوسط والموجات التي تخصُّنا. هكذا على الإنسان أن يتابع أفكارَه وأعماله ليرى إن كانت تتوافقُ مع وصايا الإنجيل. كما عليه أن يُمسِك زلّاتِه ويجاهدَ من أجلِ تقويمها. فإن ترك لزلّةٍ أن تمرَّ دون أن يُعِيْرَها انتباهًا، وإن طرح جانبًا ما يقال له عن أخطائه، فإنه لن يتقدم روحيًا.

درسُ ذواتنا يَنْفَعُنا أكثر من كلّ القراءَات. يستطيع الإنسان أن يقرأَ كتبًا كثيرةً، ولكنَّ هذه القراءَة لا تُجدي نفعًا إن لم تقترن بمتابعة النفس. أما الذي يقرأ قليلاً، ويتابع نفسه، فينتفع كثيرًا؛ إذ تصبح تصرفاته دقيقة وَيَفْطِنُ لزلّاته فيتجَنَّبها. في القلّاية أستعمِل جذوع الأشجار مقاعد يجلس عليها الرجال خارجًا عندما يقصدوني خارج أيامِ الشتاء. وعند نهوضِهم للرحيل لا يأبَهون ولا يفكّرون بإعادتها إلى

مكانها. وقد يحدث أن أنقل جذوعًا كثيرة ليجلسوا عليها إذ يكون عددُهم يفوق المعتاد، دون أن يمدَّ أحدُهم يدَه للمساعدة. لو فكَّرُوا قليلًا لقاموا وساعدوني في نقلها من مكان إلى آخر.

– يارونداا! سَأَلَتْني أختٌ صغيرةٌ: ألم يعانِ الشيخ بابيسيوس عندما كان راهبًا مبتدئًا سقطاتٍ في جهاده؟ ألم يُراوِدْه أيُّ فكرٍ من اليسار؟ ألم يقع في الإدانة؟

– عندما يحدث شيء من ذلك، أو تُوَجَّه إليّ ملاحظة، كنت «أدفع الضريبة».

– وماذا تعني بهذه العبارة: «أدفع الضريبة»؟

– أي أن أدع الزلّات تمر من دون مبالاة؟ تمرّ من الخارج؟

فكما أن الأرض المتحجِّرة لا تسمحُ لمياه الأمطار بالتسرّب إلى باطنها، هكذا يتحجَّرُ حقل القلب فلا يشعر بِذَنْبٍ أو يتوبُ مهما قيل عنه أو حدث له.

إن قال عني أحد الأشخاص إني مُراءٍ فلا أدعو عليه لقوله هذا، بل أَبحثُ عن السبب الذي دعاه للتفوُّهِ بهذا الكلام. فاللَّوم لا يقع على الآخر وإنما عليّ، لأنني لم أحترس وأعطيتُ الآخر سببًا لِيُسيءَ فَهْمَ تصرّفي. من غير المعقول أن يوجِّه أحدهم اتهامًا أو يتفوه بكلام سيء دون سبب. لذا فإني أحاول الانتباه وإيجاد الخطأ وتقويمِه والتحرّك بيقظة لكي لا يُساءَ فَهْمُ كلامي أو تصرفي.

أنا لا يهمُّني إن كان الشخص قد تفوَّه بهذا الكلام عن حسد أو غَيْرَةٍ، أو نقله عن إنسان آخر. ما يهمّني هو إصلاح الخطأ إن كان الكلام صحيحًا. وإن لم يكنِ الكلامُ صحيحًا فلا أُلقي اللَّومَ على الآخر بل أُفتّشُ عن شيء سبّب له معثرة.

قد نقول عن شخص: هذا الإنسان خسر توبيخ ضميره. أتعلمين متى يخسر التوبيخ؟ عندما لا يتابع الإنسان نفسه. إن كان الإنسان ذا عقل غير سَوِيٍّ ولا يوبّخُ نفسه فلديه مبرّرات. أما إذا كان ذا عقل سوي صحيح ولا يوبّخ أعمالَه، أي لا يتابع نفسه، فليس لديه مبرّرات.

الخبرة الناتجة من سقطاتنا

عندما تفحصين نفسك، يساعدك كثيرًا استعراضُ مراحلِ حياتِك، تباعًا من سنّ الطفولة، لتعرفي موقع هذه النفس سابقًا، وموقعها الآن، وأين يتوجّب أن توجد في المستقبل. المقارنة بين الماضي والحاضر ضروريةٌ لفهم الجهة التي قد تنوجدين فيها بحالة حسنة. وقد يحدث أنك لا تكونين في الحالة التي يتوجّب أن تكوني فيها وتُحزِنينَ اللهَ.

عندما يكون المرء شابًا وحالتُه ليست جيدة فهو مبرَّر. ولكنه عندما يَكْبَرُ ويظلُّ في الحالة نفسها، فهو غير مبرّر.

كلّما مرَّت السنون، ينضجُ الإنسان روحيًا؛ وإذا استفاد من خِبرةِ الماضي، تقدَّم بثباتٍ وتواضع. والجهاد – في تَرَجُّحِهِ صعودًا ونزولًا – يساعد إيجابيًا على استمرار المسيرة الروحيّة نحو العلاء.

عندما يبدأ الطفل الصغير بالمشي، يقع مرات كثيرةً ويصدمُ رأسه ولكنه لا يفطِنُ لأسباب السقوط. وعندما يكبر، يكتسب خبرة وينضج وينتبه. يعرف أنه سقط فيتجنّب الصعود كي لا يسقط. وهكذا نحن في جهادنا، فإننا نكتسب خبرة نستفيد منها لأجل الخير.

كنا نملك في المنزل، في كونيتسا، خمسةَ جياد، كبيرةً وصغيرة. ذات يوم، كنت أقود هذه الجياد على جسر مصنوع من جذوع الأشجار والألواح الخشبية، فعلق حافر أحد الأحصنة، وكان صغير السن، داخل جذع مُهْتَرِئ. ومنذ ذلك الحين، ورغم بنيان جسر أكبر ووضع أخشاب قوية جديدة، فإن ذلك الحصان ظلّ يقاوم المرور عبر ذلك المكان، فيبدأ بالرفس والقفز أو يقطعُ الرسن ويهرب. فإن كان الحصان يستخدم خبرته ولا يسمح لحافره بالوقوع بين الأخشاب، فما قولكِ بالإنسان العاقل واستخدامه الخبرة الناتجة من سقطاته!

أن نحدّد موقع العدو ونضربه

– يارونداا! المتواضع يتقبّل الظلمَ ويندفع مضَحِّيًا بالغالي والنفيس، وأنا لم أستَطِعْ فِعْلَ ذلك لأنني لا أحبُّ التواضع.

– ليست الأمور كما تقولين. سريعًا ستتحرَّرِيْنَ من الأهواء لأنك بدأتِ تُمسِكينَ نفسَك التي داخَلَها الاضطرابُ الحسنُ. وهذا الأمر يساعدُ أكثر من أي جهاد آخر. كلٌّ من أمسك نفسه، يتخلّى عن نفسه العتيقة ويسير في الطريق الروحي الصحيح. نفسُنا العتيقة تَسْرِقُ ما تقوم به نفسنا الجديدة. وعندما نتعَلَّم أن نُمسِكَها، نُمسِكُ اللصوصَ الذين يسرقون منا ما يعطينا الله من الصلاح، ويبقى الغنى الروحي بحوزتنا.

– يارونداا! أحزن عندما أوجِّه إلى أخت كلامًا قاسيًا لزلّةٍ ارتكَبَتْها فهل يساعدني هذا الحزنُ؟

– يساعدِك. ولكن عليك الانتباه لئلا تتجاوزي الحدود. يجب أن تحزني، ولكن يجب أن تفرحي لأن الفرصة قد سُنِحَتْ لك لمعالجة المرض. وعليك أن تفكري، أن التصرُّفَ بقسوة والكلام القاسي يعني أن هوًى موجودًا في داخلك، قد أُعْطِيتْ له الفرصةُ ليَظْهر ويُصَحَّح. طبعًا ستطلبين المغفرة من الأخت. السقطات تساعدك على معرفة نفسك فتتنقّى من الشوائب. الأطباء يعطون مرضاهم أشياء مختلفة من أجل كَشْفِ عوارض المرض وتشخيصه تشخيصًا صحيحًا. فقد يطلبون منهم تناول السكر، ومن ثم يجرون فحصًا للدم لقياس معدل السكر.

في الجهاد الروحي، يجب علينا أن نُحدِّد نقاط الضعف في شخصيتنا لمعرفة الأخطاء ومن ثم ضرْبِها. خلال الحرب كنا نحدِّدُ مواقع العدو من أجل مَسْحِ منطقة ما. فعندما نعرف هذه المواقع بالتحديد نتحرّك بطمأنينة. نفتح الخريطة ونقول: العدو موجود هنا وهنا، ويجب احتلال هذا الموقع وتلك التلة. هنا سنطلب تعزيزاتٍ عسكريةً، وهناك ينبغي استعمالُ الأسلحة الثقيلة. معرفة أماكن وجود العدو تتطلّب بحثًا وقلقًا وقد تَحْرِمُ من النوم.

– يارونداا! هل من الأفضل أن يجد المرء أخطاءَه بنفسه أم أن يقولَها له الآخرون؟

– من الأفضل أن يجدها بنفسه وبمفرده، كما أن عليه عدمَ الإنفعال عندما يحدّثه الآخرون عنها. عليه أن يتقبّلَها بفرح.

– يارونداا! هل يشاهد الآخرون نفسي أفضل مما أراها؟

– يستطيع المرء – إن أراد – أن يرى نفسه بشكل أفضل، فيحدّد انفعاله وخطأه. أما الآخرون فقد يُخرِجون استنتاجاتٍ افتراضيةً.

– يارونداا! هل يحدث أن يحاول المرء مشاهدة نفسه كما هي فلا يقدر على ذلك؟

– نعم، إذا رافق ذلك الكبرياء فإنه لا يرى نفسه على حقيقتها.

أن نعكس صورة أنفسنا على الآخرين

يستطيع الإنسان مشاهدة صورة نفسه بطريقة فضلى إن عكسها على الآخرين. فالله وهب كلَّ إنسان ما يحتاج إليه للمساعدة سواء استعمل هذه الموهبةَ أو لم يستعْمِلْها. إن استعمَلَها يصل إلى الكمال. بالإضافة إلى ذلك فإن عيوبَنا هي مَنُوطةٌ بنا، ونحن قد اكتسبناها بسبب عدم احتراسنا أو ورثناها عن أهلنا، وفي الحالتين علينا أن نجاهد الجهاد المناسب للتحرُّرِ منها. ومن أجل هذا التحرُّرِ علينا أن نعكس صورة نفوسنا في أخطاء الآخر، فإن شاهدنا عيبًا عند هذا الآخر فلنقل: «ربما لدينا أيضًا هذا العيب»، وعلينا أن نجاهدَ للتخلُّص منه.

– يارونداا! وإن قال لي فكر أن ليس لديّ هذا العيب. فماذا أقول؟

– قولي: «لديَّ عيوبٌ أخرى أعظم. وهذا أمر صغير جدًا بالمقارنة مع عيوبي». إن كان المرء يفحص نفسه على هذا النحو فإنه يرى أن لديه أخطاءَ أعظم من أخطاء الآخر، وعندها يشاهد فضائل الآخر. وعندها يَتَساءَلُ: «هل أملك أنا هذه الفضيلة؟ كلا. «أُفٍّ»، كم أنا بعيدٌ عن المكان الذي يتوجب أن أكون فيه». من يتصرّفْ هكذا يتغيّرْ ويصبحْ كاملًا. ينتفع من القدّيسين، ينتفع من المجاهدين، وينتفع من العالَمين. نحن البشر لدينا عمل كثير لإنجازه. إن الإله الصالح قد دبَّر كلّ الأمور من أجل خيرنا بطريقة حكيمة.

من يعرف نفسه معرفة صحيحة يقتنِ تواضعًا

– ياروندا! بعد سقوطي في خطيئة ما أَفطِن للكبرياء.

– الغاية أن يفطِنَ الإنسان للكبرياء قبلَ سقوطِه. عندما يمدحك أحدهم لقيامك بعمل جيد، حاولي ألَّا يلتصِقَ بك هذا المديح وألَّا تشعُرِي برضى داخلي.

– وماذا يساعدني ذلك؟

– أَنْ تعرفي نفسَك. إن كان الإنسان يعرف نفسه تنتهي كلّ الأمور. تصبح المدائح أجسامًا غريبة لا تدور في فلك الإنسان. فالغجري الذي يعرف نفسه حقّ المعرفة لا يمكن أن يخطرَ في باله أنه ملك. وإن كنتِ تظنين نفسك أَميرةً فأنت ضعيفةُ العقل.

– إن كنتُ مستعدةً لعدم قبول المديح أَفَلا يساعدني ذلك؟

– عادة، هذا ما يجب أن يحصل. والأمر يتعلّق بحسن الاستعداد. المهمّ أن يعرف الإنسان نفسه. فإذا لم يعرف إنسانه العتيق فلن يتواضع، وعندها يلبث في المدار العالمي دون أن يَلِجَ في المدار الروحي.

– ياروندا! أيمكن أن أعرف نفسي معرفةً خاطئة؟

– أَلَمْ نتكلمْ على الحالة الخاطئة! من يعرف نفسه معرفة صحيحة يقتنِ تواضعًا، وعندما يتواضعُ تَحُلُّ عليه النعمة الإلهية.

من يحاول معرفة نفسه يشبه من يحفر في الأرض عميقًا بحثًا عن معدن ثمين. وكلما تقدّم بعمق في معرفة نفسه يراها في مستوى أدنى ويتواضع، ولكنَّ يدَ الله ترفعه باستمرار. وعندما يعرف نفسه جيدًا يصبح تواضعه حالة ثابتة، فلا يتعرّض لخطر الكبرياء لأن نعمة الله

تحفظُه. ومن لم يقم بهذا العمل، يجمع باستمرار قُمامتَه فترتفع قِمَّتُه ويجلس عاليًا على عرش كبريائه، ولكنه سريعًا ما يقع ويتحطم.

أن نعرف مرضنا

– ياروندا! كثيرًا ما أشاهد عيوب الآخرين وأحكم عليهم.

– هل تعرفين مرضك؟

– كلا.

– لهذا السبب تعرفين مرض الآخرين. لو كنت تعرفين مرضك لما كنت تعرفين مرض الآخرين. أنا لا أمنعك من مشاركتهم آلامهم، ولكنني أطلب منك عدم الاهتمام بزلّاتهم. إن لم ينشغل الإنسان مع نفسه فإن الشيطان يهيِّئُ له مشاغلَ فينشغل بالآخرين. من لم يشتغل على نفسه يحكم على الآخرين أحكامًا خاطئة وفقًا للاستنتاجات الخاطئة التي تخرج من ذاته.

– ياروندا! ماذا أفعل لكي أتقدّم؟

– يجب أن تتحلّي بالإرادة، فهي البداية الحسنة. بعدها يجب أن تقتنعي بأنك مريضة وبحاجة ماسة إلى دواءٍ مضادٍّ للجراثيم. مَن يُخفِ مرضه يسقط ولا تنفعه المساعدة الطبيّة. مثلًا يدرك أحد الأشخاص أنه مصاب بداء السل، من جراء فقدان الشهية، فيعزو السببَ إلى عدم حب هذا النوع من الأطعمة. ثم يصاب بالإرهاق وتتقارب خطواته ولا يستطيع المشي بشكل جيد فيبرِّرُ ذلك بعدم الرغبة في الركض كالمجنون. ثم يبدأ بالسعال، فينسب ذلك إلى حساسية مُفْرِطة وينسى أمر الرئتين، إلى أن ينتهي به الأمر إلى أن يَتْفُلَ دمًا فيرد ذلك إلى تجرّح الحنجرة.

– إذًا ياروندا! هل يلجأ إلى هذه التبريرات طمعًا في إخفاء إصابته بمرض السل؟

– نعم. يحاول جاهدًا إخفاء المرض فينتشر المرض بسرعة، ويسقط أرضًا، وينكشف مرضه وقد لا ينفع علاجٌ في حالة كهذه. ولو اعترف، أن الحرارة ناجمة عن السل وبادر إلى العلاج المناسب، لأصبح معافى سليمًا.

ما أريد قوله، هو أن في الحياة الروحيّة، من يبرِّر أهواءَه يتقبّل تأثيرًا شيطانيًا لا يستطيع إخفاءَه. أتعلمين ماذا يعني تَقَبُّلُ التأثيرِ الشيطاني؟ يغضب الإنسان ويصبح وحشًا، فيقاوم ويتكلم بوقاحة ويتصرّف بعنف ولا يقبل المساعدة من أحد.

لذلك، فالمهم أن يعرفَ المرء مرضه ويبادرَ إلى العلاج وَأَخْذِ الدواء المناسب ويشكر الطبيب – الأب الروحي أو رئيس الدير – ولا يقاوم. فآلام العملية الجراحية مُمِضَّة، ولكنَّ الإنسان يتقبَلُها لأنها تجعله سليمًا معافى.

– ياروندا! عندما أعلم أن ملاحظةً قاسية ستساعدني، لماذا لا أقبلها بفرح؟

– قد لا تقبلين الملاحظة بفرح، ولكن هل تفهمين أن هذا الشعور (بعدم القبول) ليس صحيحًا.

– نعم إني أفهم ذلك.

– إن كنت تفهمين ذلك فلا بأس. فالمريض يتناول دواء مرًّا كالعلقم ويتقبّلُه لأنه نافع مفيد. ولو رفض الدواء كونُه مرًا، فإنه لن يتعافى. عليه أن يقبل الدواء رغم مرارته، لينال فيما بعد قوَّةَ المسيح.

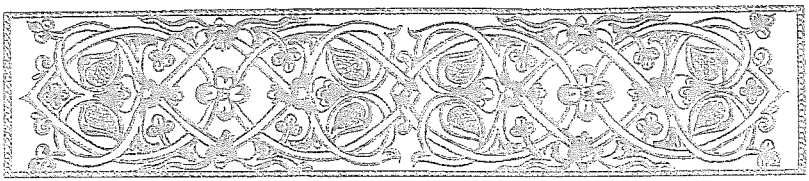

الفصل الرابع
الشعور بالخطايا يحرّك مشاعر الله

الإقرار بالزلّات

يا روندا! يقول الأنبا اسحق إنه ينبغي أن نشعر ونحن نصلّي وكأننا أطفال.

– نعم. ولكنْ كأطفال سيئين. يجب أن تعترفي أنك تُحزنين أباك السماوي لذلك تبكين، وإذ ذاك ستشعرين بالملاطفة الإلهية. من الخطأ القول: «بما أني طفلة، وَجَب على الله أن يحبَّني حتى ولو قمت بمخالفات فإن عليه مسامحتي».

– يا روندا! لقد شعرت بالقلق عندما قرأتُ القدّيس غريغوريوس النيصصي حيث يقول: «لكي ندعوَ الله «أبانا» وجب أن نكون قد وصلنا إلى اللاهوى؛ وإلّا، فإن دعاءنا يكون إهانةً وسخرية».

– أيتها المباركة! لا تحزني. ما قاله القدّيس المذكور إنما يتوجّه به إلى الذين يعيشون حياةً خاطئة غير مستقيمة. أما إذا أخطأ المرء وتولّد لديه شعور عميق بالذَنْبِ فإنه يستطيعُ أن يدعو الله «أبًا».

– ياروندا! أشعر أني لست على ما يُرام تجاه الله وهذا الأمر يؤلمني.

– في اللحظة التي تَشعُرين بها أنَّك لستِ على ما يُرام وتقولين بتواضع: «إلهي! أنا إنسانة خاطئة»، فإن الله يسامح، ويُساعد ويُنعِم. وإن وجدكِ الموت في حالة كهذه، ستخلصين لأنك تعترفين بأنكِ لستِ على ما يرام، وتجاهدين. لستِ، معاذَ الله، ضمن حالة شيطانيّة. كلُّ الأخوات هنا في الدير يَعِشْن – بمعونة الله – حياةَ توبةٍ. ثم إن الإنسان الروحي – كما تعلمين – يتقبَّلُ النعمة الإلهية عندما يشعر أنه في حالة مُزْرِية، لأن هذا الشعورَ يَغْسِلُ أدرانَ النفس. وعندما يعترف أحد الأشخاص بألم: «أنا إنسان خاطئ ...» أفرح؛ لأنه حين يُقِرُّ بزلّاته يَتحرَّرُ منها.

وجدتُ، ذات مرة، إنسانًا يعيش مع القطط والكلاب في قلّاية مهجورةٍ بالكليّة. لا يجرؤ على إضرام نار للتدفئة خوفًا من اندلاع حريق. تألمت وحزنت من أجله، ولكنه قال لي: «لا تحزن أيها الراهب. ينبغي لي أن أتألمَّ وأتعذّب. لو كنتَ تعلم ما فعلتُه لما حزنت عليّ. هذا المكان يناسبني تمامًا وهو جيد جدًا». تساءلت عندها قائلًا: أيعقل أن لا يرأف الله بإنسان كهذا مهما كانت الخطايا التي اقترَفَهَا؟. وفي العام ١٩٩٤، عندما كنت في المستشفى، جاءت امرأة امتلأت يداها من وخز الإبر وكانت حالتُها مزرية جدًا. قالت بأنها لا تقتني شيئًا صالحًا! وربما لهذا المرض الذي أصابها يرأف الله بها وينقلها إلى الفردوس! أباحت بأنها اقترفت كذا وكذا... وراحت تعدد أخطاءَها الكثيرة والجسيمة. ما هذا العمل

الدقيق الذي اشتغَلَتْ به على نفسِها حتى اكتشفت كلَّ ضعفاتها!. لم أشاهد حالة كهذه عند إنسان آخر!

– يارونداا! سمعت أحد الأشخاص يقول: «أعتقد أن المسيح سيَدِيْنُ الناس برأفةٍ». هل هذا الفكر صحيح؟

– عندما يتواضعُ الإنسان إلى حدّ الانسحاق ويُقِرُّ بزلّاته ويشعر بعمق ذَنْبِه الكبير، فإن المسيح يتصرّف معه بلين ويسامحه قائلاً له: «يا بُنَيَّ لا تفكّر بالأمر بعد الآن. لقد انتهى كلّ شيء». أما إذا لم يشعر بِذَنْبِه، معتقدًا أن المسيح سيدينه برأفة ورحمة، فإن في الأمر خطورة كبيرة. فهل يكافئ المسيح الخطأة؟

الإدراك الحسن لذواتنا يحرّك مشاعر الله ويمنحنا عونًا إلهيًا وفرحًا فردوسيًا. والله يطلب منا هذا الإدراك ليساعدنا.

– يارونداا! لقد تحدّثت عن «إدراك حسن» لذواتنا، فهل هناك «إدراك سيء»؟

– نعم. قد يكون لدى المرء معرفة خاطئة عن نفسه، فيُبرِّرُها ويُريح فكره. لذلك عندما أتحدث عن معرفة الإنسان لذاته وإقراره بالخطأ، فإني أقصدُ، أن هناك محاولةً بسيطةً للتحسّن الروحي: سأعطيك مثلاً: أنا مَدينٌ لكِ بخمسمائة ألف دراخما، وعندما أراكِ أقولُ: أنا مَدِينٌ لكِ بهذا المبلغ، ولكن أمرَ إيفاءِ الدَّيْن لا يشغُلُني. أعترف فقط ببساطة أن عليَّ دينًا. وبعد فترة أكرِّرُ الكلامَ نفسه دون الاهتمام بإيفاء الدين. هذا التصرف لا يعني إقرارًا؛ لأنه عندما يُقر الإنسان فعليًا أن عليه دينًا، فإنه لا يذوق طعم النوم ويبحث عن وسيلة تمكّنه من إيفاء الدين. المهم أن يفهم الآخر من طريقة الكلام والتصرف أن الشخص مهتمّ فعليًا بالدَّيْنِ وإيفائه.

الشعور بالحالة الخاطئة والتقدّم في الجهاد

– يارونداا! هل من الصواب أن يحدِّث رجلٌ، لا يسير سيرًا حسنًا في جهاده، نفسَه قائلًا: «أنت هكذا وستظل هكذا. لن أتوقع منك شيئًا أفضل».

– إن واجه وَضْعَهُ على هذا النحو، فقد يَضِلُّ. قد يُقنع نفسه بأن المدعوِّينَ لدخول الفردوس معروفون ويدخلون، فلماذا الجهاد إذًا؟ ولكن هل فكَّر ذلك الرجل بأن القدّيسين قد جاهدوا الجهاد الحسن فتقدَّسُوا! وهل يتوقّع من نفسه أن يتقدّم وينعَتِقَ من أهوائه دون جهاد! إذا صدّق ذلك، فيكون مَثَلُهُ مَثَلَ ذلك العجوز الذي أراد أن يأكل توتًا فجلس تحت شجرة التوت وفتح فاه منتظرًا سقوط إحدى الثمرات في فمه.

– ولكن كيف أفهم أن لديَّ تقدمًا روحيًا.

– إن كنتِ تشعرين بحالتك الخاطئة فاعلمي أنّ لديك تقدمًا روحيًا. وكلما شاهدتِ خطاياك بصورة أكبر، إقتنيتِ شعورًا أكبر بحالتك وتقدّمتِ.

– يارونداا! هل يمكن أن يدرك الإنسان خطأه ولا يتقدّم؟

– عندما يدرك الإنسان خطأه ويعود للسقوط مجدّدًا – غصبًا عنه – فهذا يدل على وجود الكبرياء، أو ميل نحو الكبرياء، وفي هذه الحالة فإن الله لا يساعده على التقدّم.

شعور الإنسان بحالته الخاطئة قوّةٌ كبيرة ودفعٌ معنوي: يشمئزّ من ذاته فيتواضع ويعزو كلّ عمل صالح إلى صلاح الله وإلى إخوته، فيشعر بعرفان جميل كبير. والله يحب الخطأة الذين يعترفون بحالتهم الخاطئة

ويتوبون متواضعين، وذلك أكثر من الذين يجاهدون دون اعتراف بحالتهم الخاطئة ودون توبة.

أن نطلب بتواضع رحمة الله من أجل تقويم نفوسنا

– يارونداا! يقول الآباء: «التوبة هي أن يقرِّرَ المرءُ عدمَ اقتراف الخطايا السابقة وعدم العودة إليها وأن يحزن من أجلها»، فهل يعني ذلك أن عليه أن يتذكّرَها دائمًا؟

– كلا! ليس المفروض أن يتذكر كلّ حالةٍ بمفردها. المقصود هو تَوَلُّدُ شعور إلهي بحالته الخاطئة. عليه أن يفكِّر بزلّته ومن ثم طَلَبُ رحمة الله بتواضع، وعندها يستجيب الله طِلْبَتَه. الأفضل أن ينسى خطاياه القديمة إذا كان رهيف الحسّ لأن أمرها قد سُوِّيَ بالتوبة والإعتراف. وقد يحاول الشيطان أن يذكِّره دائمًا بخطاياه القديمة لإرباكه وتبديد وقته وتشتيت فكره. أما الإنسان الذي لا يملك حسًّا مرهفًا، فإن عليه تذكُّر خطاياه القديمة ليتواضع ويمنع نُمُوَّ الكبرياء في داخله.

– يارونداا! أيمكن أن يشعر المرء بحالته الخاطئة وأن لا يكون لديه توبة؟

– نعم، قد يحصل ذلك إن لم يكن متواضعًا. عندما تتداخل الأنانيّة مع التوبة يفكّر الإنسان: «كيف فعلت هذا الأمر، كيف رآني الآخرون؟ أية فكرة يكوّنون؟» ويتعذّب. إن طَرْح الأسئلة: «كيف سقطت مجدّدًا؟ كيف وصلت إلى هنا؟» يدل على أنانيَّة وليس على توبة. ينبغي على الإنسان أن يفهم أنه أخطأ ويطلب

رحمة الله بتواضع. عليه أن يقول: «إلهي! لقد أخطأت، سامحني. إنني إنسان عتيق فارأفْ بي! إن كنتَ لا تساعدني فستَسُوءُ حالتي ولا أتقدّم. لا أستطيع بمفردي أن أتقدّم». وعليه أن يحاذر السقوط ثانية.

كثيرون أذنبوا وتألموا لأنهم جَرَحُوا الله، وليس لأنهم سقطوا في عيون الناس، فتقدَّسوا.

عندما يعيش المرء حياة عالمية ومن ثم يقطع علاقاته مع روح العالم، فإنه ينجذب من هذه الروح مرات كثيرة دون إرادته. ومع ذلك فإن عليه عدمَ الوقوع في الخيبة. إن التقدّم كامنٌ في بدء الاضطراب الحسن الذي يقوم على توبيخ النفس على الزلّات المقتَرَفة وعلى ما كان يتوجّب القيام به. وعندها يعرف قيمة النعمة الإلهية ويؤمن حقًا بما قاله الرب: «بدوني لا تستطيعون أن تعملوا شيئًا» (يو ١٥: ٥). إن كان يجاهد بتفانٍ وبشكل متواصل وبتواضع كبير واضعًا رجاءه على قدرة الله غير المحدودة، فإن الإله الصالح يرحمه.

الحزن على زلّاتنا

– يارونداا! كيف يمكن لإنسان أن لا يسقط مجدّدًا في الزلّة نفسها؟

– إن كان يتألّم فعلًا من أجل زلّة سقط فيها فلن يعود للسقوط مجدّدًا. الانسحاق الداخلي والتوبة الصادقة ضروريان لإحراز تقدّم. يقول الأنبا مرقس الناسك: «إن كان الإنسان لا يحزن حزنًا يناسب

زلّته، فإنه سيعود ويسقط ثانية في هذه الزلّة بسهولة ويُسْر». فالزلّة الصغيرة يلزمها توبة صغيرة، والعكس صحيح.

– كيف نفهم أننا لم نحزن حزنًا «يناسب الزلّة»؟

– الوقوع مجدّدًا في الزلّة نفسها هو البرهان القاطع. بوجود الميكروبات نتيجةَ فحوصاتٍ قمتِ بها تقولين: يجب قَتْلُ هذه الميكروبات؛ ولكنك لا تباشرين بأخذ العلاج المناسب. أنتِ مصابة بمرض وتتطلعين للشفاء منه وتقومين باستمرار بإجراء التحاليل اللازمة ولكن ذلك يبقى دون نفع إن لم تباشري بالعلاج. «لديَّ هوىً معين» تقولين، ولا تفعلين سوى النحيب. بذلك تستنزفين قواك وتصابين بالإرهاق وتمرضين من الحزن ولا تفعلين شيئًا. وعندما تتعافين تتساءلين لماذا مرضت؟ أنا لا أدعوك إلى عدم متابعة نفسك، كما لا أطلب منك أن تدعي زلّاتك تعبر دون انتباه أو توبيخ، وإنما أطلب منك أن تحزني إلى حد ما. عدم المبالاة ووجود حالة مثيرة للشفقة سيَّان. هل قمت بعمل غير سوي؟ هل فكرت به؟ هل رأيته؟ هل أدركته؟ هل اعترفت به؟ تقدّمي! إحفظيه في ذهنِك لكي تحترسي مرة أخرى إن مرَرْتِ بحالة مماثلة. الحزن وَحْدَهُ لا يجدي نفعًا. يجب أن يقترن بمحاولة الإصلاح. وكذلك البكاء باستمرار على مريض لا يجدي نفعًا إن لم نُؤمِّن له مساعدةً للشفاء.

– ياروندا! إن كنا نتألم حقًا من أجل زلّاتنا أفلا يدعونا ذلك إلى عدم الحزن؟

– كلا! يجب أن تحزني ويجب أن يتلاءَم الحزن مع الزلّة. إن لم تتألمي فستسقطين مجدّدًا في الخطأ نفسه. وإن قادك حزن التوبة إلى اليأس، فمعنى ذلك أنك حزنت أكثر مما يجب. امنحي نفسك شجاعة قليلة، وواجهي الزلّة بشيء من اللامبالاة الحسنة.

توبيخ الذات وليس عدم الرجاء

– ياروندا! هل من السهولة الشعور العميق بحالتنا الخاطئة؟

– إن اللهَ بدافع محبته لا يسمح في بداية حياتنا الروحيّة أن نشعر بحالتنا الخاطئة كي لا نتراجع إلى الوراء. هناك نفوس متفانية وحسّاسة لا تستطيع تحمُّلَ ذلك فتتأذى. ينزل غشاء على عيوننا فلا نرى كلّ ذنوبنا. على سبيل المثال قد يُوجَدُ في أكمامِنا جذوع أشجار فنحسبها أزهارًا. وعندما نسير قُدُمًا في الجهاد فإن الله يسمح لنا شيئًا فشيئًا بمشاهدة زلّاتنا ويمنحنا قوّة جهادية بغية إصلاحها. العمل الدقيق يؤذي في حال غياب الخبرة. سيَّان ما يحصل بالنسبة للشعور بإحسانات الله. إن شاهد الإنسان إحسانات الله في بداية حياته الروحيّة فسيُصاب بنزيف روحي. لأن المرء قد يتأذى عندما يشاهد إحسانات الله ويشعر بنكرانه للجميل.

– ياروندا! إني لا أشاهد زلّاتي وقلبي كالحجر.

– مرات كثيرة يسمح الله بذلك، لأن الشيطان قد يُلْقينا في اليأس. على الإنسان أن يفكّر بحالته الخاطئة بتمييز. فالتوبة التي يصاحبها القلق وعدم الرجاء ليست من الله؛ فالشيطان دسَّ ذيله فيها.

ينبغي على المرء الاحتراس، فقد يُمسِكه الشيطان من اليمين، من التوبة، ويلقيه في الشمال، في الحزن والخيبة، ويدفعه إلى الإرهاق النفسي والجسدي، وقد ينتهي به الأمر إلى جعله حطامًا. قد يقول له: «أنت خاطئٌ كبير ولن تخلص»، ويخلق له قلقًا ويأسًا عظيمين.

لا تسمحي للشيطان أن يفعل ما يشاء. عندما يقول لك: «أنت خاطئة»، قولي له: «وماذا يعنيك أنت؟ أنا أقرر متى أكون خاطئة وليس أنت».

– يارونداا! قد يشعر الإنسان بكآبة نفسيّة. ما سببها؟

– الكآبة والضغط النفسي سببهما تأنيبُ الضَّمير الناجم عن الحَساسيّة المُفْرِطَة. لذا يجب على الإنسان أن يلجأ إلى الأب الروحي طلبًا للمساعدة. فقد تكون زلّته صغيرة جدًا ولكن الشيطان العدو يضخِّمُها ويكبِّرها ليقودَه إلى اليأس والإحباط. وقد يدفعه إلى الحزن الكبير. لماذا لا يذهب الشيطان ويجرِّب ضمير إنسان غير حسّاس؟ على العكس، قد يجعل هذا الإنسان يعتبر زلّته الكبيرة زلّة تافهة.

يجب على الإنسان أن يعرف نفسه كما هي، وليس كما يُظهرها الشيطان؛ ويكفي الإنسان أن يتوب، لأن خطاياه أقل من خطايا الشيطان، ولديه مبرّرات كونُه جُبِلَ من تراب وقد ينزلق بسبب عدم الانتباه ويتمرّغ بالوحل.

يجب أن نُدِيرَ العَجَلَةَعلى عكس ما يشتهي الشيطان. إن قال لنا إننا عظماء، فَلْنُنَمِّ توبيخَ الذات. وإن جعلنا نكرة، فلنقل: «سيرحمني الله». وهكذا، فإن الإنسان الذي يتصرف بثقة ورجاء بالله يرتقي روحيًا وينال التوبة ويعرف التواضع.

– يارونداا! ألا يساعد توبيخ الذات في الجهاد الروحي؟

– يساعد، ولكن يلزمُه تمييز. قد يقول المرء عن نفسه: أنا مُغَفَّلٌ لكي يهزأ بالشيطان. ولكنه يقول هذا القول برجولةٍ وليس بتعاسة. من علامات النضج الروحي توبيخُ الذات والتمسّك بالرجاء، خيبة الأمل – بالمعنى الحسن– من الذات والأنا، ومواصلة الجهاد مع وضع الرجاء على الله والشعور بأن ما أقومُ به يزين «صفرًا». وعندما يرى الإله الصالح «صفر» صلاحي الطوعي، يرأف بي ويضع عددًا في بداية

الأصفار فتصبح أصفاري ذات قيمة وأغتني روحيًا. من داخل خيبة الأمل من نفسي المتواضعة تحتجب حالة روحيّة حسنة.

العمل الروحي من خلال عدسة مكبرة

– ياروندا! كيف يستطيع الإنسان أن يرى نفسه دائمًا على خطأ؟

– عندما يفحصها بانتباه؛ وبقدر ما يفحص نفسه بانتباه يراها خاطئة.

– كيف يمكن مساعدة إنسان ذي اهتمامات كثيرة للقيام بهذا العمل؟

– بتلاوة صلاة يسوع في منتصف النهار، وإيجاد بضع ساعات من الفراغ. فالبقّال يعدّ أمواله كلّ مساء كي لا يقع في الدَّيْن ويُزَجَّ به في السجن.

– ياروندا! كثيرون لا يعرفون ماذا يقولون في سر الإعتراف!

– هذا يدل على أنهم لا يشتغلون بدقّة على ذواتهم، وعندها تغيب الخطايا الثقيلة عن أنظارهم. ينبغي أن ننقّي عيون نفوسنا. فالأعمى لا يرى شيئًا على الإطلاق. أما ذو العين الواحدة فيرى الأشياء، ولكن صاحب العينين السليمتين القويتين يرى الأشياء بشكل أفضل. ومن يستعمل التلسكوب يرى بوضوح الأمورَ البعيدةَ والقريبة. باستطاعتي أن أحفُرَ إيقونةً خشبية في ثلاث ساعات؛ لكن إذا تركتها وعدت بعد بضعة أيام فسأجد فيها بعض العيوب. العمل نفسه قد أقوم به في أسبوع، أو في شهر، أو سنة، أو أكثر، بقدر ما أردته أن يكون دقيقًا، وقد أستعمل أيضًا عدسة مُكَبِّرة لملاحقة كلّ التفاصيل. ما أُريدُ قولَه

هو أن العمل الروحي ليس له نهاية. وبقدر ما يتقدَّم المرء روحيًا تتطهَّر عيون نفسه أكثر فأكثر، وهكذا يستطيع أن يرى زلّاته كلَّها وبوضوح أكبر، مما يحمله على التواضع أمام كثرة زلّاته فتحلّ عليه نعمة الله.

عندما كان القدّيسون يقولون: إنَّنا خاطئون بائسون، كانوا يؤمنون بهذا القول، لأن عيونَ نفوسهم أصبحت مِجْهرًا؛ فكلّما تقدّموا روحيًا ازداد المجهر دقّة وراحوا يرون الخطايا مهما صغرت؛ وهكذا يشعرون دومًا أنهم خطأة وبحاجة إلى نعمة الله، الساكنة فيهم، أكثر فأكثر.

أُشاهد يدي بعين مجردة فتبدو جميلة. ولكن إن شاهدتُها بواسطة عدسة مكبِّرة فإن الشَّعْرَ يبدو وكأنه نباتاتٌ صغيرة! أتساءل في نفسي هل أنا إنسان متوحش؟ أقصد بذلك، إن كنت أُصاب بالقرف من إنساني العتيق.

إنساننا العتيق هو مستأجر شرّير في داخلنا. ولكي نرتاح منه، يجب طردُه بهدم المنزل وبناء آخر جديد – «قد مضى القديم وها إن كلّ شيء قد تجدّد» (٢كور ٥: ١٧).

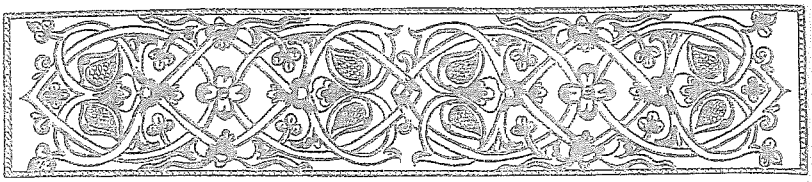

الفصل الخامس
التوبة تملك قوّة كبيرة

«فرجع إلى نفسه...» (لوقا ١٥: ١٧)

الله قريبٌ منا جدًا وفي الوقت نفسه عالٍ جدًا، وعلى الإنسان أن يتواضع ويتوب «ليشدَّ» الله، لينزلَ ويُقيمَ معه. وعندها، فإن الله الجزيل الرحمة يرفع هذا الإنسان المتواضع ويُغدق عليه كثيرًا من حبّه. «وهكذا يكون في السماء فرحٌ بخاطئ واحد يتوب» (لوقا ١٥: ٧) حسب قول الإنجيل.

لقد أعطى اللهُ الإنسانَ الضَّميرَ لكي يعي زلّاته ويتوبَ طالبًا المغفرة. غريب أمر الإنسان الذي لا يتوب. غبيٌّ هو الإنسان الذي لا يريد التوبة فيتحرّر من الجحيم الذي يعيش فيه والذي سيقوده إلى الجحيم الأبدي. وهكذا يُحرَمُ من الأفراح الفردوسية الأرضية والتي تستمر في الفردوس الأبدي بجانب الله وأفراحه العظيمة.

الإنسان البعيد عن الله يكون خارج نفسه. فالابن الشاطر رجع إلى نفسه وقال: «أقوم وأمضي إلى أبي» (لو ١٥: ١٨)، أي عندما صحا وتاب

قال: «سأعود إلى أبي». كان يعيش في الخطيئة وكان خارج نفسه؛ لم يكن واعيًا، لأن الخطيئة أبعدَتْه عن وَعْيِهِ.

– ياروندا! ماذا يعني قول الأبّا ألونيوس: «يستطيع الإنسان، إنْ أراد، أن يصلَ إلى قامة إلهية وخلال فترة قصيرة لا تتجاوز بُعد الصباح عن المساء. (ياروندا يكون الأبّا ألونيوس، ص٢٠).

– الحياة الروحيّة لا تحتاج إلى سنوات. بدقائق يستطيع المرء أن ينتقل من الجحيم إلى الفردوس، إذا تاب. والإنسان يتغير، فقد يصبح ملاكًا كما يصبح شيطانًا... آه ما سرُّ هذه القوّة التي تملكها التوبة! إنها تمتص النعمة الإلهية.

فكرٌ واحد متواضعٌ قد يكون سببًا لخلاص الإنسان. وفكرٌ واحدٌ متكبرٌ قد يكون سببًا لهلاكه. طبعًا يجب أن يرافقَ الفكرَ المتواضعَ تنهدٌ وانسحاقٌ داخليان. فالفكر هو فكر، إنما يوجد القلب أيضًا. «بكلّ نفسي وعقلي وقلبي» (قانون البراكليسي الكبير، القطعة الثالثة من الأودية السابعة) تقول الترتيلة.

أنا اعتقد أن الأبّا يقصد حالة مستمرة، فثمة حاجة إلى فترة زمنية كي يصل المرء إلى حالة حسنة. أخطأتُ، أتوبُ، فأُسامَحُ في تلك اللحظة. إن كنت أقتني روحًا جهادية أستطيع شيئًا فشيئًا أن أُرسِّخ حالةً كنت قَبْلَهَا متأرجحًا.

– ياروندا! أيستطيع إنسان كبير في السن أن يساعد نفسه روحيًا؟

– نعم! عندما يشيخ الإنسان تُعطى له إمكانيةُ التوبة نظرًا لغياب الأحاسيسِ الكاذبة. في البداية لم يواجهْ صعوباتٍ لأنه قويُّ البنية والجسد لا يعرف ضعفاته. الآن، وفي حالة الضعف ومواجهة الصعوبات، يتذمّر ويعرف أنه ليس على ما يرام، فيتوب. إن استغلَّ روحيًا ما تبقّى من سنيّ حياته، واستفاد من خبرة السنوات الماضية، فإن المسيح يرحمه ولا يتركه.

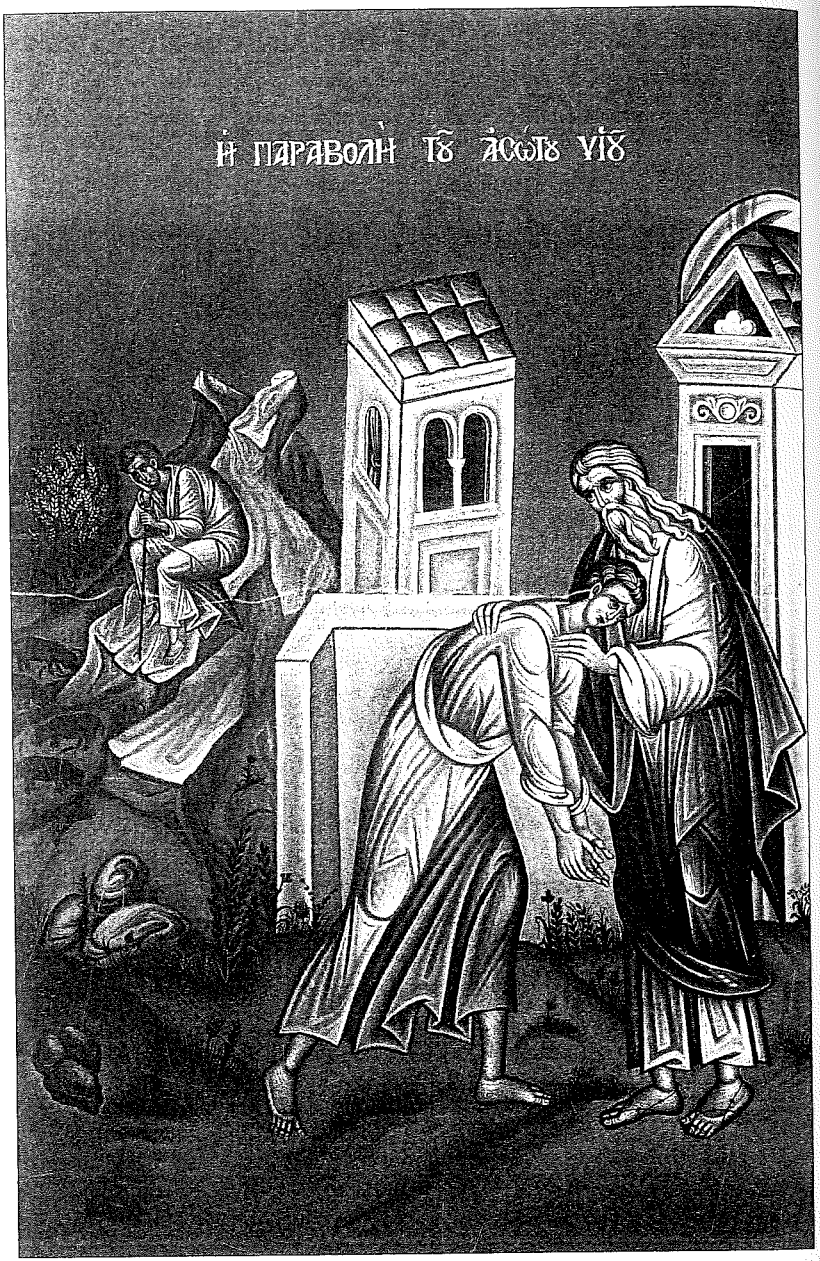

عودة الابن الشاطر (الضال)

دموع التوبة

التوبة هي معمودية الدموع. بالتوبة يعتمد الإنسان من جديد، ويُولَد من جديد. الرسول بطرس أنكر المسيح فخانه بطريقة ما، ولكنَّه «بكى بكاءً مرًا» (متى ٢٦: ٧٥) فنال الحل عن سَقْطَتِهِ. فتوبته الصادقة أعادت غسْلَه وتطهيرَه. أُنْظُرِي، الله أَبدعَ أولًا الأرض، والبحار، وكلَّ الخليقة، ثم جَبَلَ الإنسان من التراب، فوُلد الإنسان جسديًا أولًا، ومن ثم ولد روحيًا بالمعمودية بواسطة الماء الذي أبدعه الله، وأخيرًا بالروح القدس بواسطة النعمة الإلهية؛ وهكذا «من الماء والروح» (يو ٣: ٥) أصبح إنسانًا جديدًا.

– يارونداا! فكما أن اللهَ جَبَلَ الإنسانَ من التراب هكذا في المعمودية يستخدم الله الماء لِيُعِيدَ جَبْلَه!

– نعم! الماء يشير إلى النقاوة. ولهذا السبب يُغطِّسُ الكاهنُ المعمودَ في الماء ليُعادَ غَسْلُه من الخطيئة الجِدِّية ويتطهّرَ من خطاياه، وبالمسحة تظلله نعمة الله فيلبس المسيح ويصير فيه مولودًا جديدًا «من الماء والروح». وهذا ما قاله السَّيد المسيح بوضوح لنيقوديموس عندما سأله عن إمكانية ولادة الإنسان من جديد: «الحق الحق أقول لك: إن لم يُولدْ أحدٌ من الماء والروح فلا يقدر أن يدخل ملكوت الله» (يو ٣: ٥). لذلك بالمعمودية يكون الإنسان مخلوقًا كاملًا جديدًا، وهكذا يقتني نعمةً إلهية عظمى إن هو لم يلوّثْ معموديته المقدّسة. بعدها هناك معموديةُ التوبة. إن اعترف بزلّته وتألم من أجلها وتاب، فإنه يغْتَسلُ بدموع التوبة وتحلّ عليه مجدّدًا نعمة الله.

– يارونداا! مضت سنوات وأنا أبكي على خطيئة دون أن أذرفَ دمعة واحدة. فهل يدل هذا على عدم وجود توبة فعلية؟

– ألا تتألمين من أجل الخطيئة التي اقترفْتِها؟

– إني أتألم، وربما كان الألم سطحيًا.

– لا تُخرِجي استنتاجات من الدموع. طبعًا الدمعة ميزة من مميزات التوبة ولكنها ليست الوحيدة. البعض يبكي والبعض الآخر يضحك. أَلَمُ القلبِ والتنهدُ الداخليُ هما أرفع شأنًا من الدموع الخارجية. قال أحد الأشخاص: «كم أنا قاسٍ أيها الأب! إني لا أذرف دمعة واحدة. إن قلبي كالحجر». كان – لرهافة حسّه – يعتبر عدم بكائه قساوةً كبيرة. ولكن المسكينَ كان يتنهّدُ بعمق ويتأوّهُ من أعماق قلبه. في حين أن هناك من يبكي تارة ثم يضحك تارة أخرى فيكون مثلَ فصلِ الربيع. فإذا بكى لمشاهدته إنسانًا متألمًا ادّعى أنه يشارك الآخر آلامه! وإن ذرف الدموع أثناء صلاتِه برَّرَ ذلك بأن صلاتَه قد قُبِلت لأنها ترافقت مع دموع! وفي كلتا الحالتين يُريح نفسه وفكره، ولكن هل هذه هي دموعُ التوبة؟.

هناك دموعٌ لا عزاء فيها. إنها دموع شيطانيّة لا تعبِّر عن توبة، وإنما عن أنانيَّة ملموسة. يبكي الإنسان بأنانيَّة لأنه سقط. يحسّ بجرح لأنه سقط في عيون الآخرين وليس لأنه أحزن الله، وقد يتعذب عذابًا شديدًا.

في الحرب الأهلية اعتقل ضابطٌ من الثوار – عسى أن يمنحه الله توبة – رجلًا فقيرًا يُعيل عائلة مؤلفة من تسعة أفراد. انهال عليه بالضرب المبرِّح لأنه كان يخالفه الرأي السياسي. صرخ المسكين: «حسنًا ألا ترأف بي. لدي تسعة أولاد. ألا تذكر كيف كنت أحملك على ظهري؟ ماذا فعلتُ لك؟» ولكن هذا الكلام لم يجدِ نفعًا إذ راح الضابط يركل الفقير بقساوة دفَعَتِ أحد المرافقين إلى القول: «ماذا فعل بك هذا الإنسان الفقير؟» عندها راح الضابط يبكي متأثرًا من أنانيَّته. هذه

الدموع تشبه دموع يهوذا الذي أسلم المسيح ومن ثم مضى إلى الفريسيين قائلًا: «أنا رجلٌ خاطئ»، وطرح الفضة ومضى فشنق نفسه بسبب أنانيَّته (متى ٢٧: ٣-٥). يهوذا هذا كان بإمكانه أن يَخْلُصَ لو تاب ومضى إلى المسيح معتذرًا تائبًا طالبًا العفو.

العمل اليدوي الذي لا ينتهي أبدًا

– يارونداا! ما هو الفرح المحزن؟

– هو الفرح الناتج عن حزن لزلّةٍ من زلّاتنا. في الفرح المحزن ألم وفرح، لهذا قيل: فَرَحٌ مُحزِنٌ.

يحزَنُ الإنسان لتفانيه عندما يُحزِن المسيحَ ولكنه يفرح لشعوره بالتعزية الإلهية. عندما يتوب الخاطئ توبة صادقة فإن الله يسامحه، فيشعر عندها بتعزية إلهية ويصل إلى حالة من الابتهاج الروحي.

– يارونداا! هل يستطيع الإنسان الذي يجاهد أن يعيش حياته بالتوبة؟

– نعم. إن جاهد باستقامة يرى سقطاته فقط دون أن يرى تقدُّمَه، ويعيش عندها في توبة. لا يفطن أنه في البداية يحارب شيطانًا واحدًا وقد يتطوّر الأمر فيحارب ضد طُغمةٍ من الشياطين. فكلما بذل الإنسان جهدًا واقتلع هوىً واقتنى فضيلةً، اجتمعت جحافلُ الأعداء في محاولةٍ لِلنّيلِ منه. عندئذ يتقدم تقدّمًا إيجابيًا ولكنه لا يشاهد هذا التقدم، فيظن أنه لا يُحرز تقدّمًا، فيما هو يتقدم كونه يضاعف جهوده ويحارب عددًا أكبر من الشياطين.

التوبة هي عمل يدوي لا ينتهي أبدًا.

يبكي الناس أمواتَهم ويوارُونهم الثرى ومن ثم ينسُونَهم. أما خطايانا فسنبكي عليها دومًا إلى حين رقادنا؛ إنما على رجاء القيامة التي منحنا إياها المسيح بصلبه وموته.

تحوّلٌ في الحياة

لكي يتوقف الإنسان عن اقترافِ خطيئة عليه الابتعاد عن كلّ ما يثير هذه الخطيئة. فالسكّير مثلًا الذي يريد التوقف عن الشرب عليه محاذرةَ المرورِ من أمام حانة. يحاول بِنيّةٍ حسنةٍ والإله الصالح يساعده على تجاوز الصعوبات.

يحاول أحد الأشخاص التخلص من هوىً لديه فيجاهد من أجل قطعه ويتوب ويتواضع؛ يعلم الله بِنيَّتِهِ تلك فيساعده. أما من لا يقوم بمحاولة من أجل تغيير نمط حياته، ويستمر باقتراف الخطايا، فلن ينال نعمة الله؛ لأن هذه النعمة لا تأتي إلى حالة خاطئة (غير تائبة)، وإلا لكان الله أرسل نعمته إلى الشيطان.

الإنسان الذي لا يبقى في سقطته وفي أفكاره الخاطئة يتوب ويجاهد كي لا يسقط مجدّدًا في الخطيئة. هذا يتقبَّلُ نعمة الله وينال المساعدة. وفي غياب التوبة تتحول الحالة إلى حالة شيطانيّة إذ تصبح الخطيئة آنذاك موضة.

– ياروندا! كيف خَلُص أحد اللصَّين اللذين صُلبا مع المسيح؟

– ذاك صعد فوق الحائط ودخل إلى الفردوس. «توبة اللص اختلست الفردوس» (من كتاب المعزي، قياميات يوم الأحد، اللحن الأول) أي أنه بتوبته الكبيرة سرق الفردوس.

– ياروندا! إن غيَّر أحدهم نمط حياته وتخلَّص من عادته القديمة الخاطئة، ثم عاد وسقط في خطيئة قديمة فهل يعني ذلك أنه يفتقر إلى التوبة؟

– نعم، إن كان يقوم بما يتوجب عليه قيامه وسقط، فإن لديه بعض المبرّرات. في البداية ليس الأمر سهلًا. لكنه عندما يفهم حقًا جَسامةَ الأمر الذي قام به فلن يعود إلى السقوط مجدّدًا.

قديمًا كان هناك توبة صادقة. وعندما يتوب أحد الأشخاص كان يَثْبُتُ ولا يعود القهقرى. أتذكَّر إحدى النساء التي ساعدتني بتوبتها الحقيقية. لم تكن تتكلم بسبب خجلها الكبير. لبست الثياب السوداء تشبّهًا بالراهبات وراحت تهتم بإشعال قناديل إحدى الكنائس. عندما كنتِ تشاهدينها، فإنك تُحُسِّين بشعور غريب يُنعِشُك روحيًا.

أما اليوم فإن الذين يغيِّرون نمط حياتهم يلعبون دور المعلِّم، الذي يُلقي الدروسَ على الآخرين، فيما يحتفظون في داخلهم بذواتهم القديمة.

في التوبة والابتعاد عن الحياة الضالة والبدء بالعيش روحيًا مساعدةٌ إيجابية للآخرين. أما الانتقال فورًا إلى الوعظ والإرشاد، وكأن هذا الإنسان صار إنسانًا روحانيًا جديدًا، فمسألة فيها نظر ولا تخلو من ضلال.

– ياروندا! هل ما يقوم به هؤلاء يهدف إلى مساعدة الآخرين؟

– نعم. إنهم يقومون بذلك من أجل مساعدة الآخرين. ولكن وراء عملهم فكرُ كبرياءٍ يشدُّهم إلى طلب الشهرة العالمية. من هنا تفهمين كم هم غارقون في الضلال. إن كانوا حقيقة يشعرون بزلّاتهم فعليهم أن يحترسوا وأن يتذكروا هذه الزلّات وتكون لديهم الشجاعة لطرد الأفكار – أفكار الكبرياء – والتحلّي بالتواضع والاشمئزاز من كلّ الأمور القديمة، وبذلك يتغيّرون روحيًا. أما المحافظة على بعض الأمور

الحياتية القديمة واعتبارها أمورًا حسنة، فإن ذلك يُبعد مساعدة الله ويمنع النقاوة أن تتربَّع على عرش القلب.

– ياروندا! عندما يغيِّر المرء نمط حياته، هل يجب عليه الاهتمام بالأفكار التي كوَّنها الآخرون عنه؟

– لن يحاول بأنانيَّة إصلاحَ أفكار الآخرين. إن تَطلَّع إلى إصلاح أفكاره وتقويمها فسيُبْطِلُ أفكار الآخرين حتمًا. إن بقي ذكرُ حياته الخاطئة في المجتمع أو المحيط الضيّق فإن تصرفه الحسن كفيل بِطَمْس معالِمِه وإطفائه. وعندها يتكلم الله بواسطة توبته.

«خطيئتي أمامي فيَّ كلّ حين» (مز ٥٠: ٣)

– ياروندا! هل من المفيد تسجيل الخطايا لكي لا ننساها فنحتفظ بها إلى حين الإعتراف؟

– عندما أَتألم حقيقة من أجل زلَّة اقترفْتُها فإني لا أستطيع نسيانَها؛ أتذكَّرُها بصورة دائمة وتتألم روحي ويؤنّبني ضميري. وكلّما طالت الفترة التي تفصلني عن الإعتراف بها، تشتعِلُ الزَلَّة في داخلي فأوبِّخ ذاتي. صحيح أنني أتألم، ولكنني أنتظر مكافأةً مناسبةً من الله. أما إذا اقترفتُ زلَّة ونسيتها فإني لا أشعر بتوبيخ أو تأنيب أو ألم؛ ولهذا السبب فإن الكثيرين يضحكون عند توجيه ملاحظة حول اقترافهم زلَّة وفي ذلك لا مبالاة ووقاحة. هل تذكرين قول داود: «لأني أعترف بإثمي وأحترز من خطيئتي» (مز ٣٨: ١٨) و«خطيئتي أمامي في كلّ حين» (مز ٥٠: ٣). لقد سامحه الله، ومع ذلك وبسبب تفانيه فإنه يتألم ويتقبّل بصورة متواصلة التعزية الإلهية.

بعض الناسَ يضيِّعُون بالتحليل النفسي الذي يقومون به. يسجِّلُون ذنوبهم ويقومون بعمل دقيق كأن يمرِّرونها بالمصفاة فيصابون بالإرهاق. لو أمسك هؤلاء أخطاءَهم الكبيرة – كلَّ واحدة على حدة – وجاهدوا من أجل تقويمها لاخْتَفَتِ الذنوبُ الصغيرة.

– يارونداا! إن كان إنسانٌ يمجِّد الله ولا يعيش في التوبة، فهل يقبل الله هذا التمجيد؟

– كلا! وكيف يقبل الله هذا التمجيد؟ الإنسان بحاجة إلى توبة. ماذا سينفعه قولُ: «المجد لك يا مظهرَ النور»، وهو غارقٌ في الخطيئة؟ الشيء الوحيد اللائق والنافع هو قول: أشكرك يا إلهي لأنك لم تُنزِلْ عليَّ صاعقةً وتحرقني. ففي هذا الكلام توبةٌ صادقة.

التوبة الاضطرارية

– يارونداا! يكتب الأنبا اسحق: «كلّ توبة كُرْهِيّةٍ لا يتدفَّقُ منها الفرح لا تُحسَبُ أهلاً للمكافأة». كيف يمكن للمرء أن يتوب توبة كُرهية؟

– قد يضطر المرء أن يتوبَ كونُه سقط في عيون الآخرين. ولكنَّ توبته تفتقر إلى التواضع.

– إذًا هل هناك توبة خارجة عن إرادتنا؟

– نعم. إنها توبة اضطرارية. أي إني أطلب منك المغفرة، عن شرٍّ فعلتُه بك، تهربًا من النتائج دون أن أتغير داخليًا. الإنسان الشيطاني يَدَّعي التوبة ويَمضِي بخُبْثٍ يضرِبُ مطانياتٍ بصلاحٍ مزيّف لكي يُضِلَّ الآخرين. وقد يذهب أحدهم إلى الأب الروحي ويعترف بخطاياه خوفًا من الذهاب إلى الجحيم. هذه أو تلك ليست من التوبة.

التوبة الحقيقية هي أن يشعر الإنسان بِذَنْبِه، أن يتألم، أن يطلب الصفح من الله، أن يعترف أخيرًا. عندها تَحُلُّ عليه التعزية الإلهية. لذلك أنصح دومًا بالتوبة والإعتراف ولا أنصح بالإعتراف فقط.

عند حدوث زلزال قوي، يُلاحَظُ أن ذوي النوايا الحسنة يرتعدون ويتوبون ويغيّرون نمط حياتهم. أما الغالبية العظمى فإنها تُبدي تأثرًا آنيًا لحظة وقوع الزلزال، ثم تعود مجدّدًا إلى حياتها بعد انتهاء الخطر. لذلك عندما يُخبرني أحدهم أن زلزالًا حدث في المدينة التي يسكن فيها أسأله: «هل شعرتم باهتزاز قوي، هل أيقظَكُم الزلزال من النوم؟» وعندما يجيبني: «نعم لقد أيقَظَنا»، أقول له: «ولكنكم ستعودون مجدّدًا إلى النوم».

التوبة تجلب التعزية الإلهية

– يارونداا! ما هي التعزية الإلهية؟

– ما هي التعزية الإلهية؟ سأضرِبُ لك مثلًا يساعدك على فهم ذلك بصورة أفضل.

يرتكب ولدٌ مخالفةً صغيرة، كأن يكسر غَرَضًا لأبيه، فيحزن ويبكي معتبرًا ذلك مخالفة كبيرة. وكلما ازداد بكاءً وألمًا وإقرارًا بالمخالفة ازدادت ملاطفةُ أبيه له وتعزيتُه: «حسنًا يا بُنَيَّ لا تحزن. لا بأس سنشتري بديلًا عن المكسور». وبسبب تفاني هذا الولد الذي يُكبِرُ محبةَ والده له يزداد بكاؤه قائلًا: «أنت محتاجٌ الآن إلى هذه الأداة وأنا كسرتُها». فَيُفهِمُه والده أن الأداةَ قديمةٌ وليست بذاتِ قيمة ويقرِّبه منه ويضمّه إلى صدره ويلاطفه ويُقَبِّله.

وهكذا، بقدر ما يتألمُ الإنسان ويحزن من حالته الخاطئة أو نكرانه للجميل ويبكي بتفانٍ كونُه أحزن اللهَ بخطاياه، فإن اللهَ يكافئه بالتعزية الإلهية ويمنحُه سلامًا داخليًا. هذا الحزن فيه ألم، وفيه رجاء وتعزية أيضًا.

من يُرِدِ التعزية الإلهية لا يطلبُها. عليه أن يشعر بِذنْبِه وأن يتوب، وعندها تَحُلُّ التعزية الإلهية من تلقاء ذاتها.

ذات مرة، أُثِير موضوع في الجبل المقدّس واتُهم البعض بإثارته. التقيتُ صدفة مع أحد هؤلاء فبادرني قائلًا: «كنت أبحث عنك طالبًا رؤيتَك لتعزيتي». فقد وبَّخه أحد الأشخاص بقسوة وكان الحق بجانب الآخر. أُصبتُ بالحيرة عند سماعه: يطلب التعزية وهو مخطئ. كان عليه أن يتواضع قائلًا: «إلهي لقد أخطأت»، وعندها تحلّ التعزية الإلهية في داخله. كان يريدني أن أقول له وهو الخاطئ: لا تحزن، لم يكن ذَنْبُكَ كبيرًا، لا يقع اللوم عليك فقط، وإنما على الآخر أيضًا. ليكن مفهومًا أن هذا الكلام ليس تعزية، فالتعزية الإلهية تأتي من التوبة.

– يارونداا! إن كانت حالة من التوبة تتولد بعد سقطة وعندها يشعر الإنسان بتهشّم روحي وجسدي، فهل يعني ذلك أن التوبة غير صحيحة؟

– قد يكون ذلك مبرَّرًا في اليوم الأول. ولكن عند وجودِ توبةٍ حقيقية فإن الحزنَ والتألمَ الداخليَّ يهيّئان الطريق للتعزية الإلهية.

– نعم، لكنه لا ينسى خطأه.

– نعم، إنه لا ينساه. يحزن فيتعزّى، يصفعُ ذاته للزلّة التي اقترفها فيتقبّل فرحًا من الله. هذه هي التوبة التي تجلب التعزية الإلهية.

القسم الرابع
قوات الظلام السوداء

«قوات الظلام السوداء هي عديمة القوّة. ولكن الناس يجعلونها قوية بابتعادهم عن الله، لأنهم بذلك يعطون حقوقًا للشيطان.»

دير ستوميو – كونيتسا

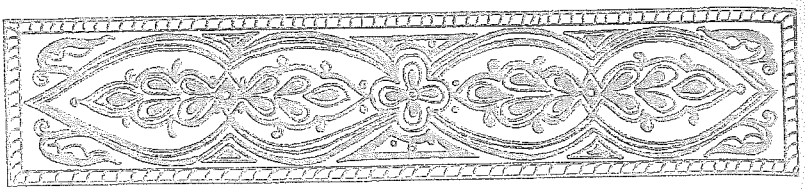

الفصل الأول

السِّحر

كنتُ قد حدثتكنّ مرارًا عن الفردوس والملائكة والقدّيسين، وها أنا الآن سوف أحدثكُنَّ قليلًا عن الشياطين والجحيم في محاولة لمعرفة العدو.

جاء إلى القلّاية شاب ساحر من الثيبت (thibette) وأخبَرني الكثيرَ عن حياته. هذا الشاب تركَهُ والدُه وهو في الثالثة من عمره مع مجموعة من ثلاثين ساحرًا ليتعلَّمَ مهنَتَهُم. وصل إلى الدرجة الحاديةَ عشرةَ وهي الدرجة التي تسبق الدرجة الأعلى. في سن السادسة عشرة غادر التيبت وانتقل إلى السويد لرؤيةِ والده. هناك التقى صدفةً كاهنًا أرثوذكسيًا ورعًا وطلب أن يتناقش معه.

لم يكن يعلم شيئًا عن ماهية هذا الكاهن الأرثوذكسي فجلسا ليتناقشا. بدأ الشاب يمارس بعض الأعمالِ السِّحرية في محاولة لإظهار قوَّته. دعا رئيسًا من الشياطين يُدعى مينا وقال له: «أُريد ماءً». وللوقت

صعد كوبٌ من المطبخ، ومضى من تلقاءِ ذاتِه إلى حنفيّة الماء فَفُتِحَت، وامتلأَ الكوب الذي اجتاز الفاصل الزجاجي المقفل ودخل الغرفة، وتقدم من الشاب الذي أخذه وأفرغ ما فيه من ماء في جوفه.

بعد ذلك تابع الشاب ألعابَه السِّحريةَ فأظهرَ للكاهن الكونَ كلّه والنجوم والسماء في فضاء الغرفة. كان يتدرَّج في أعماله السِّحْرية محاولًا الوصولَ إلى الدرجة الحادية عشرة. سأل الكاهن عن هذه الأمور وكيفية رؤيته لها. «كنتُ مستعدًا، قال، أن أقتل هذا الكاهن لو سوَّلت له نفسُه شَتْمَ الشيطانِ وسَبَّه». لكن الكاهن لاذ بالصمت. عندها قال له الشاب: «لماذا لا تُظهِر لي بعض الأعمال الخارقة؟» أجابه الكاهن: «إلهي هو إلهٌ متواضع»، وأخرجَ صليبًا صغيرًا وقدّمه إليه ليضعه في عنقه وقال له: «قمْ مُجدَّدًا بأعمالك». دعا الشاب الشيطانَ الرئيس، مينا، فلم يتجرّأ على الاقتراب وراح يرتجف خوفًا. دعا إبليس فلم يُلَبِّ النداء عندما شاهد الصليب. عندها قال إبليس للشاب: «قم وامضِ إلى التيبت». راح الشابُ يشتم الشيطان وينعَتُه بالضعف رغم قوّته الكبيرة.

انتقل الكاهن بعدها إلى وعظ هذا الشاب وراح يحدّثه عن الأراضي المقدّسة والجبل المقدّس... غادر الشاب السويد ومضى إلى أورشليم حيث شاهد النور المقدّس، وسافر إلى أميركا ليدحضَ الأمور الشيطانيّة التي عرفها. وقد صار هذا الشاب أفضلَ كارزٍ بالإلهيات واستقرّ أخيرًا في الجبل المقدّس.

إن هذا الشاب قد ظُلِم منذ صغره. صَلِّيْنَ لأجله لأن السَحَرَةَ يحاربونه بمؤازرة الشياطين. وقد قاموا بمحاربتي عندما حاولت تقديم المساعدة له. تلا عليه الكهنة صلاة الاستقسامات وانفتحت يداه

وسال منهما الدم. عانى بعدها كثيرًا من الشياطين، التي كانت على علاقة جيدة معه، فلم تزعجه وها هي الآن تحاربه بلا هوادة.

عليه أن يحترس، فالإنجيل يخبرنا أن الروح النجس عندما يخرج من الإنسان «يذهب حينئذٍ ويأخذ معه سبعة أرواح آخرين أخبث منه فيدخلون ويسكنون هناك، فتكون أواخر ذلك الإنسان شرًا من أوائله» (متى ١٢: ٤٥).

استعمال السَحَرة «المقدّسات» مختلفة

– من هم الرُقاة (جمع راق).

– هم سَحَرة يستخدمون مزاميرَ داود وأسماء قدّيسين ويضيفون عليها ابتهالات شيطانيّة. فكما نلتمس معونة الله ونقتبل النعمة الإلهية عند تلاوتنا المزامير، هكذا فإن هؤلاء السحرة بالطريقة التي يتبعونها يشتمون الله ويرفضون النعمة الإلهية، فيحقّق لهم الشيطان رغباتهم.

مضى شاب إلى ساحر طالبًا منه تحقيق شيء معين. قرأ له الساحر مقطعًا من المزامير وحقّق له رغبته. بعد فترة زمنية قصيرة بدأ الشاب يضعف ويهزل. ماذا فعل به الساحر؟ تناول بعض الفاكهة المجففة وبدأ بتلاوة المزمور الخمسين. وعند وصوله إلى العبارة: «الذبيحة لله...» رمى الفاكهة المجفّفة مقدمًا التضحية إلى الشياطين لكي يحقّقوا له رغبته. لقد شتم الله بواسطة المزامير.

– ياروندا! كثيرون ممن يتعاطون بأعمال السحر يستخدمون الصليب والإيقونات...

– نعم. أعلم هذا الأمر. من هنا يجب أن تفهمي الخداع الذي وراءه يستترون ويخدعون الناس المساكين الذين يرون أنهم يستخدمون شموعًا وإيقونات، وينتهي الأمر بهم إلى الوثوق بهم. في إحدى المدن وضعت امرأة تركية إيقونة العذراء فوق صخرة وقالت: «الصخرة التي تساعد العالم». لم تقل العذراء وإنما الصخرة. والمسيحيون ينخدعون لأنهم يشاهدون إيقونة والدة الإله، وبعضهم يقصد ذلك المكان في محاولة للشفاء من مشاكل صحيّة ولكن الشيطان يتربّص بهم ويسحقهم.

فعندما تقول المرأة التركية: «إن الحجر يساعد العالم»، فإن الشيطان يتدخّل في الصميم لأن في ذلك ازدراءً للعذراء. تبتعد نعمة الله وتبدأ الأعمال الشيطانيّة ويُسرع المسيحيون لينالوا الشفاء من الصخرة فيعانون، إذ أية مساعدة يمكن تلقيها من الشيطان؟ لو فكّروا قليلًا لقالوا: «إنها امرأة تركية ومسلمة فأي عمل لديها مع إيقونة العذراء؟ وأية علاقة تربط هذه المرأة المسلمة بوالدة الإله؟» ألم يسمع هؤلاء المسيحيون قول المرأة: إن الصخرة هي التي تساعدهم؟ من هنا وجب على المتروبوليت اتخاذ الإجراءات الكفيلة بحماية هؤلاء الناس.

– يارونداا! إن الناس يطلبون منا «حجابًا»!!

– الأفضل أن تقدِّمن لهم صلبانًا صغيرة. لا تقدمن حجابًا لأيّ طالبٍ فالسَحَرَةُ يفعلون ذلك أيضًا. يضعون من الخارج إيقونات وصلبانًا وفي الداخل كتابات سحرية مختلفة. وقد ينخدع الناس بمرأى الصلبان والإيقونات.

قبل بضعة أيام حصلتُ على حجاب من إنسان تركي مطرز بالصليب من الخارج. وسمعت عن إنسان آخر غير تقي يلفّ إيقونات صغيرة مختلفة تحوي شَعْرًا وقطعًا خشبية ودبابيس وخرزًا. وعند استجوابه

من قبل الكنيسة برَّر أعماله بكونه «وسيطًا» (medium)، و«الوسطاء» يتمتّعون بحرية العمل، وهكذا يفعل ما يشاء.

طلبت من أحد الأشخاص الذي أُصيب بأذى منه أن يذهب ويعترف. ولما فعل ذلك عاد وقال بأنه لم يَحِسّ بأي فرق. عندها طلبت منه التحقّق من عدم وجود شيء في ثيابه من ذلك الساحر الضال. ولما أخرج من ثيابه علبة صغيرة تشبه إنجيلًا صغيرًا، فتحتُها ووجدتُ فيها خَرَزًا ودبابيس وخشبًا وشَعْرًا. وعندما رميتها تحرّر ذلك الإنسان. كم هو ماهر ذلك الشيطان!

يعتقد بعض المساكين أن الحجاب يساعدهم فيتعذبون. هذه الحُجُب ينبغي إحراقها وطمر رمادها، أو رميُها في البحر. وبعد ذلك عليهم بالإعتراف وبذلك يتحرّرون من رباط السحر.

جاء إلى القلّاية شاب يعاني من مشاكل خطيرة وكان يتعذّب جسديًا وروحيًا لأكثر من أربع سنوات. عاش حياة خاطئة وأخيرًا انزوى في منزله منغلقًا على نفسه ورافضًا رؤيةَ إنسان. إثنان من أصدقائه كانا يترددان على الجبل المقدّس، أقنعاه بعد جهد كبير بالقدوم معهما إلى الجبل المقدّس وزيارة القلّاية. أثناء الرحلة كان الشاب ينهار ويسقط على الأرض في كلّ مرة يرسو فيها المركب على رصيف دير. كان صديقاه والشيوخ والآباء الموجودون في المركب يُعيدون إليه وعيه ويرفعون صلاة يسوع. بعد رحلة شاقّة وصلوا إلى القلّاية. فتح المسكين قلبه وأخبرني قصة حياته. رأيت أنه يتعذب بتأثير شيطاني. اقترحت عليه الذهاب إلى أحد الآباء والإعتراف وتنفيذ ما يقوله له وسيتعافى. مضى واعترف. عندما دخل المركب ليعود إلى موطنه أخبر صديقيه أن الأب الروحي أمره برمي حجاب كان يلبسه وقد أعطاه

إياه أحد معارفه. لم يستطع الشاب تنفيذ هذا الأمر ولبث صامتًا كالصنم على رغم توسلات صَدِيقيه. ساءت حالة الشاب ولم يعد يقوى على النهوض. عندها أمسكه الصديقان وأخرجاه بعد عناء كبير إلى ظهر المركب، وهناك تمّ التخلص من الحجاب ورميه في البحر بمساعدة الصَدِيقين. وللحال شعر بتحرّر وقوّة وراح يقفز من الفرح، وعادت إليه قوّته وحيويّته.

الذين يتعاطون السِّحر يكذبون كثيرًا

– يارونداا! هل يعرف السَحَرة بعض المعلومات؟

– أنهم يتلَقّون المعلومات من الشياطين. وعليكنّ أن تحترسن في المضافة. يجب فحص الوضع ومعاينة الناس الذين تَسْتَقْبِلْنَهُم فقد يكون بينهم من يتعاطى السِّحر. هل هذا الطلب يبدو مثيرًا للاستغراب؟

في إحدى السهرانيات، وفي هذا المكان بالذات، جاء شخصان يتعاطيان السِّحر. اقتربا من الناس وقالا لهم أمورًا مختلفة ولفَّقا الأحاديث وادّعيا أنهما على علاقة مع كانديوتي. قالا لإحدى النسوة: «لقد فعلوا بكِ أمورًا سِحرية، سنأتي إلى منزلك وفكّ رباط السحر الذي يقيّدك بواسطة صليب نملكه». يخدعون الناس بقدومهم إلى السهرانيات ويظهرون لهم وكأنهم مؤمنون فيفتح لهم البسطاء قلوبهم.

كيف يخدعون الناس بالأكاذيب التي يتفوهون بها. لكي يُغْوِي أحد الشبان فتاة قال لها: «لقد رأى الأب باييسيوس حلمًا بأنني سأتزوجك. تناولي هذا الشيء والبسيه ولا تسألي عن أمره

ومصدره». وقدَّم لها شيئًا. ولكن الفتاة لم تلبثه لحسن الحظ وقالت: «عجبًا! هل ينشغل الأب باييسيوس بهذه الأمور؟» ثم كتبت لي رسالة قاسية تصفني فيها بأبشع النعوت وتكيل لي فيها الشتائمَ القاسية. أجبتها: «أُشْتُميني، المهمّ أنك لم تنخدعي وتلبسي هذا الشيء الشيطاني».

– يارونداا! هل كانت تعرفك؟

– كلا لم تكن تعرفني، كما أنني لم أكن أعرف الشاب.

الأعمال السِّحرية الشيطانيّة

– يارونداا! ماذا قلت للتلاميذ الذين أتوا اليوم وقالوا لك إنهم يستدعون الروح؟

– ماذا قلت لهم؟ لقد وبّختُهم بقسوة لأنَّ ما قاموا به هو مناقض للإيمان. فمنذ اللحظة التي يستدعونَ فيها الشيطان ويقتبلُونَه يُنكِرون الله. لذلك قلت لهم: «عليكم أولًا أن تعترفوا بصدق وتتوبوا ومن ثم أن تحترسوا. عليكم ثانيًا ارتياد الكنيسة وتناول الأسرار المقدّسة ببركة أبيكم الروحي لتتطهروا».

كانوا صغار السن لذلك فإن لديهم بعض المبرّرات. ولو كانوا أكبر سنًا لحدث لهم شر كبير وتسلّط عليهم الشيطان.

– يارونداا! ماذا فعل هؤلاء بالضبط؟

– ما قام به كثيرون... وضعوا على طاولة كوبًا من ماء وحوله حروف الأبجدية: أ، ب، ت، ث... غمّسوا أصابعهم في الماء واستدعوا الروح أي الشيطان. دار الكوب وتوقف أمام حروف

كوّنتْ كلماتٍ. عندما استدعوا الروح سألوه عند مجيئه: – هل الله موجود؟ – كلا إنَّهُ غيرُ موجود. – هل الشيطانُ موجود؟ – نعم إنه موجود. حماقة من العيار الثقيل: الله غير موجود والشيطان موجود! وعندما كرَّروا سؤالَهم عن وجود الله أجابهم: نعم الله موجود. مرة «نعم» ومرة «كلا» حتى وقع الأولاد في التساؤل فقامت فتاة من الموجودين وكسرت الكوب. لقد سمح الله بذلك ليعود الأولاد الآخرون إلى رُشْدِهِم.

كثيرون اليوم ممن يريدون أن يفعلوا شرًا بأحد الأشخاص يلجأون إلى السَّحَرَة الذين يستخدمون دُميةً من شمع ويجعلون من هذا الأمر لعبة.

– يارونداا! ماذا يفعلون؟

– يصنعون دمية من شمع؛ وعندما يسألهم أحد الأشخاص إيذاء شخص عدو في عينيه يتناولون إبرة ويغرزونها في عينيّ الدمية ذاكرين اسم الشخص الذي يريدون إيذاءَه ممارسين بعض الأعمال السِّحرية. إذا كان هذا الشخص المقصود يعيش حياة خاطئة ولا يمارس سرّ الإعتراف، فإن عينيه تتأذيان من جراء التأثير الشيطاني. يتألم هذا الشخص ويحسّ وكأن عينيه تكادان تخرجان من محجريها. يلجأ إلى الأطباء الذين يكتشفون أنه سليم معافى.

أما «الوسطاء» (mediums) (الذين يتعاطون الكتابة المُشعوذَة، ربطها أو حلّها، ويكونون وسطاء يعملون لصالح الشيطان والغاية هي تجارية) فيجمعون الأموال من الناس ويدمّرون العائلات. يمضي مثلاً أحد الأشخاص إلى «وسيط» ويشكو له مشكلةً تُؤَرِّقه. يجيبه «الوسيط» قائلًا: «إنتبهْ إن إحدى نسيباتِك السمراء والطويلة القامة قد مارست عليك

سحرًا». عندها يروح الشخص يفتش عن نسيبة له تتحلى بهذه المواصفات فيجد واحدة على شبه كبير بها فيصرخ: «هذه هي التي سَحَرَتني»، ويحقِدُ عليها، ويشعر بكره شديد نحوها ويرفض رؤيتها وهي لا تعلم شيئًا مما يحصل. يعود لرؤية «الوسيط» الذي يقترح عليه فكَّ رباط السحر مقابل كمية من المال. يُسرع الشخص إلى توفير مبلغ كبير يعطيه «للوسيط» مكافأة له لأنه وجد السبب. أرأيتِ ماذا يفعل الشيطان!

أما الإنسان الصالح فلا يتَّهمُ فلانًا بأنه تسبب له بالأذى إنما يحاول مساعدتَه ويقترحُ عليه الإعتراف، وهكذا يتساعد الاثنان ويتوب الذي تسبب بالأذى للآخر عندما يرى تصرفه الصالح معه.

لا يستطيع الشيطان أن يصنع خيرًا أبدًا

– يارونداا! أيستطيع ساحر أن يشفي شخصًا مريضًا؟

– ساحرٌ، ويشفي شخصًا مريضًا؟ إن كان المريض يعاني من شيطان، فإن الساحر يستطيع بسبب شراكته مع الشيطان أن يُرسل هذا الشيطان إلى شخص آخر قد يكون أحدَ أنسبائه أو أحدَ معارفه. أما الذي كان مسكونًا بالشيطان فيُشفى ويعزو سبب شفائه إلى الساحر الذي تَطِيرُ شهرتُه.

أُخبرتُ عن امرأة تشفي المرضى مستخدمة أشياء مقدَّسة مختلفة. وعندما عرفت طريقة تصرفها معهم دُهشت من مهارة الشيطان. كانت تحمل صليبًا وترتل بعض الطروباريات. ترتل مثلًا: «افرحي يا والدة الإله العذراء»، وعندما تصل إلى «مباركةٌ ثَمَرَةُ بطنك» تبصق قرب الصليب وتجدِّف على المسيح فيهرع الشيطان لمساعدتها. وهكذا

فإن المرضى المصابين بالكآبة، بسبب تأثير شيطاني، يُشفَون بفضلها بعد أن يكون الأطباء قد عجزوا عن ذلك؛ وما ذلك إلا لأنها تطرد الشيطان وترسلُه إلى شخص آخر فيتحرَّرُ عندها من الحزن والكآبة. وكان كثيرون يعتبرونها قدّيسة ويستشيرونها وكانت بذلك تسيطر عليهم وتؤذي نفوسهم وتحطمها.

يجب الاحتراس والابتعاد عن هؤلاء السحرة كما يبتعد الإنسان عن الأفاعي. الأمور لا تحتمل تشويشًا. لا يستطيع الشيطان أن يصنع خيرًا. فقط المرضى الذين تسبَّبَ هو نفسُه بمرضِهم يستطيع شفاءَهم.

سمعت الحادثة التالية: أقام أحد الشبّان علاقة مع ساحر وتورّط معه بالأعمال السِّحرية. أُصيب بأذى، مرض وانتهى به الأمر إلى المستشفى. لم يُعرف سببُ مرضه، فراح أبوه يُنفق عليه الأموال الطائلة لأشهرٍ، دون جدوى، إذ ساءَت حالته ونفض الأطباء أيديهم منه. عندها تدخَّل الشيطان وظهر للمريض بهيئة يوحنا المعمدان شفيعِ البلدة وقال له: «سوف أُبرِئُك شَرط أن يُشَيِّدَ والدك كنيسة تحملُ اسمي». أخبرَ الشابُّ أباه الذي أبدى استعدادًا كبيرًا لتقديم كلّ ما بحوزته مقابلَ شِفاءِ ابنه، ونَذَر أن يبني كنيسةً للقدِّيس يوحنا المعمدان. تعافى الشاب إذ غادَرَهُ الشيطان، وتمت الأعجوبة... عندها وجد الأب نفسه مضطرًا لإيفاء نِذْرِه، فباع الأراضي التي يملكها وراح يعمل على بناء الكنيسة ولم يعد يملك شيئًا. ساء الأمرُ أَولادَه الذين تذمروا وألقوا اللَّوم على الأرثوذكسية والتحقوا بجماعة شهود يهوه. أرأيتِ ماذا يفعل الشيطان. لقد دبَّر لشهود يهوه موطئَ قدمٍ في هذه المنطقة.

متى يكون للأعمال السِّحرية تأثير

– ياروندا! هل يكون للأعمال السِّحرية تأثير دائم؟

– لكي يكون للأعمال السِّحرية تأثير، يجب على المرء أن يُعطي حقوقًا للشيطان: أي أن يعطي سببًا مهمًا لا يتمُّ إصلاحُه بالتوبة والإعتراف.

بالنسبة لإنسان يعترف، فإن الأعمال السِّحرية مهما تكاثرت فإنها لن تؤثِّر عليه؛ لأنه باعترافه ونقاوة قلبه لا يُفسِحُ المجال للسَحَرَة بإيذائه ولو تعاونوا مع الشيطان.

حضر إلي القلّاية شاب في مقتبل العمر. عندما شاهدتُه من بعيد فهمتُ أنه واقع تحت تأثير شيطاني. قال لي: «جئت طلبًا للمساعدة. صلِّ من أجلي فأنا أُعاني منذ سنة تقريبًا آلامًا حادة في الرأس ولم ينفعْ علاجُ الأطباء». أجبته: «لديكَ شيطانٌ لأنك أعطيته حقوقًا». «لم أفعل شيئًا»، أجاب. «أما خدعتَ فتاةً، قلتُ له؟ لقد مضَتْ وسلَّطتْ عليك سِحْرًا. إذهَبْ واطْلُبْ منها المغفرة، وامضِ واعترف واطلبْ تلاوةَ صلوات طرد الشياطين لكي تتعافى. إن لم تعترف بذَنْبِكَ وتعلنِ التوبةَ، فعبثًا تحاول إخراج الشيطان وإبعاده حتى ولو اجتمع كلّ الآباء الروحانيين وصلّوا لأجلك».

يجبُ التحدّث بصراحة مع أمثال هؤلاء وزعزعتهم، قَصْدَ إعادَتِهِم إلى صوابهم.

رجل آخر ادّعى أن زوجتَه مسكونةٌ بالشيطان، فهي تُحدث الفوضى في المنزل بصورة مستمرة وتصرخ في المساء وتقلب كلّ شيء رأسًا على عقب. سألته: «هل تمارسُ سرَّ الإعتراف؟» «كلا»، أجابني. عندها أفهمته أن أمورًا كهذه لا يمكن أن تحدث فجأة، فلا بد أن يكون هذا الشخص قد أعطى حقوقًا للشيطان. وبعد البحث والتحري، عَرَفْنَا أن

هذا الشخص كان قد قصد شيخًا مسلمًا وأعطاه شيئًا ليَخِيْطَهُ فيضعَه في المنزل ويكونَ جالبًا للحظ ولم يعطِ هذا الشخص للأمر أهمية. من هنا تسلَّل الشيطان إلى بيته.

كيف ينفكّ رباط السحر

– ياروندا! كيف يَنْفَكُّ رِباطُ الأعمال السِّحرية؟

– بالتوبة والإعتراف. على الإنسان أن يفتشَ عن السبب الذي مكَّن الساحر من التأثير عليه، ثم عليه أن يفهم ذَنْبَهُ ويتوبَ ويعترف. كثيرون هم المعذَّبُون الذين يقصدون القلَّاية طالبين المساعدة – من خلال الصلاة – للتحرّر من عذاب التأثير الشيطاني. يطلبون المساعدة دون أن يفتشوا عن جذور الشرّ في نفوسهم. لذا عليهم أن يعرفوا سبب وقوعهم تحت تأثير السحر وما هو الذَنْبُ الذي اقترفوه، ومن ثم التوبة والإعتراف لتتوقفَ عذاباتُهم.

– ياروندا! عندما يعجز الإنسان عن مساعدة نفسه والتخلص من معاناة التأثيرات السِّحرية، هل يستطيع طلبَ المساعدةِ من الآخرين؟

– يستطيعُ الآخرون تقديمَ المساعدة من خلال استدعاءِ كاهن إلى المنزل وتلاوة صلاة تقديس الماء. بعدما يطلبون من الشخص المعذَّبِ أن يشرب قليلًا من هذه المياه فينحسرُ الشرُّ ويدخلُ المسيح إلى داخله. هكذا فعلت أمٌّ من أجل مساعدة ابنها. قالت إنَّ ابنها يُعاني كثيرًا من جراء تأثيرات سحرية. نَصَحْتُها بأن تُقنع ابنَها بممارسة سرّ الإعتراف. تساءَلت كيف يمكنه الذهاب والإعتراف وهو على هذه الحالة؟ اقترحتُ عليها أن تطلب من الأب الروحي الحضور إلى المنزل

وتلاوةِ صلاةُ تقديس الماء وإعطاء إبنها بعضًا من هذا الماء المقدّس ليشرب. فَعَلَتْ كما قلتُ لها فتعافى إبنها بعد فترة زمنية، إذ استطاع أن يعترف وباعترافه طرد الشيطانَ بعيدًا.

امرأةٌ أخرى مسكينة أقام زوجها علاقةً مع بعض السَحَرَة ولم يُرِدْ أن يلبس صليبًا. خاطت المرأة صليبًا صغيرًا وعلّقته على سترة زوجها. وفيما هو منصرف إلى الضفّة الأخرى من النهر بعبور جسرٍ سمع صوتًا يدعُوه إلى خلع قميصه وعبور الجسر. من حسن الحظ أن الطقسَ كان باردًا فلم يخلَعِ السترةَ. عاد الصوت يُلحُّ عليه بخلع سترته، ولكن الزوج رفض التنفيذ. حاول الشيطان طرح الزوج في النهر ولم يستطع فألقاه في زاوية على الجسر. راح ذووه يبحثون عنه الليل بطوله فوجدوه ملقى على الجسر. لو لم يكن الجو باردًا لخلع الرجل سترته واستطاع الشيطان طرحه في النهر. لقد حماه الصليب الموجود على طية قُبَّتِهِ. لقد كانت زوجتُه المسكينة مؤمنةً.

التعاون المشترك بين السَّحرة والشياطين

– يارونداا! ألا يستطيع إنسان قدِّيس أن يكشف ساحرًا أو أن يوقفَه عن أعماله السِّحرية؟

– كيف يوقِفُه؟ تطلبين من شخص أن يخاف الله ويحترس، إذ بحسب نمط عيشه لا يسير سيرًا حسنًا، فلا يرعوي! فكيف يكون إذًا موقف ساحر يتعاون مع الشيطان؟

ماذا بإمكانكِ أن تفعلي له؟ مهما قلتِ له سيدير لك ظهره ويمشي مع الشيطان. عندما تكونين وجهًا لوجه أمام ساحر وتبدأين بالصلاة فإن الشيطان يرتبك ولا يستطيع الساحر أن يقوم بعمله.

عانى أحد الأشخاص من مشكلة. مضى ساحرٌ محتال كبير إلى منزله مدّعيًا المساعدة. كان ذلك الشخصُ بسيطًا فلم يعلمْ أَنَّ ذلكَ الإنسانَ كان ساحرًا، لذلك تدخّل الله وحماه، وحدث ما لم يكن بالحسبان. لقد انقلبت الآية، إذ رُبط الساحرُ من الشياطين وطلب المساعدة من الإنسان البسيط الذي جاء لحل مشكلته.

– ياروندا! هل شاهد ذلك الإنسان الشياطين؟

– كلا! شاهدَ الحَبْلَ. صرخ الساحر طالبًا النجدة. وقع على الأرض وراح يتقلب واضعًا يديه على رأسه من أجل حمايته. لا تظني أَنَّ السحرة يعيشون حياة مطمئنّة وأن الشياطين يحققون لهم رغباتهم في كلّ حين. أَن يُنكرَ السَحَرَةُ المسيحَ مرة واحدة أمرٌ كافٍ للشياطين. في البداية يعقد السحرة اتفاقية مع الشياطين للمساعدة وقد يساعد الشياطين هؤلاء السحرة لأعوام عديدة. ولكنهم في النهاية يقولون لهم: «الآن سنتسلّى بكم». وخاصة عندما لا ينجح السَّحرة بتحقيق رغبات الشياطين.

هل تعلمين مقدار معاناتهم لاحقًا؟ أتذكّر ذات مرة أَنَّني كنت أتحدث مع ذلك الشاب الساحر القادم من التيبت. رأيته يقف فجأة ويمسك بيديّ ويرجعهما إلى الخلف قائلًا: «فليأت الحاج أفندي ويحرّرك». صرخت في وجهه: «اذهب من هنا يا شيطان»، وطرحته أرضًا. حاول أن يضربَني بِرِجْلِه فلم ينجح فقد توقفت رجلُه أمام فمي. لقد حماني الله. تركته ودخلت إلى القلّاية. بعد فترة قصيرة رأيته عائدًا وقد انغرز الشوك في أنحاء جسده. «لقد قاصصني الشيطان – قال لي – لأني لم أغلبك فدفعني إلى الغابة».

قوات الظلام السوداء عديمة القوّة. الناس هم الذين يجعلونها قوية بابتعادهم عن الله لأنهم بذلك يعطونها حقوقًا.

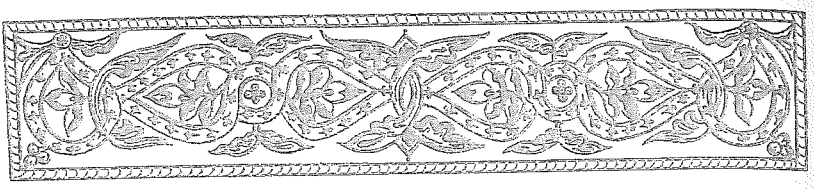

الفصل الثاني
في ما يختصّ بالمسكونين من الشياطين

يا روندا! ما عدد الشياطين التي سكنت في إنسان كورة الجَدَريِّين؟ (لو ٨: ٢٦)

– «شياطين كثيرون» يقول إنجيل لوقا (٨: ٣٠) لهذا قال ذلك الإنسان إن اسمه «لجيئون» [فرقة عسكرية رومانية قوامها ستة آلاف جندي]. فكما أن إنسانًا فيه شيطانٌ تستطيع مجموعة من الشياطين أن تسكن فيه، هكذا أيضًا فإن قلب المؤمن يتسع لكلّ القدّيسين. إن قلبًا يسع المسيح ألا يستطيع أن يَسَع القدّيسين؟

ذات مرة كنتُ في قلّاية الصليب الكريم. سمعت قرعًا للجرس. تطلعت من النافذة فإذا بي أشاهد إنسانًا يتقدّم من القلّاية وخلفه سربٌ من الشياطين السُود. كانت المرة الأولى التي أرى فيها عددًا كبيرًا من الشياطين يسيطر على إنسان. كان هذا الشخص «وسيطًا»

مزج الصلوات الكنسية مع الابتهالات الشيطانيّة، والكتب المسيحية مع الأمور السِّحرية، ومن ثم تسلطت عليه الشياطين. حزنت كثيرًا لحالته.

بعض أطباء النفوس يعتبرون المسكونين من الشياطين مصابين بمرض نفسي. أما بعض الكهنة فيعتبرون المرضى النفسانيين مسكونين من الشياطين، وهنا يجب الفصل بين الاثنين، فيذهب المرضى النفسانيون إلى مكان والمسكونون من الشياطين إلى مكان آخر. فهل يستطيع الطبيب النفساني أن يساعد إنسانًا فيه شيطان؟

– ياروندا، هل يستطيع الإنسان المسكون من الشيطان أن يفهم سبب مَسِّه الشيطاني؟

– نعم يستطيع أن يفهم، إلا إذا كان يعاني من خلل في عقله فعندئذ تصعبُ مساعدته. يجب على المسكون من الشياطين أن يُطِيعَ ليحصل على المساعدة.

جاء مرة إلى القلَّاية شخص من جنوب اليونان أصيب بمسّ شيطاني لدى وجوده في الهند. كان يغضب فيُرغِي ويُزبِدُ ويتفوهُ بالشتائم. نصحتُه بعدم التفوّه بالشتائم لأنه بذلك يستدعي الشياطين، فلم يعتبرْ. من ناحية أخرى كان يطلب مني مساعدته لأنني – برأيه – الوحيد القادر على ذلك. شرحت له أن المساعدة تكمن في الصلاة ليتحرَّرَ بنعمة المسيح؛ فكيف يتم ذلك وهو يستدعي الشياطين! طلبت منه الذهابَ والإعترافَ وتلاوةَ صلاةِ الاستقسامات فرفض الذهاب؛ طلبت منه الدخول لأمسحه بزيت القنديل فرفض. كان يُلّح فقط على المساعدة. في إحدى اللحظات وبينما كنت أُبلِّغ مجموعة من الأشخاص أن الله قد يسمح بالتجارب من أجل خلاصنا صرخ قائلًا: «لماذا تقول

ان الله يعمل لخلاص البشر؟ لدينا أب في السماء وآخر على الأرض ولدينا رئيس [الشيطان] أعلى منهما». نَهَرْتُه قائلًا: «توقف عن هذه الأمور الشيطانيّة»، وبدأتُ بالصلاة. بدا مرتبكًا فدفعتُه مُبعِدًا إياه وراح يتدحرجُ كالكرة. وقف وسألني: «أنت مع من؟» أجبته: «مع المسيح»! صرخ قائلًا: «أنت تكذب. لست مع المسيح. فأنا هو المسيح وأنت تضرِبُني». كان الشيطان يُظهر له الأمور مقلوبة.

– هل كان الشيطان يتفوَّهُ بهذا الكلام؟

– نعم، ولكن الله منح هذا الرجل القوّة والشجاعة ليأتي إلى الجبل المقدّس من الطرف الآخر من اليونان. وهذا أمر عظيم! ولكن المؤسف أن الرجل لم يصغِ ولم يُطِعْ، فساءَت حالته ولم يَنَلِ المساعدة المطلوبة.

علاقة الكبرياء الشيطاني بالمسّ الشيطاني

المتكبر يتخبّط في الظلام. يقترفُ أخطاء ثقيلة ولا يفهم ماذا يفعل. يملك عقلًا متمردًا ويشبه الدخانَ المتصاعد.

اعترف أحد الأشخاص بأنه يحب الجميع بمن فيهم الشيطان لأنه ليس شرّيرًا. «ماذا تقول – أجبتُه – لو ترك اللهُ للشيطانِ الحريةَ الكاملة لأوردَنَا كلَّنا مَوْرِدَ التهلكة. مَن عايَنَ فَرَحًا من الشيطان لتعاين أنت ذلك؟» لقد أغلق الرجل النوافذَ وسدَّ الأبواب بحيث عاش في ظلام دامس لا يسمع ولا يصغي ولا يحاول أن يفهم. ويدّعي أن الآخرين يحاولون قمعه! أهذا قمع؟ كيف يمكن إخراج هذا الفكر (من رأسه)؟ إنه ليس مجنونًا فعقله يشتغل ولكن ما يقوله هو نكران وتجديف.

هكذا يَصِلُونَ شيئًا فشيئًا إلى عبادة الشيطان. عَبَدَة الشيطان يسيطر عليهم الشيطان، يستغلّون الموسيقى الشيطانيّة لقيادة الأولاد الصغار المساكين، وقد وصلوا إلى حد استدعاءِ الشيطان وتمجيده، «نحن نكرِّسُ أنفسَنا لك أيها الشيطان». شيء مخيف!

– إذًا يا روندا! أيمكن للكبرياء أن تقود إلى المسّ الشيطاني؟

– نعم. لنفترضْ أن أحدَ الأشخاص أخطأ وبرّر ذاته. إن حاول الآخرون مساعدته، ادّعى أنهم يظلمونه فيدينهم لأنه يعتبر نفسه أفضل منهم. بعد ذلك يبدأ بالحكم على القدّيسين بادئًا بالجدد ثم بالقدماء. ثم يتوسّع فيشمل بانتقاداته المجامع المسكونية والطريقة التي اتخذوا بها القرارات. وينتهي به الأمر إلى التشكيك بتصرف الله متسائلًا: لماذا فعل الله الأمر على هذا الشكل؟ عندما يصل به الأمر إلى هذا الحد يعني أنه ليس مجنونًا بل هو مصاب بمسّ شيطاني.

جاء إلى القلّاية أب يرافقه ابنه، المسكون بشيطان، يقول إنه إله. كان هذا الأب قد قصد أحد الآباء الروحيين خارج جبل آثوس الذي انتابه الذعر من أن يهجم عليه الشيطان فاكتفى بمباركته. من ثم قال الإبن لأبيه: «سوف ترى أن الأب بابيسيوس يقبل أني إله»، ووضع رهانًا ماليًا على ذلك. بدأت أصلي المسبحة فانتصب واقفًا وصرخ: «ماذا تفعل؟ لقد اقترفتُ كلّ الخطايا ولدي شيطانٌ في داخلي وقد تألّهت. يجب أن تعترف بي إلهًا. أنت لا تفعل شيئًا سوى اللعب بحبات هذه المسبحة». تضايقت بعد سماع حديثه وتفوُّهِهِ بأحاديث سخيفة ثقيلة. طردته بعد أن وبخته بقسوة. غضب وانفعل وتحوّل إلى حيوان ضار وأخرج الأموال من جيبه ورماها أرضًا واعترف بخسارة الرهان.

المسكونون من الشياطين يقاومون أي شيء مقدّس

– ياروندا! كيف يمكن التمييز بين مريض نفسي ومريض بمسّ شيطاني؟

– هذا الأمر يستطيع أن يميّزه طبيب نفسي بسيط تقي. فالذين يعانون من الشياطين يرتجفون عند اقترابهم من شيء مقدّس. وهكذا ينكشف أمرهم. إن أعطيْتِهم ماءً مقدّسًا، أو رسمتِ عليهم إشارة الصليب ببقايا مقدّسة، يُبدون مقاومة؛ والعكس صحيح، إن كانوا يعانون من مرض نفسي. في إحدى السهرانيات، التي كانت تقام في الجبل المقدّس، أخبرني الآباء عن ظَنِّهم برجل علماني تسكنه الشياطين. جلستُ في الكرسي المحاذي له وجعلت صليبًا فيه ذخيرة من الصليب الكريم يلمسه من فوق. انتفض ونهض وجلس بعيدًا. عندما فرغت الكنيسة – أو كادت – من العلمانيين مررت بجانبه فانتفض ونهض، ففهمت أن به شيطانًا.

عندما يجلبون إلى القلّاية أولادًا يُشكّ في موضوع مَسِّهم من الشيطان كنت ألجأ إلى طريقة محدّدة للتأكد من ذلك. أُخبّئ في يدي جزءًا من رفات القدّيس أرسانيوس الكَبّادوكي وأغلق يديّ الاثنتين. فالولد المسكون من الشيطان يتطلع بخوف وهلع إلى اليد التي تحمل الرفات. وإذا لم يكن مسكونًا من الشيطان فلا ينفعل مطلقًا. تارة أقدّم لهم ماءً غطَّستُ فيه الصليب المقدّس أو شيئًا من الأزهار والحبق أو العطر الذي نحتفظ به من زيّاح عيد الصليب أو الجمعة العظيمة، أو غصن زيتون من أحد الشعانين. فالذين لديهم شيطان لا يشربون ويبتعدون.

ذات مرة قدّمت إلى ولد بعض الحلوى ومن ثم أعطيته من هذا الماء ليُطفئَ عطشه. بعد أن شرب قليلاً راح يصرخ قائلاً: «هذا الماء يحرقني ماذا وضعتَ فيه؟» «لا شيءَ أَجَبْتُه». أصرَّ على الصراخ والقول: «إنه يحرقني». أفهمته عندها أن الماء لا يحرقه وإنما يحرق شخصًا آخر ورسمت على رأسه إشارة الصليب فانتفض كورقة في مهبّ العاصفة وأصيب بنوبة شيطانيّة وراح يتدحرج كالكرة.

أتذكرين ذلك التلميذ الذي جاء إلى هذا المكان قديمًا؟ قال لي: «لديَّ شيطان في داخلي يعذّبني كثيرًا. إني أعيش حياة استشهادية بسبب الشياطين لأنهم يجبرونني على التفوّه بكلمات بذيئة. أنا يائس، فالشيطان يضغط علي في أنحاء مختلفة من جسدي». أردتُ تعزيته بسبب رَهافةِ حسّه، فأفهمتُه أن الشيطانَ الذي يعذبه ليس في داخله وإنما تأثيره من الخارج. ذهبنا إلى الكنيسةِ فطلبت من الأخوات أن يُصَلِّين من أجل جِبْلَةِ الله البائسة. ثم أخذت من الهيكل جزءًا من رفات القدّيس أرسانيوس واقتربتُ من التلميذ وكررتُ عليه السؤال: «في أي موضعٍ يضغط عليك الشيطان؟ أين تظن أنه يوجد؟» فأشار عندها إلى جَنْبِهِ؛ جعلتُ راحة يدي فوق الموضع الذي حدده فراح يصرخ بصوت عال: «أنت تحرقني! أنت تحرقني! لن أخرج...» صرخ، شتم، تفوه بكلمات بذيئة. فرحت أصلي: «أيها الرب يسوع المسيح أطرد الروح النجس من جِبْلَتِك». وفي الوقت نفسِه أرسمُ إشارة الصليب بالبقايا المقدّسة. استمرّ الوضع على ما هو عليه لمدة عشرين دقيقة، خَبَطه بعدها الشيطان وأوقعه أرضًا، فراح يتدحرج وامتلأت ثيابه من الغبار. ساعدناه على الوقوف. كان يرتجف ويتشنَّج بقسوة. كان يجري من يديه، وهو مستند على الأيقونسطاس، عرق بارد. بعد فترة هدأ وتعافى بعد مغادرة الشيطان. وهو الآن بخير.

لا أهمية لكلام المسكونين من الشياطين

– يارونداا! هل يجب التنبّه عند الحديث مع إنسان مسكون بشيطان؟

– علينا أن نصلي وأن نعامله بصلاح.

– يارونداا! هل يتذكّر المسكونون من الشياطين ما يتفوهون به خلال النوبات؟

– البعض يتذكر والبعض الآخر ينسى. ونحن لا نعلم كيف يشتغل الله. فقد يسمح الله للمسكونين أن يتذكروا ما تفوهوا به ليتواضعوا ويتوبوا. عندما يطلب المسكون من الشيطان شيئًا، فليس من السهل أن يميز المرء متى يكون من الشيطان ومتى تكون الحاجة نابعة من الشخص عينه.

التقيت في أحد الأمكنة بفتاة فيها شيطان وأصيبت بمسّ شيطاني بعد أن آمنت ببعض الأمور التجديفيّة. فجأة استبدَّ بها الشيطان وراحت تصرخ: «إني احترق! إني احترق!» كان ذووها يحاولون إمساكها لأَرسُمَ إشارة الصليب عليها. بعدها صرخت: «ماء! ماء!» فأمرتُ بإحضار الماء. صرخ الأهل: «كلا! كلا! علينا أن لا نطيع الشيطان». «الفتاة المسكينة عطشى، أحضروا لها ماءً»، فأنا أستطيع أن أميّزَ بين حاجة الجسد وطلبات الشيطان. شَرِبَتِ المسكينة كوبين من الماء وقالت: «لديّ جمرٌ متّقد في داخلي، فأنا أشعر بهذا اللهيب ودلوٌ من الماء لن يطفئ النار الملتهبة في داخلي».

– يارونداا! كيف يمكن أن نميّز بين إنسان يتكلم انطلاقًا من حاجة معينة وبين إنسان يتكلم الشيطان بواسطته؟

– انظري إلى الشفتين. فالشيطان عندما يتكلم لا تتحرك شفتاه طبيعيًا وإنما كالآلة. أما إذا تكلم الإنسان فإن شفتيه تتحركان طبيعيًا. عندما يصرخ إنسان به شيطان، عندما يصلّي الآخرون أو عند تلاوة صلاة طرد الشياطين، فإن نفسَ الإنسان هذا تتعذب وتأمر الشيطان بالمغادرة وعدم البقاء. أو قد يحدث أن الشيطان يشتم الإنسان أو الكاهن أو يجدّف على المسيح ووالدة الإله والقدّيسين. وأحيانًا يتفوه بأكاذيبَ أو بأمور روحيّة، كما يُجبَر أحيانًا على قول الحقيقة بقوّة اسم يسوع.

إنها أمور مُشَوَّشة. ولكن عليك التنبُّه عند الحديث مع إنسان مسكون بشيطان. لا تعطي أهمية لكلماته ولا تقومي باختبارات مع الشيطان ولا تؤمني بكلامه لئلا تضلّي.

في أحد الأديار جاؤوا مرة بشخص فيه روح شرّير. طلب رئيس الدير من الآباء أن يذهبوا إلى الكنيسة ويصلوا صلاة المسبحة. كان لديهم جمجمة القدّيس برثانيوس أسقف لمبساكن. كلَّف رئيس الدير راهبًا كاهنًا من أجل تلاوة صلوات الاستقسامات. هذا الكاهن كان تقيًا في الظاهر ولكنه متكبِّر، تكونت في نفسه مشاعر كاذبة أنه هو الأفضل في الدير، فهو متعلم يقدّم النصائح الروحيّة، مجاهد يُمضي حياته بانتظام، موقَّرٌ يحترمه الآخرون ويخجلون من توجيه الملاحظات إليه. انتهز الشيطان الفرصة في ذلك اليوم ليوقع به شرًا فاستخدم خبثه ليُوهم الأب الراهب أنه هو الذي يطرده. حين بدأ الأب الراهب بتلاوة الصلاة بدأ الشيطان بالصراخ: «إني أحترق! لماذا تطردني أيها العادم الرأفة؟» ظنّ الراهب أن الشيطان يحترق بفعل صلواته فخاطبه قائلًا: «تعالَ إليّ»، كما سبق وفعل ذلك القدّيس برثانيوس. لقد حاول

الراهب أن يتشبّه بالقدّيس برثانيوس فأصيب بمسّ شيطاني وتسلَّط عليه الشيطان منذ تلك اللحظة، فعاش في شقاء دام سنين عديدة لم يذق فيها طعمًا للراحة. كان يدور في الجبل المقدّس يعاني من تعب جسدي وقلق نفسي ورجفة. أرأيتِ ماذا يفعل الشيطان؟ لقد حوَّله من كاهن صالح إلى مجرد شقي تعيس يتخبَّط في بحر القلق والحزن والتعب. (على من يتلو الاستقسامات أن يتذلل كثيرًا ويتواضع ويعترف بخطاياه قبل كلّ شيء، ويتَيقَّن أَنَّ القوّة الطاردة للشيطان كامنة في كلام الكنيسة الذي كتبه الآباء وليس بفضل صلواته، وإلا يَهلَك من يُقدم على شيء مثل ذلك من تلقاء نفسه).

– يارونداا! هل من علاقة بين القهوة وردّات فعل إنسان مسكون بشيطان؟

– عندما يكون الجهاز العصبي معتلًا ويُكثِرُ الإنسان من شرب القهوة فإن أعصابَه تزداد اضطرابًا فيستغلُّ الشيطان هذه الحالة. هذا لا يعني أن القهوة شيءٌ شيطاني، ولكنَّ الشيطان يسلّط تأثيره على الأعصاب فيُصدر المسكون من الشرّير ردّاتِ فعلٍ تزداد سوءًا.

مساعدة المسكونين من الشياطين

– يارونداا! ذُكر في بعض الكتب أن الشيطان يعشّش في قلب المسكون؛ ولكنه لا يريد أن يعرف الإنسان هذا الأمر كي لا يحاربه بالصلاة، فهل هذا صحيح؟

– نعم. لأن الشيطان يملك الحقّ أن يسكن داخل الممسوس لفترة زمنية محدّدة محاولًا الاختباء. إذ أن الصلاة تضغط عليه وتدفعه إلى

الخروج. فالصلاة سلاح فعّال، مِدفعٌ من العيار الثقيل ضد الشيطان.

جاؤوا إلى القلّاية بشاب فيه روح نجس وكان يردّد باستمرار صلاةَ يسوع. كان أبوه راهبًا فخلع ثوبَه الرهباني وتزوج فوُلد هذا المسكين مسكونًا من الشيطان. – لقد دبَّر الله هذا الأمر لينال الولد أجرًا ويَخْلُصَ الأب، ولكي يكون الرهبان الذين يخلعون أثوابهم الرَّهبانيّة مثالًا لنا نحن الرهبان الذين نكبَحُ جَماحَ نفوسنا، فلا نُقْدِمُ على شيء مثل ذلك بل نظل صابرين – في إحدى اللحظات استبدّ به الشيطان فراح يُقَوقِئُ كالدجاجة بصوت عال. قلت له: «ماذا أصابك؟» في الوقت الذي كنت فيه أصلي بذهني: باسم يسوع المسيح أُخرُجْ أيها الروح النجس من جبلة الله. صرخ الشيطان عندها: «أنا أريد أن أخرج، فهذا الإنسان يعذّبني كثيرًا لصلاته المستمرة المتواصلة. أريد الذهاب إلى باكستان طلبًا للراحة».

– يارونداا! لماذا لم يخرج الشيطان رغم صلوات الصبي المتكررة؟

– يبدو أن الصبي قد أعطى بعض الحقوق للشيطان.

– يارونداا! ما هي الصلاة التي يجب أن تُتلى على إنسان فيه شيطان؟

– يجب أولًا أن يُمَجَّد الله: «أشكرك، إلهي، لأنك تساعدني، إذ من الممكن أن أكون مكانه فتسكن فيَّ ربواتٌ من الشياطين، أتوسلُ إليك أن تساعد جِبْلَتَك المعذّبة كثيرًا». في البداية تُرفَعُ صلاةٌ قلبيةٌ ومن ثم تتواصل الصلاة: يا رب يسوع المسيح ارحم عبدك.

مرّات كثيرة، عندما نصلّي نعزو السبب الرئيسي في عدم خروج الشيطان من الممسوس لأننا نصلي بكبرياء. فإذا فكّر أحدنا قائلًا: «بصلاتي سأُخرج الشيطان»، فإن المساعدة الإلهية تنتفي ويبقى الشيطان.

علينا أن نصلي من أجل المسكونين بتواضع وانسحاق ومحبة. لقد تألمتُ كثيرًا من أجل إحدى المسكونات من الشيطان. وافقتِ المسكينة على أمر، وقالت «نعم» للشيطان، فعانت عذابًا مخيفًا دام سنواتٍ عديدةً. كان جسدها يحترق، وكانت تدور على الأديار مع زوجها وابنتها البالغة من العمر ستَّةَ عَشَرَ عامًا. كانوا يحضرُون السهرانيات ويَقْضُونَ الليل بطوله في الكنيسة. لو كانت رجلًا لضممتها إلى صدري، فالشيطان يتعذب كثيرًا عندما نضمُّ المسكونين من الشياطين إلى صدورنا بمحبة إلهية. عندما لا تعاكسين الشيطان أو تثيرينه فإنه يغادر لفترة طويلة. فالتواضع هو الصدمة القوية التي تهزّ كيان هذا الشيطان.

في أحد الأديار، وفيما الحاضرون يسجدون للبقايا المقدّسة، اندفع من بين الحضور شخص به شيطان وخاطب رئيس الدير بلهجة قاسية عدائية: «هل ينبغي أن نسجد بالقوّة؟» أجابه رئيس الدير بتواضع وصلاح: «كلا، ليس بالقوّة إنما بمحض إرادتك». حينئذٍ صرخ ذلك الإنسان: «أنا بالقوّة سأسجد»، وهكذا كان. أرأيتِ؟ شعر هذا الشيطان بضغط كبير من جراء تواضع رئيس الدير وصلاحه. الشياطين تخاف من هذا التواضع.

– يارونداا! هل يجد المسكونون عونًا من القدّيسين عندما يَحُجُّون في أيام تذكاراتهم؟

– من الأفضل أن لا يذهب المسكونون من الشياطين إلى الأعياد منعًا للفوضى وزرع البلبلة في نفوس المؤمنين. فليذهبوا في يوم آخر للزيارة والسجود.

من الخطأ اجتماع الناس عند سماعهم شخصًا مسكونًا من الشيطان يصرخ. فقد يصبح هذا الشخص أضحوكة، من هنا صراخ أحدهم:

«لماذا اجتمعتم حولي على غرار نَورَسِ الماء، انصرفوا فلسنا هنا في سِيرْك».

– ياروندا! هل تساعدُ المناولةُ المقدّسةُ المسكونينَ من الشياطين؟

– المناولة المقدّسة المتواترة هي الدواء الشافي للذين وُلِدُوا ممسوسين كونُهم غير مذنبين. وأَجْرُ هؤلاء عظيم عندما لا يتذمّرون حتى يتحرّروا بنعمة الله. هم شهداء إن تحلوا بالصبر، لذلك وجب عليهم أن يتناولوا الأسرار المقدّسة بصورة دائمة.

أما الشخص المصاب بمسّ شيطاني ناجم من عدم الانتباه، فإن عليه أن يتوبَ ويعترفَ ويجاهدَ لينالَ الشفاء. أما المناولة فتكون بقرار من الأب الروحي. تناولُ الأسرار المقدّسة من دون توبةٍ واعتراف يساهم في ازدياد المسّ الشيطاني سوءًا.

أحدُ المسكونين جاؤوا به ليتناول فَبَصَقَ جسد المسيح ودمه رافضًا ان يُعطى دم المسيح وجسده، فالشيطان لا يقبل المساعدة.

– ياروندا! هل يمكن ذكر أسماء المسكونين في الذبيحة المقدّسة؟

– طبعًا. فالمسكونون من الشياطين يحصلون على المساعدة عندما يذكر الكهنة أسماءَهم في الذبيحة المقدّسة بألم وانسحاق.

– ياروندا! كيف تفسّر بقاء التأثير الشيطاني رغم اعتراف المسكون وتناوله؟

– يبقى التأثير لأن الحالة الروحيّة لم تتوطّد بعد. لو ساعد الله هذا المسكون مباشرة وحرّره من التأثير الشيطاني فإنه قد ينزلق مجدّدًا في مهاوي الشيطان. من هنا فإن الله – لفرط محبته للبشر – يسمح بانحسار الشرّ شيئًا فشيئًا. وهكذا يسدّد الإنسان دَيْنَه وتتوطَّدُ الحالة الروحيّة. وكلما توطدت الحالة الروحيّة انحسر الشرّ.

سألني مرة أب لديه ابنٌ فيه شيطان: «متى يتعافى ابني؟» أجبته قائلًا: «عندما تتوطّدُ حالتُك الروحيّةُ ينالُ ابنُك المساعدة». كان الابن المسكين يعيش حياة روحيّة فدفعه أبوه قسرًا إلى تغيير نمط حياته خوفًا من إصابته بالجنون. راح الوالد يصحب ولده إلى بيوت الدعارة والملاهي حتى أُصيب الابن بمسّ شيطاني. وقد اضطّرت أمه للهرب كي تنجوَ بنفسها من تصرفاته الخاطئة. تابَ الأب وحاول أن يعيش حياة روحيّة ولكن الابنَ لم يتعافَ. تحسنت حالة الابن عندما زار الوالد المقامات الروحيّة وعرف سِيَر القدّيسين وتوطدت حالته الروحيّة.

صلوات الاستقسامات

– يارونداا! جاؤوا اليوم بامرأة ممسوسة وتوسلوا إلينا أن ندعو الكاهن ليتلو عليها صلاة الاستقسامات. ماذا نفعل؟

– في هذه الحالة الأفضل إفهامُ هؤلاء الناس أن الوسيلةَ الفضلى هي التعاون مع أبيها الروحي. فالشيطان في داخلها هو نتيجةٌ حتميةٌ لوقوعِها في خطيئةٍ خطيرةٍ أو لإعطاءِ أهلِها حقوقًا للشيطان. فالخطيئة تجلب الشيطان. والخطيئة لا تزال موجودة، والشيطان لا يخرج إلا بالتوبة والإعتراف. وقد يحصل أن الله يسمح بالإصابة بمسّ شيطاني لأسباب أخرى.

– يارونداا! هل تساعد صلوات الاستقسامات المسكونين من الشياطين؟

– يتوقف الأمر على الحالة. فعندما تُتلى صلوات الاستقسامات على ولد مسكون لم يُعطِ حقوقًا للشيطان ولا يعلم شيئًا عن الإعتراف، أو

عندما تُتلى على رجل طاعن في السن فَقَدَ وَعيَهُ وتعذَّرَ عليه الإعتراف، فإن هذه الصلوات قد تساعد.

أما إذا كان الإنسان بكامل وعيه، فيجب عليه أولًا الإعتراف والتوبة لمعرفة سبب المسّ الشيطاني، ومن ثم تتلى عليه صلاة الاستقسامات إذا كان هناك ضرورة؛ **إذ أن الشيطان قد يخرج بفعل صلوات «حلّ الخطايا» فقط.**

بعض الكهنة يَجْمَعُون الممسوسين من الشيطان والمصابين ببعض الأمراض ويَتْلون عليهم صوات الاستقسامات. تَصوَّري إنسانًا مصابًا بمرض الباركنسون تُتلى عليه صلاة طرد الشياطين. واليوم جاؤوا بإنسان مُسِنٍّ قالوا إن به شيطانًا. كانت يده اليسرى تتحرك يمينًا ويسارًا وكان يصاب بنوبات. سألته: «منذ متى وأنت تعاني من هذه الحالة؟» أجابني: «منذ صغري». أُصبت بالحيرة. وما لفت انتباهي فيما بعد أن الجهة اليسرى من رأسه فيها خسوف قليل مما يعني أن هذا الشخص قد حدث له شيء عند الولادة سبّب له المشاكل. تَصوَّري هذا الإنسانَ تُتلى عليه صلوات الاستقسامات، ألا يصبح أضحوكةً بين الناس؟ كم من الأشخاص اتُهِمُوا بالمسّ الشيطاني وهم منه برَاء.

جاؤوا بشاب في الخامسة والعشرين من عمره وفي اعتقادهم أن شيطانًا مسَّه. قدّمت له ماءً مقدّسًا فشرب دون إبداء ردة فعل. سألت أباه: «ماذا يفعل هذا الشاب وكم مضى عليه من وقت وهو على هذه الحالة». أجابني: «مذ كان في السادسة عندما رأى جثة جدّه القتيل. ومنذ ذلك الحين وهو يعاني من اضطراب عصبي». لقد تحول الاضطراب العصبي إلى مسّ شيطاني بنظرهم!

– ياروندا! هل يصحّ أن تُتلى صلوات الاستقسامات في الذهن؟

– نعم. وذلك أفضل. المهم أن تُتلى صلوات الاستقسامات **بألم وتواضع بعيدًا عن الكبرياء.** عندما يصرخ الكهنة بقوّة وكبرياء: «أخرج أيها الروح النجس»، فإن الشيطان يغضب ويستغلُّ أنانيَّة الممسوس ويدفعه إلى ضرب الكاهن الذي جعله أضحوكة بين الناس. وقد ينهال الممسوس على الكاهن بالضرب؛ فالشيطان لا يخرج بهذه الطريقة. قال أحد الكهنة مرة لأحد الممسوسين: «إني آمرك أيها الروح النجس بالخروج من هذا الإنسان». «لن أخرج»، أجابه الشيطان على لسان الممسوس. لذلك أنصحُ الكهنةَ بعدم الصراخ مطلقًا عند تلاوة صلاة الاستقسامات، وكأنَّ الشياطينَ بها صَمَم.

وليس من الضرورة أيضًا أن يُخبِر ذوو الممسوس الآخرين باستدعاء الكاهن من أجل تلاوة صلاة طرد الشياطين. الأفضل أن يقولوا إنهم سيقيمون صلاة البراكلسي، وفي أثنائها يتلو الكاهن صلوات الاستقسامات بصوت منخفض.

المسكونون من الشياطين يكابدون عذابات استشهادية

المسكونون من الشياطين يعانون كثيرًا وبصورة مستمرة عذاباتٍ. التقيت مرة في دير ستافرونيكيتا (أحد أديار جبل آثوس حيث عاش فترة الياروندا) بشاب في الثالثة والعشرين من عمره فيه شيطان. كان هزيلًا نحيلًا، وكان الطقسُ مثلجًا في الخارج وألْسِنَةُ النيران تتراقص

في الصوبيا. كان هذا الشاب يلبس قميصًا بسيطًا دون أكمام فذهبت إليه وأعطيته لباسًا صوفيًا ليتقي البرد القارس. فانتفض وقال: «مَن قال لك أيها الأب إني أشعرُ بالبرد؟ إني أحترق!» هذه جحيم...

بعض الممسوسين الذين يتميّزون برهافة حسّ يدفعهم الشيطان إلى الانتحار بعد أن يوهمَهم باستحالة شفائِهم وخلاصِهم.

أحدُ الأشخاص الممسوسين ضَجِرَ منه الكهنة فطردوه عندما قَصَدَهم ليتلوا عليه صلاة الاستقسامات. وقد أقنعه الشيطان بعدم القدوم إليّ لأنني لن أستقبله.

شخص آخر تعافى بفضل صلوات القدّيس أرسانيوس، قصد الدير ليسجد لرفات هذا القدّيس ويشكره فوجد الدير مقفلاً. ظهر له الشيطان بهيئة القدّيس أرسانيوس عند الباب وقال له: «لا تعد ثانية إلى هذا المكان فأنا لا أريد رؤيتك وكذلك الأب باييسيوس» وطرده. خرج هذا الشخص غاضبًا وراح يكيل الشتائم لي وللقدّيس أرسانيوس، فعاد الشيطان وسكنه من جديد. إذا تصرّف المرء بوقاحة ابتعدت عنه نعمة الله، فكيف إذا شتم القدّيسين؟ عاد الشخص إلى القلّاية وصرخ: «ماذا فعلت لك لتطردني؟ لماذا لا تريد رؤيتي؟ لماذا لا تساعدني؟ أتريدني أن أتعذب؟» أجبته: «أيها الإنسان المبارك، الشيطان هو الذي طردك وليس القدّيس، فالقدّيس لا يطرد أحدًا». لم يصدّق، وظلّ يعاني من عذاب عظيم ويكابد آلامًا استشهادية كلّ يوم.

قد يتعذّب كثيرون من الممسوسين ويكون عذابهم سببًا لتوبة الآخرين وخلاصهم، إذ عندما يشاهدون عظيم عذابهم يفكّرون مليًا ويتوبون. لا تَظُنّي أن المسكون من الشياطين ارتكب خطايا أكثر من

غيره. فالله قد يسمح بهذا المسّ الشيطاني ليتواضع هؤلاء المسكونون ويسدّدوا الدين عن خطاياهم وينالوا أجرًا وليكونوا عِبرة لمن يعتبر.

قد يقول البعض إن هناك من يقترفون خطايا كثيرة ولا يصابون بمسّ شيطاني. كيف يحدث هذا الأمر؟ عندما يفقد الخاطئ رجاءَه بالمعونة الإلهية يكون قد استسلم للشيطان فلا يعود يهاجمه هذا الأخير. ينبغي أن نعلم، أن الأذى الناجمَ عن العمل الشيطاني هو بطريقة ما عطيةٌ من الله نحو الإنسان الخاطئ المؤمن بالله ليتواضع ويتوب ويَخْلُصَ.

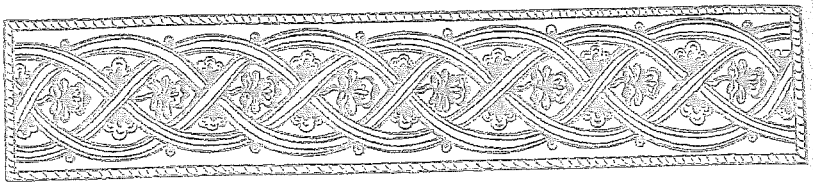

الفصل الثالث

الضلال المخيف

النُسك والضلال

يا روندا! إني أخاف الضلال.

– حسنًا تفعلين. من يَخَفِ الضلال لا يَضِلُّ، لأنه ينتبه ويبوح بكلّ أفكاره ولا يخفي أمرًا.

– يا روندا! ما الذي يمهِّد للضلال؟

– الذي يهيّء للضلال هو ازدواج الموقف، كأن تُكَوِّني فِكرةً عن نفسك أنكِ شيءٌ ما وتُظهري للآخرين ما تفعلينه وهو كلّه أوهام، أو أن تتصرفي بكبرياء فتعتقدين أنك وصلت إلى قامة روحيّة معينة بسبب بعض الأعمال النسكية التي تمارسينها، بينما الآخرون لم يفهموا بعد مغزى هذه الدرجة من الحياة الروحيّة.

بداية الضلال هي ممارسة النسك بغرور في محاولة للوصول إلى قامة روحيّة لأحد القدّيسين تُدهِشُ الآخرين. فالقداسة شيء والنسك الزائد شيء آخر.

قلت لأحد الأشخاص: «النهجُ الذي تتبعه يقودك إلى الضلال. انتبه إنك لا تسير سيرًا حسنًا». أجابني: «أتخافُ عليَّ من الضلال. إطمئنَّ فأنا لا أذوق اللحمَ». عرفت أنه لا يمارس سرَّ الإعتراف بل يبوح بخطاياه أمام الإيقونة. «هل أنت أرثوذكسي أم بروتستانتي؟ سألتُه. وأين تجد هذا الأمر مكتوبًا؟» أجابني ببرودة: «ألا يسمعني المسيح؟»

– ياروندا! أيساعدُ النسكُ الجسدي في الجهاد ضد الأهواء؟

– نعم، إن استُخدم لهذه الغاية، وعندها يتواضع الجسد فيخضع للروح. أما النُسكُ الجافُّ فيخلقُ أحاسيسَ كاذبة ويُنمّي الأهواء النفسيّة وينفخ الكبرياء ويضاعف الثقة بالنفس ويقود إلى الضلال. عندها يتصوّر الإنسان أنه يفعل كذا وكذا، يصل إلى قامة القدّيس فلان، ويسبق الآخرين، وينكبّ على الأصوام والسهرانيات. ولكن كلّ هذه التصرفات لا تجدي نفعًا، لأنه لم يقم بها بهدف قطع الأهواء، وإنما من أجل إرضاء أنانيَّته.

عرفتُ راهبًا يمارس النُّسْكَ بدافع الكبرياء معتقدًا أنه ناسك عظيم. عَزَفَ عن الأكل والاغتسالِ وعاش وسط القذارة فَبَلِيَتْ ثيابه وأصبحت حالتُه مزريةً. أخذتُ ثيابه لأغسلها فلم ينفع ذلك. قال لي مرة: «لقد تفوّقتُ على يوحنا الكوخي!» أجبته: «يا صاح! هل تقدَّس القدّيس يوحنا الكوخي بسبب القذارة؟» بعد أيام عاد ليتحدث عن تفوقه على القدّيس مكسيموس الكفسوكاليفي. «وكيف ذلك؟» سألته: «لقد جُلتُ أرجاء الجبل المقدّس كلّه»، أجابني. «ولكن القدّيس مكسيموس هدف من دورانه إلى غاية روحيّة، فهل قمت أنت بذلك؟» بعد ذلك راح يتذكر الموت ويقول:

«أنا الآن في الجحيم؛ أنا هو الشيطان إبليس وسأمضي لأجمع الموالين». لقد وَقَعَ في الضلال.

الاحتراس من الخيالات

– يارونداا! حذَّرْتنا من استحضار صور مختلفة إلى الذهن خلال الصلاة، عن حياة يسوع، لماذا؟

– لكي لا يُضِلَّنا الشيطان بالخيالات! الخيالُ عامل فعَّال وقوّة كبيرة إن استخدم بشكل صحيح. قد يرى بعض الناس منظرًا طبيعيًا، وبعد سنة يتذكرونه كما هو ويرسمونه. هذه موهبة يمنحها الله للإنسان غير أن الشيطان يستغلُّها. الضالُّون هم الذين يشاهدون أو يقرأون ولكنهم يتخيّلون ما شاهدوه وقرأوه كما يحلو لهم ويؤمنون بهذه الصورة الخيالية كواقع حقيقي. لقد ضحك الشيطان عليهم؛ لذا هم بحاجة إلى متابعة حثيثة لواقع نفوسهم.

تعرَّفت إلى امرأة بسيطة، كانت تصلِّي باستمرار وتتوسل إلى المسيح أن يتراءى لها في هذه الحياة لأنها لن تستطيع رؤيتَه في الحياة الثانية، كما كانت تدَّعي. ظهر لها يسوع بالفعل أثناء المناولة الإلهية في الكأس المقدّسة على صورة طفل ذي شعرٍ مدمَّى ثم اختفى. بعد هذه الحادثة، دخل الشيطان فكرها وأوهمها أنها أصبحت إنسانًا مهمًا وراحت تدور على البيوت تخبر الرجال والنساء عن خيالاتها، فلم يبق لي من خيار سوى توبيخِها بقسوة أمام الجميع لكي ينكشف ضلالها وتتواضع.

– هل كانت خيالات؟

– خيالات وضلال.

– يارونداا! أَلَمْ تكشف هذه الأمور إلى أبيها الروحي؟

– أتعلمين ماذا يحدث؟ يضحك عليهم الشيطان بهذه الأمور التي يَرَونَها فلا يساوِرُهُم الشك، ولا يفكّرون أَنَّ عليهم البوحَ بها إلى الأب الروحي. إنها تقنية مخيفة، تلك التي يستعملها الشيطان.

قد يستغلُّ الشيطان المجرِّب حدثًا بسيطًا طبيعيًا في حياة الإنسان لإيقاعِه في الضلال. في دير ستوميو كنت أُشْعِل الصوبيا في فصل الشتاء خلال صلاة الغروب. لاحظتْ بعضُ النسوة أن إيقونة العذراء في الأيقونسطاس تُصدر صوتًا خلال صلاة الغروب. من جهتي لم أُعِرِ الأمر اهتمامًا. راحت النسوة يتهامسن حول الصوت الذي يصدر عن الإيقونة أثناء صلاة الغروب حتى وصل الهمس إلى مسمعي. قلت: فَلأرَ هذه الإيقونة التي تُصدر الصوت. ليس معنى ذلك أني لا أؤمن بالحوادث الإلهية، فالعذراء تظهر ويشاهدها كثيرون من ذوي القامات الروحيّة، ولكن ينبغي الحذر في هذه الأمور. صعدت على كرسي وتفحصت الإيقونة. ما الذي كان يحدث؟ الإيقونة القديمة كانت مدعَّمة بدعامات خشبية. هذه الدعامات تتأثر بحرارة النار المنبعثة من الصوبيا فتسخن وتتمدّد وتُحدث هذا الصوت. نزعت مسمارًا فتوقف الصوت. وسألت النسوة بعدها: «هل تسمعن الآن شيئًا؟» أجبن: «كلا». إذًا ينبغي الحذر؛ إذ عندما ينمو الخيال تضيع حياة الإنسان.

– يارونداا! كيف يمكن التمييز بين حدث صادر عن الله أو الشيطان؟

– الأمر واضح. إن لم يكن الحدث من الله فإنه يكون مصحوبًا بالكبرياء. وقد يصل الأمر إلى التجديف.

جاء إلى القلّاية ذات مرة شخص ضالٌّ سكن فيه شيطان. حاولت مساعدته من خلال بعض الأمور. أتعلمين ماذا قال لي؟ «هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها أمورًا كهذه. لم أقرأها حتى في الإنجيل». فكأنَّه يقول لي: لقد تكلمتَ أفضل مما تكلَّمَ المسيح. أتفهمين كيف يتصرّف الشيطان ليزرع في رأسِك فكرَ كبرياءٍ إن لم يفهم الإنسان أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا بقوَّته الذاتية وإنما يقوم بهذا الشيء بقوّة المسيح. فهو لا يفعل شيئًا، وإنْ أَخْرَجَ آلاف الشياطين من الممسوسين.

الشيطان يظهر كملاك منير

اذا افتقر الإنسان إلى الخبرة الروحيّة ولم يشعر بالفرح الفردوسي فإنه قد يقع بسهولة في الضلال. لذا وجب عليه الانتباه لأن الشيطان خبيث. يُثير قلبَ الإنسان ويجعلُه يشعرُ بلذّة حتى يُضِلَّه، مخلِّفًا انطباعًا بأن اللذّة روحيّةٌ إلهيةٌ. قد يسرق الشيطان قلبَ الإنسان فيظُنُّ هذا أنَّهُ يسير في الطريق السويّ. ولكن الفرحَ الذي يشعر به ليس فرحًا حقيقيًا روحيًا. الفرح الحقيقي الروحي هو شيء سماوي.

يستطيع الشيطان أن يظهر بهيئة ملاك أو قدّيس. ولكن هذا الملاك أو القدّيس – وكلاهما زائف – يوزّع القَلَقَ والهمّ، وهو كلّ ما يملك. أما الملاك الحقيقي أو القدّيس الحقيقي فكلاهما يوزعان الفرح الفردوسي والبهجة السماوية.

الإنسان المتواضع والنقي – وإن كان عديم الخبرة – يميِّز ملاك الله عن الشيطان الذي يتخذ هيئة ملاك منير. أما الإنسان الأناني

فيقع بسرعة في الضلال من الشيطان الخبيث. إذا اقتنى الإنسان فكرًا متواضعًا يختفي الشيطان عند ظهوره كملاك منير.

ذات يوم، كنت أصلّي في دير ستوميو جالسًا على كرسي صغير. سمعتُ للحظة أصواتَ آلاتٍ موسيقية تنبعث من مكان قريب. أُصبتُ بالحيرة. ما هذه الموسيقى التي تَصْدَحُ من مكان قريب جدًا. وتساءلت: عيد الدير انقضى أوانُه، فنهضتُ وتطلعت من النافذة فلم أرَ شيئًا والسكون المطبق يخيّم على المكان. فهمت حينئذٍ أن الشيطان تعمَّد قطع صلاتي فَعُدْتُ إلى مواصلة هذه الصلاة. وفجأة سطع نور قوي غمر القلّاية وأخفى السقف وكان على شكل عمود من نور يرتفع إلى عنان السماء. وعلى رأس هذا العمود ارتسم وجهُ شابٍ أشقرَ ينسدل شعره على كتفيه وبلحيته يشبه المسيح. ولما كنت أرى نصف وجهه نهضت عن الكرسي لأراه بالكامل فسمعت صوتًا من الداخل يقول: «لقد أُهِّلْتَ لتُعَاينَ المسيح». ومَن أكون أنا غير المستحق لأعاينَ المسيح؟ رسمت إشارة الصليب فتلاشى الضوء والمسيح المزعوم وعاد السقف إلى مكانه.

هذه الخيالات والأنوار الكاذبة يمكن للشيطان أن يضعها في فكر الإنسان المتكبر فيضلّه ويَمضي به إلى الهاوية بدل صعوده إلى الفردوس. لذلك وجب على الإنسان أن يلتمس التوبة لا الأنوار أو المواهب الإلهية. التوبة تولِّد التواضع، وعندها فإن الاله الصالح يمنح ما هو ضروري.

عندما كنت في منسك القدّيسة آبيستيمي (في سيناء) حاول الشيطان مرة أن يخدمني! كان للمنسك عدة سلالم، وكنت في الليل على ضوء القمر أُنزل السلالم لأذهب الى المغاور مستعملًا قداحة.

ذات مرة لم تشتعل القداحة رغم محاولات متكررة. فجأة شاهدتُ ضوءًا على صخرة أضاء المكان كلَّه وكأنه صادر عن بطارية يد. «فلأُعدم أنوارَكَ»، قلتُ وعدت أدراجي. للحال اختفى الضوء. يا له من شيطان! لم يُرد أن أُشعل القدّاحة لكي أنزل، أهذا من صلاحه؟

– ياروندا! كيف فهمت أن الضوء ليس من الله؟

– «آه»، يُفهم ذلك. شيء مخيف!

خداع الأحلام

– ياروندا! بعض الأحلام السيئة تعذبني...!

– عندما تشاهدين حلمًا مزعجًا لا تفحَصِي مُطلقًا ماذا رأيت، وكيف رأيته، إن كنت مذنبة، وما هو مقدار ذَنْبِك؟ الشيطان لم يستطع محاربتك في النهار فحاول ذلك تحت جنح الظلام. الله يسمح بتجربتنا خلال النوم لكي نعاينَ أن إنسانَنَا العتيقَ لم يمت بعد. وقد يحدث أن يجلبَ العدوُ بعضَ الأحلام المختلفة لكي يشعرَ الإنسانُ بالحزن عند نهوضِه من النوم. لا تعطي لذلك أهمية. أُرسُمي إشارةَ الصليب على وجهك وعلى وسادَتِك. ضعي صليبًا وبعض الإيقونات على الوسادة وردِّدِي الصلاة حتى يأخذَك النوم.

كلما أعطيتِ العدوَّ أهميةً، عاد وجرَّبك. وهذا الأمر يشمل -ر والصغار معًا، حتى الأطفال – وهم ملائكة صغار – يُخِيْفُهُمُ العدو خلال النوم فيستيقظون مضطربين ويهرعون باكين مرتعدين للارتماء في أحضان أمهاتهم. وقد يحدث العكس، إذ تقترب منهم خلال

نومهم ملائكة قدّيسون فتسمعهم يضحكون وهم نائمون، أو تراهم يستيقظون وقد استبدّ بهم فرح غامر. ومع ذلك، فالأحلام لها فقط تأثير خارجي على الإنسان ساعة نومه.

– يارونداا! وعندما تشعر بضغط وقت النوم؟

– بعض المرات قد يُعزَى ذلك إلى مخاوفَ وشكوكٍ واضطراباتٍ حَصَلَت خلال النهار، وقد يستغلّ الشيطان كلّ ذلك لإزعاج الإنسان. وفي بعض الأحيان قد يتخذ الشيطان هيئة إنسان أو قدّيس ويظهر في الحلم عند أحد الأشخاص.

ذات مرة اتخذ الشيطان هيئة القدّيس أرسانيوس وظهر في الحلم لأحد المرضى وقال له: «أنا هو القدّيس أرسانيوس. جئت أقول لك بأنك ستموت. أتسمعني؟ ستموت!» فارتعدَتْ فرائصُ ذلك الإنسان. القدّيس لا يتوجه بكلام كهذا إلى إنسان مريض. وإن كان المريض معرَّضًا للموت وظهر له قدّيس ينبئه عن ذلك، فإنه يبلّغه الرسالة بطريقة حسنة، كأن يقول له: «بما أن اللهَ يشاهِدَ عذابَك فسينقُلُك من هذا العالم، استعدَّ لذلك».

– يارونداا! وماذا عن صراخ الإنسان في نومه؟

– هكذا أفضل! سيستيقظ من النوم. أحلام كثيرة سببها الاضطراب. عندما يضطرب الإنسان ويتعب تتصارع أمور مختلفة في نفسه فيراها في حلم. وقد حدث معي أن اختلفتُ مع أُناسٍ يَظْلِمُون غيرَهم، وفي أثناء النوم كنت أُعنِّفُهُم قائلًا: «هل أنتمُ عديمو الإحساس؟ وهل وصل بكم العقوقُ إلى هذا الحد؟» فأستيقظُ من النوم.

– يارونداا! هل يستطيع المرء بواسطة الأحلام أن يتوقع شيئًا سيحدث له؟

– كلا! لا تعطي أهمية للأحلام. سواء سببت الفرح أو الحزن لا تبالي بها خوفًا من الوقوع في الضلال. خمسةٌ وتسعون في المئة من الاحلام خادعة، ولهذا أمر الآباءُ القدّيسون بعدم إعطائِها أيةَ أهمية. الأحلام الموصى بها من الله قليلةٌ جدًا، ويجب أن يتحلّى المرء لتفسيرها بالنقاوةِ والمؤهلاتِ، على غرار يوسف (تك ٣٧: ٥-١١) ودانيال (دا ٢: ٢٥-٤٦) اللذين اقتنيا مواهبَ من الله. أين كان دانيال عندما استأهل أن يُفَسِّرَ الحُلْمَ؟ كان صائمًا مجاهدًا في جبّ الأسود الضارية التي لم تزعجه رغم تجويعها (دا ٦: ١٦...) وفسَّر حُلْمَ نبوخذ نصّر. ولما أتاه حبقوق بالطعام قال: «اللهُمَّ لقد ذَكَرْتَني ولم تَخْذُلْ الذين يُحبّونك» (دا ١٤: ٣٢)، لأنه لم يَحسب نفسَه أهلًا ليَذْكُرَه الله؛ وإذا أعرض الله عن ذكر دانيال، فمن سيذكر؟

– ياروندا! بعض الناس لا يرون أحلامًا.

– هكذا أفضل. لا يدفعون ثمن بطاقة الدخول ولا يُنْفِقُون البنزين. في الحلم تشاهدين شيئًا، في دقيقة، يدوم في دنيا الواقع لساعات وأيام، إذ يَبْطُلُ الزمن. من هنا يمكن فهم قول المزمور: «لأن ألف سنة في عينيك يا رب كيوم أمس الذي عبر أو كهزيعٍ من الليل» (مز ٨٩: ٤).

الاحتراس من الأحلام

– ياروندا! عندما يخبرنا الناس عن أحلام شاهدوا فيها أحد القدّيسين، ماذا نقول لهم؟

– الأفضل في مثل هذه الحالة توخّي الحذر، فلا أحدَ يستطيع أن يميّز إن كان الحُلْمُ من الله أم من الشيطان. حتى لو كان الحلم من

الله وَجَبَ على الإنسانِ أن لا يقبَلَه في البداية. إنَّ رَفْضَ قَبُولِ الحُلْمِ دليل على تواضع الإنسان. إنْ كان القدّيس قد ظهر فعلًا في الحلم فالله يعرف أن يُعْلِمَ النفس ويقودَها إلى حيث يريد. ينبغي الحذر، إذ قد يأتي الشيطان ويباشر عمله.

هناك نفسٌ لم تنل مساعدة من بشر فاستحقَّتِ المساعدةَ الإلهية، ولكنَّ الشيطان وضع لها فيما بعد أفكارًا: «على ما يبدو، لكي يُؤَهِّلَكِ الله لمشاهدةِ هذا الحُلْمَ – من يدري – فإنه يهيّئك لشيء أسمى». في اللحظة التي آمنتْ بهذا، بدأ الشيطان عمله وأَحْكَمَ سيطرَتَه عليها. ولكنَّها في النهاية نالت رأفة الله؛ شاهدتْ حلمًا وسمعت صوتًا يقول لها: «اكتبي كلَّ الأحلام التي شاهدتِها وأرسليها إلى الأب باييسيوس». وهكذا، أرسلت لي رسالة تتضمن كلّ الأحلام التي شاهدَتها. لقد دَرَسَها الشيطان كما تُدرَسُ الحنطة. كانت أحلامًا حقيقية ولكنها كانت كلُّها من الشيطان، باستثناء الحلمين: الأول والأخير. لقد سمح الله بالحلم الأخير لينقذَها من الضلال وتعودَ إلى رُشدها. لقد أطاعت هذه المسكينة ما قلتُه لها فتحرّرت من رباط العدو.

صفات الواقع في الضلال

– يارونداا! كيف تستطيع أن تعرف أن إنسانًا وقع في الضلال؟

– يمكنُ معرفةُ ذلك من منظره الخارجي. فالواقع في الضلال يُبدِي هدوءًا خارجيًا كاذبًا، ويبدو متواضعًا لطيفًا في حين يُخفي في داخله اعتدادًا كبيرًا بنفسه. إن تفرَّستِ في عينيه سترين أنه يشاهد الناسَ المعذَّبين على غرار النمل. ثم إن الأمور التي يتفوه بها تكشف حقيقة أمره.

هناك إنسان وقع في الضلال، إذ أن كثيرين يعتبرونه قدّيسًا؛ ادّعى أن المسيحَ ظَهَرَ له وهو يركب حصانًا ويمسك في يده قارورةَ نبيذٍ أعطاهُ منها ليشربَ، فاقتنى منذ ذلك الحين موهبةَ الرؤية. ذات مرة كان يتحدثُ أمام الجموع فسأله أحدهم: «لماذا لا أَستطيعُ أن أصنعَ المعجزات؟» أجابه قائلًا: «لأَنَّكَ اقترفتَ خطايا». ذُعِرَ السائلُ المسكينُ وأسرع ليخبرَني. طرحتُ عليه سؤالًا: «هل يسخَرِ القدّيسون من الناس؟ الشيطانُ هو الذي يفعل ذلك. أَلَمْ تفهمْ أن الشيطان هو المتكلم؟ وإن كان ما يقوله المُضلّ صحيحًا فالشيطان هو الذي يتفوّه به».

أخبرتني إحدى النساء، أن امرأة بها شيطان أخذها أهلها إلى رجل يدّعي إخراج الشياطين. قادهم هذا الى كنيسة قديمة وعندما دخلوا الكنيسة تناول بطرشيلا ولبسه. استغرب الحضور ذلك إذ كيف يعقل أن يلبس رجل علماني بطرشيلا. سألوه: «هل أنت كاهن»؟ فرد متسائلًا: «ومن همُ الكهنةُ؟» عندئذ فهموا ضلالَه وانصرفوا.

الضلال والجنون

– ياروندا! هل يكون الضلال جنونًا؟

– الضلال شيء والجنون شيء آخر. بعض الناس يضِلّون وبعضهم الآخر يُضَلُّون وتُصابُ عقولُهم.

تعرفتُ إلى راهبٍ في الجبل المقدّس لم يصغِ إلى أحد. غادر ديرَه وطَفِقَ يدور في الجبل من مكان إلى آخر ليتنسك حسب زعمه. كنت أنصحُه بالعودة إلى مكان توبته. أخيرًا اشترى قلّاية وسكن

وحيدًا. عاد إليَ بعد سبعة أشهر فنصحتُه مجدّدًا بالعودة إلى الدير. رفض العودة مدَّعيًا بأنه نال إذنًا بالخروج ولن يُقبَل ثانية في الدير. طلبتُ منه أن يرتَبِطَ مع أحد الشيوخ على الأقل فيطيعه ولا يعيش حسب أهوائه وإرادته. انتفضَ وقال: «سوف أطيع مشيئةَ الله». أمرتُه بالذهاب إلى أحد الأديار، فرفض لأنه ناسك ولا يستطيع العودة إلى الوراء. استَأْذَنَ وهمَّ بالمغادرة، اقترحتُ عليه مرافقَته إن أراد العودة إلى حياة الشَّركة في أحد الأديار لأشرح لرئيس الدير عن سبب التحاقه بالجماعة الرَّهبانيّة، فكان جوابُه: «إن كنتَ قد ضجرتَ من السكينة فاذهب بمفردك إلى أي دير تختاره». صدَمَتني وقاحته فتركته وشأنه. بعد فترة قصيرة علمت أنَّه أصيب بمسٍّ شيطاني وجنون. ظهر له الشيطان بهيئة والدة الإله وقال له: «إن سجدتَ لي أمنحك مواهبَ الروحِ القدسِ السبع». قَبِل ذلك مدفوعًا بالغرور وحبِّ التفوّق على الجميع باقتنائه المواهِبَ السبع. سجَدَ للشيطان فأُصيب للحالِ برجفةٍ وخَسِر عقلَه. قَصَدَ مَقَرَّ مجمع الجبل في كارياس ليصبح متقدمًا، وأمسك عصا متقدم الجبل وراح ينزل الدرج وقد أعماه الافتخار بنفسه. شاهد الآخرون متقدّمًا آخر ينزل، لجأوا إلى وسيلة، فأصعدوه إلى سيارة انطلقت به إلى مصحّ للأمراض العقلية. وقد تحرر أخيرًا من الشيطان ولكنَّه مكث مجنونًا.

– ياروندا! والواقِعُ في الضلال أليس هو بطريقة ما مصابًا بمسّ شيطاني؟

– كيف لا؟ قد يسكن في الواقع في الضلال شياطينٌ أكثرُ عددًا من المصاب بمسّ شيطاني. ولكن الواقِعَ في الضلال ليس بالضرورة مسكونًا من الشيطان وإنما من ذاته لأنه يرفض السماع لأحد.

الاحتراس من الواقعين في الضلال

أعرف ثلاثة آباء روحيين يتميزون ببعض التقوى مصحوبة بخلل عقلي فَيُضِلُّونَ الناسَ. يَتْلُوْنَ على الجميع صلوات طَرْدِ الشياطين. يتملَّكُهُم الغرورُ كونُهم كهنةً يملكون سلطانًا. هؤلاء يُسيئون إلى الكنيسة، ويجب إثارة شكوك الناس حول تصرفاتِهم لإبعادهم عنهم، وبالتالي البحث عن أب روحي مستقيم يمكنه تقديم المساعدة. تمادى هؤلاء الآباء الثلاثة في غيِّهم، فاستعملوا إسمي وصورتي ليخلِّفوا انطباعًا لدى الناس أنَّهم على اتصال دائم بي.

قد يكونُ لهؤلاء مبرّراتٌ بسبب خِفَّة عقولِهم. ولكنَّ هناك أشخاصًا أشرارًا يجعلون الخَلَّ نبيذًا. ثَمَّةَ شخصٌ كان يعمل محاسبًا فترك عمله، وها هو اليوم يدور على الناس في شمال اليونان مدَّعيًا أنه تلميذي، ويصرِّحُ بأنني منحتُه موهبةَ الرؤيةِ ومواهبَ أخرى فَيُضِلُّ الناسَ ويجمع الأموال.

– هل هو كاهن؟

– كلا! إنه علماني. رآني ذات مرة في دافني (مرفأ الجبل) فاختبأ كي لا أراه، لا سيما وأنه للأسف كان ابني المدَلَّل. لحسن الحظ أنه يتناول الكحولَ وتفوح منه رائحة «الأوزو» ويراه البعض ثملًا وتُثار التساؤلات.

كثيرون هم هؤلاء الغشَّاشُون الذين يستَغِلُّون آلامَ الناس ويتاجرون بها. قال أحد هؤلاء لامرأةٍ أرملة: «إن يدًا من يديّ زوجك لم تنحلَّ بسبب حاجتِه للصلاة». فكَّرَتِ المسكينةُ ورأت أن الحلَّ يكْمُنُ بإعطائه المالَ ليصلي من أجل راحة نفس زوجها. وهكذا راح هذا الغشّاش

يستنزف أموالَ تلك الأرملة حتى كاد يقضي على ثروتها، وانتزعَ منها ثمنًا باهظًا لراحة نفس زوجها.

وهناك بعض المُضِلّين الذين يرسُمُون إشارةَ الصليبِ على المرضى، وَيَتْلُون بصوتٍ منخفض كلماتٍ طلبًا للشفاء، فينخدعُ الناسُ بهم ويصرِفُون النظر عن الإعتراف، أو طلبِ كاهن يرفع الصلوات الحقيقية. يقصد الناس هؤلاء المُضِلّين ويُغْدِقُون عليهم الأموال.

قد يحدث أن يتعاون مُضِلَّان مع بعضِهما تعاونًا حسنًا لما فيه الخيرُ والنفعُ لهما. واحد يُشخِّص المرضَ وآخر يزعم حصول الشفاء، والنتيجة إبعاد الناس عن الكنيسة من خلال تعاونهما مع الشيطان. قد يُسبّب الشيطان لأحد السكان آلامًا مبرِّحة في الرأس فيمضي إلى أحد هذين المضلَّين ويخبره بآلام ذلك الرجل. وفي إحدى المناسبات ينبري هذا المضلُّ ليكشفَ للرجل المتألم سبب آلامه ويرسلَه إلى المُضل الثاني ليخلّصه من آلامه وأوجاعه. أرأيتِ دهاء الشيطان وعملَه الدؤوب لإسقاط الناس في هاوية الضلال؟

– ياروندا! لماذا يلجأ الناس إلى المُضلّين ليحلّوا لهم مشاكلهم؟

– لأن الشيطان يملك مواهب رخيصة يكتسبها الناس بسرعة. لا يجد صعوبة في قول ما يريده وجعله الناس يشعرون بالراحة. وعوض أن يتوب هؤلاء عن خطاياهم التي ارتكبوها ويعترفوا بها أمام أحد الآباء الروحيين تراهم يلتمسون الحلّ من أحد المُضلين. من هنا عذابهم لأنهم لا يفهمون أن الشيطان قد قيَّدهم وأحكم سيطرته عليهم.

– ياروندا! وكيف يصدّقونهم؟

– الناس مصابون بالدوار. كثيرون يدّعون أنهم يقودون الناس في الطريق الصحيح، في حين أنهم يحملون على أكتافهم أكياسًا يَختبِئُ

الشيطان في داخلها. غير أن الإله الصالح لا يَدَعَه مختفيًا بصورة دائمة، فقد يُظهر الشيطان قرنَه أو ذيلَه ويشاهدهما الناس فيصرخون مرتعبين: ما هذا؟ هل هو قرن الشيطان أم ذيله؟... ذات يوم قَدِم شخص ترافقه مجموعة من عشرات الشبان وقد جعل نفسه رئيسًا. طرحتُ عليهم بعض الأسئلة: «هل تَنْتَمُون إلى منظّمة معيّنة؟ إلى جمعيّة؟ هل لديكم أب روحي؟» وكانوا يلوذون بالصمت. بدأوا بضرب المطانيات والسجود. لقد قادهم رئيسهم إليّ ليدّعوا لاحقًا أن الأب بابيسيوس موافق على ما يقومون به ويستغلّوا ذلك لمصلحتهم.

– هل قلتَ لهم شيئًا؟

– قلت لهم أشياء، ولكن الشيطان – عند مغادرتهم – سيقول لهم شيئًا مغايرًا وسيمضي بهم ويقودهم مجدّدًا في طريق الضلال.

– يارونداا! كيف ننجو من الوقوع في حبائل المُضِلّين؟

– بالبقاء في حظيرة كنيستنا. وإن كنا قد تبعنا مُضِلاً عن جهل، فإن الله لا يتخلى عنا، بل يساعدنا كي نفهم الخطأ ونعود إلى الحقيقة.

تقويم الواقع في الضلال

– يارونداا! كيف نساعد إنسانًا لديه آراء مُضِلَّة ليعود إلى صوابه؟

– بجعله يعترف بحالته المزرية، ويمضي إلى أب روحي يُطلِعُهُ على أفكاره ويطيع كلّ ما يقوله له. وكذلك عليه أن يطلب باستمرار رحمةَ الله لتحلَّ عليه النعمةُ الإلهية مجدّدًا، وأن يتواضع لكي يخلص. إن رأفة الله لُجَّةٌ لا يُسبر غورُها ومحبته لا حدود لها.

كان يأتي إلى القلّاية أحيانًا شخص يَقتني أفكارًا مُضِلّة. لم يكن يسمعُ ما أقولُه له، ويُمسِك الأشياءَ والأمور بطريقة مقلوبة. عند خروجه من الجبل المقدّس، كان يكرِز مدَّعيًا أنه أخذ الوصايا هذه مني مُوقِعًا الناس في الشِرك. وكان يعطي الدليل بإظهاره بعض الكتب، التي كنت أقدّمها له في بعض الأحيان علّه يكتشف حالته البائسة، ولكنه كان يستعملها ليُوهِمَ الناسَ أنه كان يقصد القلّاية طلبًا للنصائح. ذات مرة، وأثناء الكرازة التي كان يقوم بها، هجرته نعمةُ الله فراح يشتم المسيح ووالدةَ الإله بكلمات بذيئةٍ دفعت الناس إلى التساؤل والهرب. وأخيرًا أُقفِلَ عليه في مصح للأمراض النفسيّة. أرأيتِ إلى أي حدٍ تصل عناية الله بشعبه؟ أن يسمح بأن يجدِّف المُضِل على الله ليكشف الناس ضلاله ويبتعدون عنه!

– ياروندا! إن تاب المُضِل فهل ستتوب مجموعته؟

– إن كانت توبته صادقة حقيقية، فإنه يتواضع ويُقِرّ بخطأه ويحاول أن يقودهم مجدّدًا في الطريق الصحيح. أما إذا انكشف ضلاله وأصرَّ عليه، فيجب عندها إنذار مجموعته وإطلاعها على الحقيقة لئلا تتبعثر وتُستأصَل جذورُها من الكنيسة.

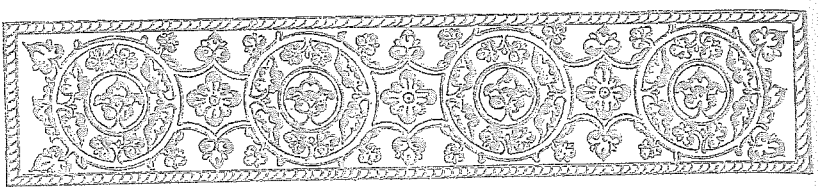

الفصل الرابع

مُضِلُّون وضالّون (٢تيمو ٣: ١٣)

ضلالة الخمسينيين

يا روندا! يقول الذين ينضمون إلى جماعة الخمسينيين أنهم يشاهدون رؤىً ويتكلّمونَ لغات، فهل هذا من الخيال أم من تأثير شيطاني؟

– من تأثير شيطاني، لأنهم بإعادة معموديتهم عند الخمسينيين يزدَرُون المعمودية المقدّسة ويُنكرونَها. «وأَعترفُ بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا» يقول دستور الإيمان. فعندما يعتمدون من جديد يقتبلون تأثيراتٍ شيطانيّة ويتكلّمون لغات كاذبة ويدَّعون أن الروح القدس في العنصرة هو الذي يتكلّم. إنه ليس الروح القدس. إنها أرواحٌ دَنِسة. وأيةَ لغات يتكلّمون؟ ليس من ترابط في ما يتفوهون به، وهم أنفسهم لا يفهمون ما يقولون. يسجِّلون كلامهم على شريط، ثم يُقيمون إحصائياتٍ ويَخْرُجون باستنتاجات: في اللغة الفلانية عدد محدد من «ألليلويا»، وهذا العدد في لغة أخرى... وهم يعتبرون هذا

الأمر من عمل الروح القدس، ويَدَّعون أنهم يعيشون ما عاشَه الرسل يوم العنصرة، فيما هو في الحقيقة أمر شيطاني. هذه الأمور التي يؤمنون بها هي أمور شيطانيّة، ولهذا يصابون بِمَسٍّ شيطاني.

– ياروندا! لماذا يعتمدون ثانية؟

– لأنهم يقولون: عندما اعتمدْنَا كنا صغارًا وجاهلين، أما اليوم فنحن نعتمدُ عن معرفة. يعتمدون من جديد ويبرِّرون خطأهم.

لولا وجودُ المعمودية للأطفال، فماذا سيكون مصير الذين يموتون قبل معموديتهم؟ لهذا السبب يُعَمَّد الأطفال وهم صغار السن، ويصبحُ العرّابُ كفيلًا يتلو دستور الإيمان ويتحمّل مسؤولية أمام إيمان الطفل حتى يكبر. فهل نظلم الطفلَ عندما نعمّده وهو صغير السن؟ كلا، لأنه ينمو ويتقوّى شيئًا فشيئًا من خلال اشتراكه في المناولة. وعندما يكبر، فإن التوبة والإعتراف كفيلان بغسل الخطايا التي يرتبكها وليس بالمعودية الجديدة.

بالنسبة إلى Anastenaria

– ياروندا! يقولون إن الـ Anastenaria في عيد القدّيس قسطنطين يدُوسون على الجمر ولا يحترقون. كيف يُفَسَّر ذلك؟

– أمرٌ شيطانيٌ واحتيال. إنهم برقصهم حاملين الصليب أو الإيقونة، يَرتكِبُون عملًا وقحًا وناكرًا للإيمان. يُبعِدُون عنهم نعمة الله، فيساعدهم الشيطان ويستمر في مساعدته لهم لاحقًا.

إنما هناك أيضًا خُبْثُهم الخاص الذي يساعدهم. يقصدون المكان مسبقًا ويهيّئونه بإشعال حطب من أشجار الدلب الذي يترك رمادًا

كثيرًا، كما أنهم يعرفون أين يدوسون عندما يرقصون. لماذا لا يشعلون حطب السنديان الذي يترك جمرًا كثيرًا؟ ليُحَضِّرِ النارَ شخصٌ آخر وليرقُصُوا إنِ استطاعوا!

قال لي أحد الأشخاص: «إنها عجيبة! هؤلاء الناس يدوسون على الجمر ولا يحترقون». أجبته: «أتتعجب من هذا الأمر؟ الشياطين تقيم في وسط جهنم ولا تحترق وقد مرَّت عصور ودهور. هذا هو الأمرالذي يدعو للتعجب؟».

التقمّص

– ياروندا! كيف يمكن لبعض الناس المثقّفين أن يؤمنوا بالتقمّص؟

– التقمُّصُ يناسب الملحدين وغير المؤمنين. إنه أكبرُ ضلالةٍ شيطانيّة. يجعلهم ينغمسون في حياة الخطيئةِ على أساس اعتقاد يقضي بعودة النفس إلى العالم بصورة متواصلة. فإذا لم تنجح هذه المرة فستعود إلى الحياة من جديد وتنجح في المرة القادمة. وإن لم تنجح فستعود من جديد وهكذا دواليك. من هنا انغماسُ الناس في الملذات واقترافُ الخطايا والعيشُ دون احتراس أو توبة.

أرأيتِ كيف أن الشيطان يُعمي أبصارَهم ويقودُهم إلى الجحيم. إنها أفضل وسيلة وأخبثُها على الإطلاق يلجأ إليها الشيطان لحَشْرِ الناس في الجحيم. والويل لمن يَعْلَق في شباك الشيطان فلن يفلت منها ويعود إلى الوراء. وهذه هي الضلالة الأسوأ من كلّ الضلالات.

ذات مرة، مرَّ بي شاب في القلّاية فأخبرته بأنني منهمك في صلاة الغروب فاستغرب وقال: «أأنت منهمك بهذه الأمور؟» ثم غادر.

عاد في اليوم التالي وحدَّثني عن بعض الرؤى. سألتُه إنْ كان قد سبق وتعاطى المخدرات. اعترف بأنه فعل ذلك قديمًا ولم يعد يتعاطاها اليوم. سألته ثانية: «هل قرأتَ شيئًا عن التقمص؟» أجاب: «نعم». لقد انكشفَ أمرُه. قرأ عن التقمّص وراح يتخيَّلُ أحلامًا ويرى نفسه إنسانًا عظيمًا غنيًا قبل ألوف السنين. مرة ثانية شاهد رؤيا تخيل فيها نفسه وقد صعد إلى السماء فلم يجد اسمه مكتوبًا هناك فأُعيد إلى الأرض. بيَّنتُ له أن هذه الأمور إنما هي خرافات، ومن غير المنطقي الإيمان بها لأنها من عمل الشيطان.

وما يؤسَف له هو أن أناسًا مثقَّفين يؤمنون بهذه التفاهات. كان قرب القلَّاية حمارٌ يرعى فأطلقتُ عليه اسم ناصر وذلك بسبب حيويته. ذات يوم قدم إلى القلَّاية شخص يوناني يعيش في سويسرا وسَمِعَني أنادي الحمار باسم ناصر. عندما عاد بعد فترة زمنية كان يحمل معه علبتي حلوى: واحدة بسيطة وأخرى ممتازة. أعطاني علبة الحلوى البسيطة، وحمل العلبة الجيدة ليقدّمها إلى ناصر. فقد ظنّ أن ناصر هذا تقمَّص وأصبحَ حمارًا، وتحول ظنُّه إلى يقين. وعبثًا حاولت إفهامه أني أطلقتُ على الحمار اسم ناصر لقوّته ومناعته وحيويّته. لم يصَدِّق ذلك.

وهذه حادثة أخرى أشدُّ وقعًا من الأولى. قبل سنوات جاء بعض الشبان الألمان إلى كريت لإقامةِ صلاةٍ يتذكرون فيها الجنود الالمان الذين سقطوا خلال الحرب العالمية الثانية. خلال الصلاة مرّ بقربهم شخص كريتي مع حماره المحمَّل بالبضائع. عندما رأى الحمار الناس المجتمعين راح ينهقُ. أحدُ الالمان ظنَّ أن الحمار هو أخوه الذي قُتل في الحرب، وتقمّص، وعندما عرفه حيّاه بالنهيق. وهكذا فعل الرجل فقد ردَّ التحيّة للحمار بأحسنَ منها ورحَّب به على الطريقة العسكرية.

بعدها قال الرجل الألماني للكريتي: «كم تريدُ ثمن الحمار؟» نَهَره الرجل الكريتي ورفض البيع. راح الألماني يعدّ الأموال ويجادل الرجل الذي طرده ولم يردَّ عليه. هنا تدخَّل أحد الأشخاص وأقنع الكريتي ببيع حماره وشراء سيارة بالمال، فَقَبِلَ وأنزل الحمولة وسلَّم الحمار للألماني الذي قاده وعاد به إلى ألمانيا والدموع في عينيه.

– هل أنت جاد، ياروندا؟

– إنها حادثة حقيقية سمعتها من أناس جديرين بالثقة.

فيما يختصّ بنسك الهندوسيين

– ياروندا! الهندوسيون[1] يصلون إلى حالة يتمكنون فيها من السيطرة على النفس؛ هل يساعدهم على ذلك النسكُ الكبيرُ الذي يمارسونه بواسطة طريقة اليوغا؟

– يفعلون ذلك، ولكن ما النفعُ من كلّ هذه الأمور؟ التعفّف الأرثوذكسي يتطلع دومًا إلى غاية روحيّة سامية وهي تقديس النفس. أما نسكهم العالمي الشيطاني فهدفه ليونة أجسامهم وأعضائهم. يهدفون إلى حركات يُلْوُون فيها أيديهم وأرجلهم على غرار الرسوم المتحركة فيصفّق لهم بعض الأغبياء وتَهزأ بهم الشياطين السخفاء. يضعون رِجْلًا على كتف ورِجلًا أخرى على كتف أخرى وهكذا يمارسون الصلاة.

يمارسون تمرينًا معينًا: يضربون كيسًا من حصى بأيديهم لساعات طويلة حتى يتفتّت الحصى ويصبح ناعمًا كالحنطة. وقد يكسرون

---

١ كلام الياروندا يشمل كلّ المنظمات العصرية الحديثة؛ التي أخذت اليوغا والتأمل الهوائي تقنيات للارتفاع والنشوة.

حجارة أو أخشابًا. وقد يكون هناك تفسير لكلّ ما يفعلونه. يسحبون لسانهم مثلاً ليلامس أنفهُم أو يرجعونه إلى أقصى الحنجرة فيشعرون بإثارة وببعض الحلاوة فيصرخون: «هذا هو الرحيق الإلهي!» أو قد يضربون على بعض الأعصاب القريبة من الأذن فَتَطِنُّ الموسيقى. يضربون عيونهم فيشاهدون النجوم. يجلسون في الشمس وعيونهم مفتوحة ويغلقونها فيشاهدون نورًا ويهتفون: «قد رأينا النور غيرَ المنظور!» ولكن الشيطان يعطيهم أنوارًا ويُنَمّي فيهم الخيال دون الضرب على العيون وتركها مفتوحة في الشمس. فالشيطان يحاول دائمًا – ومن غير دعوة – أن يُضلّنا ويُظهر لنا أنوارًا. فكيف إذا دعوناه؟ أنه ينتظر هذه الفرصة!

– هل يوحي لهم الشيطان مزاعمَ مختلفة؟

– نعم. إنه ينمّي فيهم الخيال بدرجة عميقة ثم يُضِلُّهُم.

يذهب البعض من أبنائنا إلى الهند، فيعلِّمهم الهنود بعض الشتائم باللغة الهندية تطال المسيح ووالدة الإله والقدّيسين. يعرف البعض أنها تجديفات ويجهل البعض الآخر ذلك. ومن ثم يصابون بمسٍّ شيطاني، فيبدأون بالتفوّه بكلمات لا يمكن التلفظ بها أو وصفها، ويخرجون عن طورهم، فيظنُّ البعض ممن يراهم أنهم في حالة نشوة روحيّة في حين أن حالتهم حالة شيطانيّة.

الهندوسية تسبّبت بأذى كبير

الشعب الهندي شعب ذكي، ذو قلب كبير، يعاني من قلق ما ورائي، ويهتمّ بالفلسفة الكاذبة، والسِّحر والضَّلال. رؤساؤهم كالثيران

ضخامةً، والكثيرون يموتون من الجوع. يأتون إلى اليونان ويخدعون الناسَ بالنيرڤانا والتقمّصِ والتسكع. يَخلِطُون في كتبهم مقاطع من الكتاب المقدّس بالفيلوكاليا وبعض الأقوال الأبائية فيجذبون الناس. أين كان الأرثوذكس قديمًا من الإيمان بهذه المعتقدات الهندوسية؟ اليوم، وللأسف، فإن بعض المستقيمي الرأي يريدون تفاهات كهذه، وينفقون من أجلها الأموال. لقد تسببت الهندوسية بأذى كبير...

– ياروندا! هل يوجد في الهند مسيحيون أرثوذكسيون؟

– قِلّة نادرة. لقد تحوَّل قسم منهم إلى الكاثوليك وقسم آخر الى البروتستانت. ما تظهره الديانات والمعتقدات الأخرى من عجائب لا يمتّ بصلة إلى عجائب ديانتنا. ما يطلبه المسيح منا هو التفاني. لا يريد أن نُحِبَّه لأنه كُلِّيّ القوّة. إن شاء يستطيع اجتراح عجيبة ما فيؤمن العالم به فورًا. ولكنه بهذه الطريقة يقيِّد حرية الإنسان، لذلك قال: «طوبى للذين لم يروا وآمنوا (يو ٢٠: ٢٩).

الأرثوذكسية لديها الأعجوبة والنعمة الإلهية. الهندوسية لديها السِّحر والفلسفة. استُبدلت الأعجوبة بالسِّحر، والنعمة الإلهية بالفلسفة. الشيطان يمنح السَحَرة قوّة لأنهم يعطونه حقوقًا، وهكذا يجترحون بعض العجائب الكاذبة ويخدعون الناس فيندهشون منها. مَن يجترح هذه العجائب الكاذبة لا يمتّ بصلة إلى المسيح على الإطلاق، وإنما يقوم بأعمال خدّاعة شيطانيّة. فالشيطان همّه الخداع والضلالة وهو لا يعرف أن ينطق بالحقيقة.

من يعرف القليل عن الأرثوذكسية يكشف حياة السَحَرة المشوِّشة، مقارنة مع حياة الأرثوذكسيين النقية الهادفة إلى السمو الأعلى. وهو يشاهد أناسًا يتحلَّون بالقداسة ويجترحون عجائب حقيقية.

الصلاح في الأرثوذكسية هو فيضٌ من محبة الإنسان لله وللقريب. أما كلّ الصالحات الأخرى التي تَتِمُّ على أيدي مُحِبّي المجدِ والمُضِلّين فليس فيها شيء من روحانية المسيحية، وإنما فيها عنصر بشري جيِّد. المسيحي الذي يعيش الحياة الأرثوذكسية بشكل صحيح متواضعٌ محبٌّ يُضحّي ويعطي ذاتَه للقريب. يقوم بالنسك والصوم والسهرانيات وذلك بدافع من محبته لله وليس بأي هدف آخر.

لقد جاء المسيح إلى العالم وصُلِبَ بدافع محبّتِه للعالم. صُلِبَ ثم قام وملأ الكلّ فرحًا. إنه أمر رخيص أن يلتمس المرء أفراحًا روحيّة مختلفة عن فرح المسيح. وقد يعطي الله الإنسان أن يذوق الحلاوة السماوية ، وينقلها إلى كلّ من حوله ومَن يراه؛ في حين أن الآخرين المنهمكين بالفلسفات الهندوسية واليوغا يتطلعون من أجل الوصول إلى حالة روحيّة – قد تكون كاذبة –، إلى الشعور بالبهجة، أو تخطّي الآخرين دون أن يعيروهم اهتمامًا.

لنفترض أن هندوسيًا يمارسُ فن التركيز في مكان مُحاذٍ للبحر. وفي تلك اللحظة سقط أحدهم في الماء وراح يغرق. هذا الهندوسي لن يحرّك ساكنًا وسيتابع تركيزه غير مبالٍ بما جرى لكي لا يُحرَم من البهجة التي يشعر بها. أما إذا كان هناك راهبٌ أرثوذكسيٌّ يصلي صلاة يسوع ويمضَغُ حلاوة الصلاة عَسَلًا في فمه، وحدث ما حدث، فإنه يترك مِسْبَحَتَه ويرمي بنفسه في الماء لإنقاذ الشخص المُشرِف على الغرق.

ضلال البشر

– يارونداا! عندما يأتي كلّ من النبي إيليا وأخنوخ ليكرزا بالتوبة، فهل سيعود العالم إلى صوابه؟

– ذوو المؤهّلات الحسنة يفطنون إلى ذلك، أما الذين يفتقرون إلى هذه المؤهّلات فلن يفهموا ماذا يجري وسيضِلُّون. لقد سبق وأنذَرَنا المسيح بالاحتراس لأنه «سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة، ويعطون علامات وعجائب لكي يُضِلُّوا المختارين أيضًا لو أمكن» (مر ١٣: ٢٢).

هناك من يعتقد ويعتبر بعضَ المُضِلِّين بمثابة أنبياء. قبل بضع سنوات كان شخص بروتستانتي يحمل حقيبةً جلدية كُتِبَ عليها «أنا هو النبي إيليا» ويجولُ بين الناس. كان يلبس قميصًا دونَ أكمامٍ ويحمل الكتاب المقدّس باللغة الإنكليزية قائلًا: «إنَّه نزل من السماء». وعندما سُئل عن إيمانه وانتمائه الديني أجاب: «هذه أمور سخيفة ضالة. يومذاك لم يكن هناك ديانات. كلّ الفئات من كاثوليكيين وبروتستانت وخمسينيين وهراطقة سواسية». أَرسلَ رسائلَ متعددة. كتب عن بعض مقاطع من الكتاب المقدّس وكلّها موسومة بالفكر البروتستانتي. آمن به بعض الناس وأرادوا إذاعة الخبر: «النبي إيليا قد أتى». «هل أنتم على ما يرام؟» قلت لهم: العالم البائس مصاب بدوار...

الإنسان يُخطِئُ عند سماعه فقط ما يقوله هؤلاء المُضِلُّون. يقول البعض: إنْ آمنتُ أن شيئًا سيحدثُ فسيَحدثُ. وراء هذا الإيمان بالذات يختبئ شيطان. لقد جعلوا من ذواتهم آلهةً وتعرَّوا من نعمةِ الله. همُّهم خداع العالم بهذه المعتقدات.

رجل في العقد الخامس من عمره كان يدَّعي أنه خريج مدرسة خالكي وكان يتفوه في الوقت نفسه بفلسفات هندوسية مختلفة. حذَّرته من إلحاق الشرّ والأذى بنفسه وبالآخرين، إن هو تفوه بهذه السخافات الهندية، والإصابة بمسّ شيطاني.

– يارونداا! لماذا بعض الفئات الروحيّة في اليونان تظهر ذاتها كجمعيات وليس كديانات؟

– يفعلون ذلك للضلال. ففي الوقت الذي أبطل فيه القدّيس قسطنطين عبادةَ الأصنام، وجعل المسيحية الديانةَ الرسميةَ في الامبراطورية، نرى بعض هذه الفئات تبادِرُ إلى نشر عبادة الأصنام من جديد: يسمحون ببناء الجوامع، يُلقون المحاضرات بحرِّية، يؤسّسون مراكزَ للمهتدين، يسمحون للماسونيين وشهود يهوه بممارسة نشاطهم بحريّة، يطلقون النار على الأرثوذكسية. ولكن كلّ ذلك سيتبدَّدُ ويتحطَّمُ ولن يثبت. والناس البسطاء البؤساء يقعون في الشِّرك بسبب ابتعادهم عن الله وانغماسهم في الظلمة.

أَخْبَروني أن شابّين مضيا إلى حَبْرُون للحج فأعطوهما قلنسوتين يهوديتين من أجل السجود على قبر ابراهيم. ما النفع من حَجِّهما؟ وهل يجوزُ استعمالُ الأدوات اليهودية؟ ماذا يمكننا القول؟ تشوشُ كبير! في باريس كُتب خارج إحدى الكنائس الكاثوليكية: هنا تعطى دروس في الصلاة بطريقة اليوغا. تصوري إلى أي حدّ وصلوا! وكيف لا تكون هناك مشاكلُ نفسيّة وإصاباتٌ بالجنون؟ ماذا يطلب بعض الكاثوليك والبروتستانت؟ في المقابل، تولّدت لدى البعض من هؤلاء قناعةٌ بأن الإنسانَ الذي يعتمد في الكنيسة الأرثوذكسية يتغيَّر ويُولدُ من جديد وتتلاشى مشاكله النفسيّة.

أراد أحد الأشخاص البروتستانت أن يصبح أرثوذكسيًا. فنصحتُهُم بأن لا يُعَمِّدُوه لأنه غيرُ مستعدٍ للمعمودية. فلم يريدوا أن يسمعوا؛ وكرّرت عليهم ذلك محذِّرًا، فلم يستجيبوا للطلب، ومَضَوا به إلى البحر وعمَّدوه. بعد بضعة أيام جاء هذا الرجل يقول لي: «لقد

تعمَّدت ولكن المعموديةَ لم تشفني من مشاكلي النفسيّة». أجبته: «هل تعمَّدْت لتتخلصَ من مشاكلك النفسيّة؟ المعموديةُ أعظمُ من ذلك. إن شعرتَ بضرورتها وفهمت قيمتَها فإن المشاكلَ التي تعاني منها تتبدّدُ تلقائيًا. أما إذا كنت تبغي المعموديةَ لتنعتقَ من مشاكلك النفسيّة فعبثًا تحاول».

يشوّشون الأعجوبةَ بالسِّحر. لا يستطعيون فصل الذهب عن البرونز. قد يعتمد بروتستانتي في الكنيسة الأرثوذكسية، ثم يتحوّل الى الكاثوليكية، وعندما لا يشعر بالراحة يعود الى البروتستانتية أو الأرثوذكسية. أحد الأشخاص الكاثوليك اعتمد في الكنيسة الأرثوذكسية وصار راهبًا وعاش تسع سنوات في أحد الأديار. وأخيرًا جاء إلى القلّاية ليخبرَني بأنه يودُّ الذهابَ الى العالم ليتزوج ويختبر الحياة العالمية كإنسان أرثوذكسي. أتسعمين هذا الحديث؟ أتفهمينه؟ أنا لا أستطيع أن أفهمَ هذا الأمر.

العودة إلى الأرثوذكسية

العالم اليوم يهرب من الأمور الصحيحة ليرتمي في الأمور المُسْتَغْرَبَة حيث يجد راحتَه. يَمضي الناس إلى الهند يَشدُّهُم إلى هذا البلد السحرُ الذي يُمارَس فيه، فيما هم يجهلون الجبلَ المقدَّس القريب منهم والذي يكمن فيه السرُّ الحقيقي للحياة المسيحية.

قصد أحدُ التلامذة الهند وأمضى في هذا البلد ثلاثَ سنوات ونصف يفتّش عن الحقيقة في ما يتعلق بالديانات. قال له أحد الهنود: «تريد الحقيقةَ. إنها ليست هنا. إنها موجودةٌ في الأرثوذكسية، ففيها يوجد

النور. عدْ إلى الجبل المقدّس وستجد هناك ما تطلبه». وهكذا عاد الى اليونان وجاء الى الجبل المقدّس.

– ياروندا! إنسان أرثوذكسي تعاطى مع الهندوسيين ثم تاب. هل يُقبل مجدّدًا في الكنيسة الأرثوذكسية؟

– أولًا يحتاج هذا الإنسان إلى توبة كبيرة. ومن ثم إلى إعادة مَسْحِه بالميرون. كما يتوجبُ عليه تقديمَ صَكِّ إيمان يُعلِنُ فيه شَجْبَ ضلالتِه والإعترافَ بالإيمان الأرثوذكسي، ليعود مجدّدًا عضوًا فاعلًا في الكنيسة الأرثوذكسية. بعد ذلك يتلو الكاهن الصلوات الخاصة بالعائدين إلى الإيمان المستقيم ويمسحُه بالميرون المقدّس.

أرى بعض الشبان والشابات من الذين لم يقرأُوا فصلًا واحدًا من الإنجيل يقرأون عن «البراهما» (روح الكون العليا وجوهره في الفلسفة الهندوسيّة) والبوذية والقرآن، ويَمضُون إلى الهند. من ثم لا يَشْعُرون بالراحة ويعودون إلى الأرثوذكسية، ولكن بعد أن يكونوا قد حملوا معهم ميكروباتٍ كثيرةً تجعلُهم بعيدين عن الحقيقة التي يَنْشُدُونَها. على المرء أن يعرف الأرثوذكسية ثم يقارنها مع غيرها من المعتقدات التي يسمع عنها؛ وعندها يستطيع أن يفصل الذهب عن النحاس، أو يعرف نسبة قيراط الذهب. فليس كلّ ما يلمع ذهبًا.

ما يلفت الانتباه هو أن الإنسان المتكبر هو الذي يغادر أرثوذكسيته، بينما المتواضع لا يغادرها أبدًا.

القسم الخامس

قوّة سر الاعتراف

«لكي يشعر الإنسان بالراحة عليه أن يعترف، طارحًا المكر من داخله، فاتحًا قلبه للأب الروحي، مُقِرًّا بزلّاته، متواضعًا، وعندها تنفتح أبوابُ السماء وتحلَّ عليه نعمة الله بغزارة.»

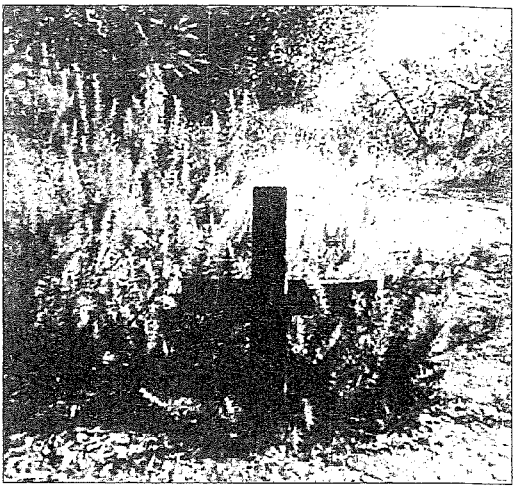

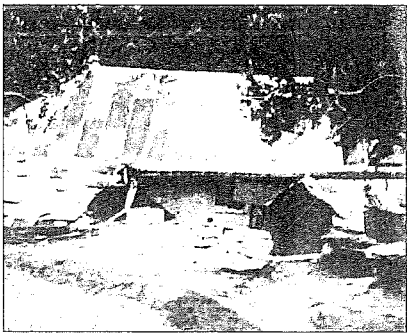

قُلّاية الصليب حيث نسك الياروندا
مع البابا تيخن

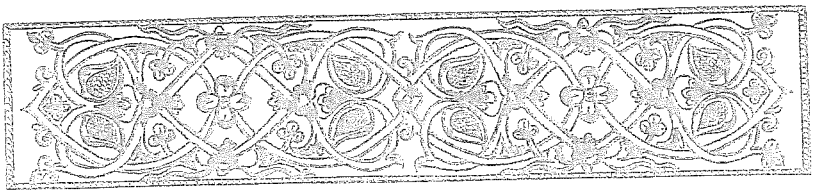

الفصل الأول

ضرورة المرشد الروحي

الإنسان يتحرّر من الخطيئة بواسطة الإعتراف

يا روندا! كان المسيحيون الأوائلُ يمارِسُون سرَّ الإعتراف بصورة عَلَنيّة.

– السنوات الأولى للمسيحية حالة خاصة واليوم حالة أخرى. هذا الإعتراف العلني لا يساعد في أيامنا هذه.

– لماذا؟ هل كانوا أكثر غَيْرَةً؟

– لقد كانوا أكثرَ غَيْرَةً ولم يكن لديهم ما لدى الناس اليوم. اليوم يطلِّقُ الرجال نساءَهم على نحو غيرِ متوقع، وهذا ما لم يحصل قديمًا. لقد ابتعد الناس عن سرِّ الإعتراف، ولذلك يَخْتَنِقُون في أفكارهم وأهوائهم. كثيرون يأتون إليَّ طالبين المساعدة في حل إحدى مشاكلهم وهم لا يمارسون سرَّ الإعتراف ولا يرتادُون الكنيسة للصلاة. «كيف لي أن أشفِيَكُم. توبوا عن خطاياكم واذهبوا إلى الكنيسة واعترفوا بها (الخطايا) أمام المسيحِ بحضور أبيكم الروحي (المعرّف) لتنالوا بَرَكة

السر وأنا أساعدُكم بالصلاة لكي تتعافوا. أَنَسيْتُم وجودَ الحياة الأخرى وضرورةَ الاستعداد والتهيُّؤ لها!» «كلّ هذه الأمور – يجيبونني – لا تهمنا مطلقًا، الوسطاء والسَّحرة لم يقدروا على شفائنا وقد علمنا أنك تستطيع، فافعل ذلك».

تحدّثينهم عن الإعترافِ والحياة الثانيةِ فيقلِبُون شفاهَهُم ويتمتمون: «خرافات». ومن جهة أخرى يطلبون المساعدة. كيف؟ أبطريقة سحرية يتعافون؟

كثيرون يعانُون المشاكلَ بفعل الخطايا، لا يَقصِدُون الأب الروحي الذي يستطيع تقديم مساعدة إيجابية، وانما يقصدون الأطباء النفسانيين. يحدِّثونهم عن تاريخ حياتهم فيدفعُهم هؤلاء الأطباء إلى وسط نهر ويطلبون منهم اجتيازَه. ما الذي يحصل؟ بعضهم يختنق ويغرق، وبعضهم يجتاز، ولكن إلى أين؟ لو مضى هؤلاء إلى كاهن أب روحي واعترفوا له، فإن جسرًا يمكّنهم من اجتياز النهر والوصول بسلام إلى الضفة الأخرى حيث ينعمون هناك بالنعمة الإلهية التي تحررهم من الخطيئة.

– ياروندا! يدعي البعض أنهم لا يجدون آباء روحيين جيدين ولهذا فهم لا يعترفون...

– هذه ادّعاءات لتبرير تصرفاتهم. كلّ كاهن قانوني هو أب روحي يملك سلطانًا عندما يلبس بطرشيلا. يتمِّم السر، يقتني النعمة الإلهية، وعند تلاوته الصلاة – صلاة الحلّ – فإن الله يغفر لنا كلّ الخطايا التي اعترفنا بها بتوبة صادقة. ويتوقف علينا نحن مقدار المساعدة التي سننالها من سر الإعتراف.

جاء أحد الأشخاص، وهو يعاني من مشاكلَ نفسيّة، طالبًا المساعدة مُؤمِنًا بأنني أملك موهبة الرؤيا وقادرٌ بالفعل على مساعدته. وعندما

طلبت منه التفتيش عن أب روحي والإعترافَ أمامه اعترضَ قائلًا: «أين هُمُ الآباء الروحيون الجيّدون؟»... يريدون المساعدة ولكنهم لا يتقبّلون النصيحةَ ويذهب تعبُهم سدىً.

لكنني أرى تِقَنِيَّةً جديدة للشيطان. يُدخل في تفكيرهم أنهم إنْ وَفَوا نذرًا أو حجُّوا إلى أحد الأماكن المقدّسة فإنهم يكونون على ما يرام روحيًا. لذلك فإن كثيرينَ يقصِدُون الأديار والأماكن المقدّسة يعلّقون النذور ويضيئون الشموع ويرسمون إشارة الصليب وقد يذرفون بعض الدموع أو يتلون بعض الصلوات ويكتفون بكلّ ذلك، فلا توبة ولا سر اعتراف وهكذا يفرح الشرّير.

– ياروندا! أيمكن لإنسان لا يمارس سرَّ الإعتراف أن يشعُرَ براحة داخلية؟

– أنّى له أن يكون مرتاحًا؟ لكي يشعر الإنسان بالراحة عليه أن يتخلّى عن المَكر. وهذا لا يحصل إلا بواسطة سر الإعتراف. عندما يفتح الإنسان قلبَه لأبيه الروحي معترِفًا بزلّاته بتواضع، فإن أبوابَ السماءِ تنفتحُ وتحلُّ عليه نعمة الله بغزارة ويتحَرَّر. قَبْلَ الإعتراف يخيِّم الضباب وتتعذّر الرؤية وتُبَرَّر الزلّات. فكيف يرى الإنسان الأشياء بوضوح إن كان الذهن مظلمًا بسبب الخطايا؟ الإعتراف يبدّد الضباب ويجلو الأفق وينقشع الجوُّ فتكون الرؤية جيدة واضحة. لذلك كنت أُرسل طالبيّ النُّصْحِ إلى الإعترافِ أولًا، ومن ثم العودة للتحدّث والمناقشة. فبالإعتراف يطرح الإنسان من داخله كلّ ما هو غير نافع ويثمر روحيًا.

ذات يوم كنت أَحْرُثُ الحقل لكي أزرعَ بعض أغراس البندورة. مرَّ أحد الأشخاص وقال لي: «ماذا تفعل؟» أجبته: «أمارس سر الإعتراف مع حقلي». – «وهل يحتاج الحقلُ الى الإعتراف؟» «طبعًا،

أجبتُ، فالحقل بحاجة إلى الإعتراف، أي تنقيتُه من الحجارة والأشواك والأعشاب، وعندها ينتجُ ثمارًا شهيّة جيدة، وبخلاف ذلك فإن هذه الثمار تكون مريضةً هزيلة صفراء...»

مشيئة الله أن يخلص الإنسان بواسطة الإنسان

– يارونداا! عندما أواجه مشكلة وأُصلّي، فكيف أفهم ما هي مشيئةُ الله؟

– مشيئة الله لن تُفهَم هكذا. الأفضلَ أن تَسأَلي من أجل مشكلتك. لا تطلبي إعلانًا من الله عندما يُمكِنُك الإسترشاد من أحد الأشخاص. مضى أحد الأشخاص إلى إحدى الكنائس ووقف أمام إيقونة السَّيدة العذراء وقال: يا عذرائي! هل أستطيع أن آخذَ الأموال من الصندوق؟ فقال له فكرُه: خُذْها. نعم سآخذها. وفتح الصندوقَ وأفرغه من المال. أعاد الكَرَّة مرة ثانية وثالثة حتى وقع وكيل الكنيسةِ في الإرتياب وتساءَل: ثمة شخص يأخذ الأموال من الصندوق. مَن هو؟ وبعد أن راقب المكان، شاهد ذلك الشخص يقف كالعادة أمام الإيقونة ويكرر الكلماتِ ذاتَها فَقَبَضَ عليه.

بوجود إنسان روحاني بقُربِكِ، يمكنكِ الاعتماد عليه وطرح الأسئلة وهو يُجيبك؛ أما إذا كنتِ في الصحراء (أي وحيدة في مكان بعيد) مثلًا، ولا أحدَ قربك لتسأليه، فإن الإلهَ الصالح نفسَه يصبح أبًا روحيًا لك، فيُنيرك ويُعلّمك ويطفِئُ عَطَشَ الطاعةِ في داخلك. وعندما لا تجدين أحدًا يفسِّر لك مقطعًا من الكتاب المقدّس، فإن الله يُنير ذهنَك وتفهمين ذلك المقطع.

– ياروندا! إن حدث شيء في جهادي فكيف أستطيع أن أميز إن كان من الشيطان أم من عدم انتباهي؟

– عليكِ بالسؤال.

– ألا أستطيعُ أن أَفهمَ ذلك بمفردي؟

– إن فهمتِ فلن تقدِري أن تكوني واثقة تمامًا منه. أنا شخصيًا أسأل آخرين عن موضوع خاص يتعلق بي. وإن وجدت بنفسي الحلّ لمسألة شخصية فإني اعتبره – وإن كان حلاً حكيمًا – حلاً أحمق. وفي سؤالي فإني لا أَمضي إلى إنسان يُريحني، وإنما إلى إنسان يجهل ذلك. فالطبيبُ بحاجة إلى التشاور مع طبيب آخر حتى ولو شَخَّص المرض تشخيصًا جيدًا. ومهما كانت قامةُ الإنسان الروحيّة فإنه لن يشعر بالراحة إذا حلَّ مشاكِلَه الروحيّة الشخصيّة بمفرده، ذلك أن الله يريد من الإنسان أن يطلب المساعدةَ من الإنسان وأن يتقدَّم من خلال الإنسان. هكذا دبَّر الاله الصالحُ لكي يتواضعَ الإنسان.

لذا يجب على المرء أن يسعى قاصدًا الأب الروحي ويعرضَ عليه أفكاره وحالاته لكي يقوم ذلك الأب بإرشاده. وعلى الإنسان أن لا يقرّر بمفرده حلَّ مشاكِلِه الصعبة، وأن لا يجعل من نفسه حقلَ تجارب في مواجهة الصعاب التي تعترضه، لأن الشيطان كامنٌ هناك للتشويش وخَلْقِ المشاكل. وقد يصل البعض إلى درجة يفرضون فيها قانونًا على أنفسهم وهذا أمر خطير للغاية.

من لا يلجأ إلى الأب الروحي يسترشده في مسيرة حياته الروحيّة، يتعب ويتشوّش فكره، ونادرًا ما يصل إلى هدفه. ومهما كان الإنسان حكيمًا واثقًا بنفسه، فإنه في محاولته حلَّ مشاكله بمفرده يتخبَّطُ في الظلام. أما المتواضعُ الذي يقصد الأب الروحي بثقة ونكران ذات طالبًا

رأيَه أمام الله فإنه ينال المساعدة، لأن الله يُنيرُ الأبَ الروحي ويمنحُه الجواب الصحيح.

عندما يأتي أحد الأشخاص طالبًا مني المساعدة وفي يقينه أنَّني إنسان قدِّيس – والواقع عكس ذلك – فإني ألاحظُ أن شعورًا بالتغيير يطرأُ في داخلي وما أقولُه لا يكون صادرًا عني. من هنا أفهم بوضوح أن ذلك الإنسان قد أتى بورعٍ وأن الله منحني هذه الحالة كي لا أَظْلُمَ ذلكَ الإنسان. إن الله – في مثل هذه الحالات – هو الذي يُعَلِّمُك فتستطيعين أن تقولي ماذا سيحدث ومتى سيحدث وكيف يمكن مواجهة أمر ما.

ضرورة الأب الروحي في الحياة الروحيّة

ليس المهم أن يجد الناس في هذه الأيام أبًا روحيًا، وإنما المهم أن يَثِقُوا به ويعترفوا بحضوره بخطاياهم ويبوحوا بأفكارهم ويسترشدوا بآرائه واثقين أنها صوتُ الله لهم. إن كان لديهم أبٌ روحي ويمارسون الصلوات ويرتادون الكنيسة ويتناولون جسد الرب فهم في مأمن في هذه الحياة وعليهم أن لا يخافوا شيئًا.

عمل الأب الروحي هو متابعةُ النفس كي لا تَضِلّ. قد ينجح إنسان ما في تلقّي المساعدة في القراءات الروحيّة، ولكن بغياب الأب الروحي فقد يعطي لقراءاته تفسيرات خاطئة ويقع في الضلال.

عندما يقصد شخص ما مكانًا معينًا ولا يعرف الطريق معرفة جيدة فإنه يستعين بالخريطة ويتوقفُ مرات للسؤال مخافةَ أن يَضِلَّ الطريق، إذ ثَمَّة خطر في تقاطعِ الطُرق وسلوك الإتجاه الخاطئ والوقوع في هاوية ما

أو مواجهة خطر الموت. وقد يسأل الإنسان عن الطريق، ولكنه لا ينتبه للإشارات والعلامات فيتأذى. وقد يصادف شخصًا يُحَذِّرُه من كوعٍ خَطِرٍ أو هاوية سحيقة؛ هذا في الحياة العامّة، فما قولُكِ بالحياةِ الروحيّة؟ من الضروري أن يلجأ المؤمنُ إلى أب روحي يقوده بفضل نصائحه المُلهَمة من اللهِ إلى الطريق الصحيح، ويساعده بفضل سر الإعتراف؛ وهكذا يحيا حياة روحيّةً أرثوذكسيةً ويَأْمَنُ الوقوعَ في الحُفر والأخطار.

وكما يختار الإنسان الطبيبَ البارع الذي يثق به لمعالجة أمراض الجسد، هكذا عليه أن يختارَ الأبَ الروحي الذي يعالج أمراض النفس ويُعيدُ إليها صحتها.

لا تختلسنّ مكانة الأب الروحي

– ياروندا! عندما يشاهد الناس جُبَّةً سوداء يبوحون لنا بألمهم ومشاكلهم وخطاياهم. كيف يجب أن نتعامل معهم؟

– عندما يتوجه هؤلاء نحوكنّ لمعالجة مشاكلهم إسألْنَهم: «هل لديكُم أب روحي؟» الناس الذين يأتون إلى القلّاية طلبًا للنصيحة أَسْأَلُهُم: «هل لكُم أب روحي؟ أنا لست أبًا روحيًا. اذهبوا إلى أبيكم الروحي وافعلوا ما يقولُه لكم». فالأبُ الروحي هو الذي يصغي إلى اعترافاتهم وتوبتهم ويساعدهم في عدم إعطاء حقوق للشيطان. **أنا أفهمُ أن تسمَعَ راهبةٌ متقدمة في الحياة الرَّهبانيّة لمرأة متألمةٍ تُعاني من مشاكلَ ومن ثم تُرسِلُها إلى أب روحي. أما أن تستمرَّ في الحديثِ معها فهذا ما لا أفهمه! إن كانتِ امرأةٌ يائسةٌ لم تذهبْ قَطُّ للاعتراف ولم تَرْتَحْ للأب الروحي فلتستمع الراهبة إليها لمرة واحدة ومن ثم ترسلها مجدّدًا إلى أب روحي آخر وتقول لها: سأُصَلّي من أجلك.**

فالراهبةُ غيرُ مُلْزَمَةٍ بمساعدة الآخرين والاستماع لمشاكلهم؛ الناس لن يتساعدوا بهذه الطريقة. فهم يعانون من تغييراتٍ مُثَلَّثة الأطراف: من أنفسهم، من الآخرين ومن الشيطان. لذا فعندما يأتون إلى هذا المكان (إلى دير الراهبات) فإنهم يجدون تعزية بشرية سرعان ما يختفي أثرها فور عودتهم إلى منازلهم فيمارسون مجدّدًا تصرفاتهم السابقة.

ليس من الحكمة والصواب أن يتحدث الناس عن مشاكلهم إلى راهبة. عليهم أن يفتشوا عن أب روحي، لأنهم يَدَّعون أنهم على خير ما يرام ويُرِيْحُونَ أفكارَهم بطريقة كاذبة مُهمِلِيْنَ الذهابَ إلى أب روحي. هذه تِقَنِيَّةٌ شيطانيّة تُجَنِّبُهُم عدمَ الإعتراف.

يجب أن تفهمْنَ ماهِيَّةَ رسالتِكُنَّ كراهبات وألَّا تُبادِرْنَ إلى القيام بدور المُبشِّر. نحن كرهبان ملزمون بالصلاة من أجل مشاكل الآخرين، ولسنا ملزمين بالانغماس في مشاكلهم. هذا الأمر يقوم به الأب الروحي وهو يتحمل المسؤولية كاملة لأن الكنيسة أعطت له القوّة بواسطة السر (الأبوة الروحيّة منوطة بسر الكهنوت واستنارة الكاهن ليصبح أبًا روحيًا، إذ ليس من الضرورة أن يكون كلُّ كاهن أبًا روحيًا)؛ لأنه يستطيع أن يتابعَهم عن كثب وأن يجدَ حلًا لمشاكلهم، وهذا العمل ليس من اختصاصِ الرهبان. نحن نستطيعُ أن نرفعَ الصلاةَ من أجلهم.

الأب الروحي والمتابعة عن كثب

كما يهتم الإنسان بطبيب العائلة وبوجوده قريبًا منه، هكذا عليه أن يهتم بالأب الروحي وبوجوده قريبًا منه. فالطبيب بوجوده قرب

المريض يستطيع أن يساعِدَه مساعدةً فعّالةً ويتابع تطور وضعه الصحي وإرساله إن اقتضت الحاجة إلى طبيب اختصاصي.

عندما كنت في مستشفى ساناتوريو (حيث كنت أعالج من تضخم رئوي) لفَتَ نظري الأمرُ التالي: كثيرون من الأغنياء المصابين بداءِ السلّ لازموا منازلهم للمعالجة، يتابع وضعَهُم الصحي تلامذةُ طبٍّ جامعيون. ولكن المعالجة لم تكن مجدية فاضطروا لتخصيص جناح خاص لهم في المستشفى لمعالجتهم ومتابعة وضعهم عن كثب.

ما أريد قوله هو أن الطبيب المعالج بوجوده قرب المريض يستطيع مراقبة فعاليّةِ الدواء وآثاره الجانبية، كما يمكنه تعديلَ الجرعة أو تغيير الدواء. وهكذا الأب الروحي عليه أن يتابع معالجة النفس عن كثب ليستطيع تقديم المساعدة الفعّالة، لأن النفس مع الزمن تتعرض لتفاعلات وتغييرات لا يمكن معالجة آثارها عن بعد.

قلت مرة لامرأة تَمُرُّ بتجربة مُرَّة: إفعلي هذا الأمر... أطاعتني واجتازت التجربةَ بنجاح. بعد فترةٍ مرَّت بتجربة معاكسة تمامًا للأولى وواجهتُها بالطريقة نفسها فتأذَّت. كان باستطاعتها أن تبعث رسالة أو ترسل إنسانًا فأُخبرها عندها بكيفية التصرّف ولكنتُ وصفت لها دواء آخر ونصيحة أخرى. ولكنَّني لست بأب روحي وهذه ليست من رسالتي كراهب متابعة الناس. لهذا السبب، لم أَعُد أُسْدي النصائح إن كنتُ لا أعرف الشخص معرفة جيدة ولم أكن على علاقة وثيقة به. **ولا ألتزم مع أي شخص يريد متابعة روحيّة بل أنصحه بأن يفتش عن أب روحي لمتابعته والإشراف على تقدّمه الروحي.**

الأب الروحي في العائلة

– يارونداا! ما هي الكتب التي يمكِنُها مساعدةُ الزوجين؟

– يجب أولًا أن لا يبرِّر كلٌّ واحد منهما نفسه. فإذا فعلا ذلك فإن الكتب الروحيّة التي يقرآنها لن تعود عليهما بالنفع. إن كانت نواياهُما حسنةً ويطيعان الأبَ الروحي فإنهما يتخطّيان المشاكل. ومن دون وسيط روحي لا تتم الأمور.

من الأفضل أن يلجأ الزوجان إلى الأب الروحي نفسه. فكل خشبة يحفرها نجاران – كلٌ بحسب طريقته – تفتقر إلى الدِّقة والانسجام. ولكن المؤسف أن الأزواجَ اليوم لديهم أب روحي مختلف، ولذلك فإن الزوجين لا يتساعدان. أعرف زوجين يناسب أحدهما الآخر انتهى بهما الأمر إلى الطلاق، لعدم وجود أب روحي واحد يساعدهما. والعكس كان صحيحًا أيضًا.

ومن الأفضل أيضًا أن يكون للعائلةِ كلِّها أب روحي واحد يستمع إلى الجميع ويعالجُ المواضيع وفقًا للمعطيات المتوفرة. وعندها باستطاعتِه استدعاءُ الأولاد والخروج باستنتاج مما يقوله الأهل. وقد يُرشد الزوجة أو يُرشد الزوج أو يطلب من أقربائهما أو معارفهما المساعدة.

تغيير الأب الروحي

– يارونداا! لنفترض أن شخصًا اضطُرَ لتغيير أبيه الروحي. فهل يعترف مجدّدًا بالخطايا التي سبق واعترف بها؟

– على هذا الشخص أن يُخْبِرَ الأب الروحي الجديد، كما يفعل المريض عند تغييره الطبيب فيخبر الطبيب الجديد عن وضعه الصحي ليستطيع مساعدته.

– ياروندا! عندما يريد أحد الأشخاص أن يغيِّر أباه الروحي ويسألنا عن صحة هذا الأمر وصوابه. فماذا نقول له؟

– ليس حسنًا أن يغيِّر المرء بسهولة أباه الروحي. إن بناءً قيد الإنشاء لا ترتفع مداميكه بصورة سليمة إن غيَّرنا باستمرار المهندسين والبنَّائين.

قديمًا، كان الناس يقصدون الآباء الشيوخ طالبين النُصْحَ لينالوا المساعدة. اليوم يفعلون الشيء ذاته ليقولوا إنَّهم ذهبوا إلى الشيخ الفلاني وطلبوا منه النصح. وقد يحدث أن الشخص دقَّ بابَ الشيخ دون أن يُفتَحَ له أو حصل معه جدال حاد. وهكذا ينتهي بهم المطاف بالدَّوران من باب إلى آخر دون ثبات روحي فيُصَابُون بالتشوش.

آخرون أيضًا يقترفون خطيئة ولا يقصدون أباهم الروحي للاعتراف بها، وإنما يعترفون عند أب روحي آخر. وبعد فترة يقترفون الخطيئة نفسها فيقصدون أبًا روحيًا آخر، وهكذا دواليك، لكي يظهروا للأب الروحي أنهم سقطوا في الخطيئة مرة واحدة فقط؛ وبذلك يستمرّون في السقوط ويلبثون عديمي التقويم.

وهناك بعض الناس الذين يتحاشَون أن يُخْبِروا أباهم الروحي شيئًا ما رُغْمَ علمهم أنه لن يُنْشَرَ الخبر وأنه سيساعدهم. ولكنهم يخبرون أصدقاءَهم، الذين سينقلون الخبر إلى آخرين، وهم بالتأكيد عاجزون عن مد يدّ المساعدة.

كنت مبتدِئًا في دير اسفغمانو عندما جاء أحد الأشخاص ليصير راهبًا. أمضى فترة زمنية محدّدة ثم استبدَّتْ به أفكار تَحُثُّه على مغادرة

الدير. لم يقصد رئيس الدير ليكشف له عن أفكاره ولا الأب الروحي المسؤول عنه في الدير ليعترفَ له، بل أَسَرَّ بذلك إلى عامل يشتغل في الدير. كنتُ على مقربة منه أُقشِّر بصلًا خارج المطبخ عندما بدأ يتحدث معه. قال له: «أَشعُر بالأسف لأنني أصبحت راهبًا». سأله العامل: «عند قدومك إلى الدير ألم تُمضِ فيه فترةً تجريبية؟» – «نعم قضيتُ فيه سنتين». «حسنًا قال العامل فلماذا لم تغادرْ في وقت مبكِّر؟» – «لم أفعلْ ذلك». – «هل فرضوا عليك الرهبَنَة بالقوّة؟» – «كلا. فعلت ذلك بإرادتي». – «هل أخبرتَ رئيس الدير بهذه الأمور؟» – «كلا». – «ولماذا تخبرُني إياها؟ ماذا ستنتفع؟»

أرأيتِ! لقد كشف هذه الأمور لعامل لا يستطيع أن يقدِّم أو يؤخِّر في هذا الموضوع ولم يكشِفْها لرئيس الدير الذي بيده الحلّ والربط. هل هذا الشخص ضعيفُ العقل؟ إنه يملك مجموعة ضخمة من القواميس ويقرأ اللغة اليونانية القديمة من دون أخطاء.

– يارونداا! أيستطيع شخص علماني أن يسأل أخاه الروحي عن مشكلة ما أو تجربة ما عند غياب الأب الروحي؟

– ألا يستطيع أن يُجري مع الأب الروحي اتصالًا هاتفيًا؟ الأخ الروحي لا يستطيع أن يساعد في كلّ الحالات، وقد يسبّب الأذى للسائل رُغم نِيَّته الحسنة. عند الضرورة قد يكون الحلّ متوفرًا باتصال هاتفي مع الأب الروحي. وإذا تعذّر ذلك، فليكن اتصال بأب روحي آخر يتصرف وفق المنهجية الروحيّة ذاتها.

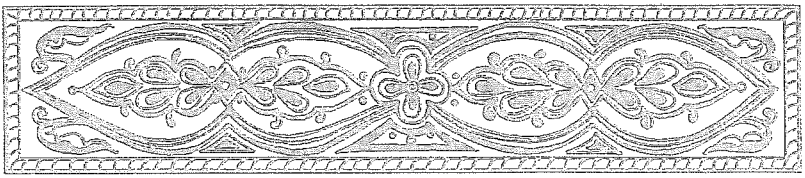

الفصل الثاني
ممارسة سر الإعتراف ممارسة صحيحة

أن نضمّد جراحاتنا

ياروندا! عندما أسقط في جهادي أُصاب بالذُّعر...

– لا تخافي. إنه جهاد، ستُصاب بالجراح. وهذه الجراحات دواؤُها الإعتراف. الجنود في المعركة يصابون فيسرعون إلى الطبيب لكي يضمِّدَ جراحاتِهم، ويعودون لمتابعة المعركة بتفانٍ. والإصابة تُكسِبُهم خبرة يستطيعون بها حماية أنفسهم بشكل أفضل حتى لا يتعرضوا لها ثانية. وهكذا نحن في إصابتنا بالجراح خلال جهادنا، علينا أن نسرع إلى الأب الروحي الذي يكشف عن الجراح ويعالجها لنواصل من جديد الجهاد الحسن. علينا أن نواصل البحث عن الأهواء – أعداء النفس المخيفين – ونعمل على استئصالها.

– ياروندا! البعض لا يعترفون بسبب تفانيهم. «قد نسقط مجدّدًا في الزلّة – يقولون – فلماذا نذهب مجدّدًا للاعتراف؟ أَنستهزِئُ بالكاهن؟»

– هذه المعادلة ليست صحيحة. تصوري جنديًا يُصاب في المعركة فيقول: «لماذا أُضمِّد جراحي قد أصابُ مرة ثانية». ولكنه بذلك يعرِّض نفسه لخطر الإصابة بنزيف يؤدّي إلى الموت.

إذا كان تفانيهم يمنعُهُم من الإعتراف فسينتهي بهم الأمر إلى الفساد، لأن الشيطانَ يُفسد المواهب. الإعتراف ينقّي النفس، والسقوطُ المتكرِّر يسبّب التلوّث، وهكذا نضيف وحلًا إلى الوحل القديم ويصعب عندها تنقية النفس.

ضرورة الإعتراف

– يارونداا! يقول القدّيس مرقس الناسك: «الإنسان الحسّاس يعترف إلى الله ليس بتعدادِ خطاياه، وإنما بصبره على الأحزان التي تصادفه»؛ ماذا يعني ذلك؟

– الأمران يجب أن يحصلا. يعترف المؤمنُ إلى الأب الروحي ويكون قبلًا قد اعترف إلى الله بصلاة متواضعة: «إلهي! لقد أخطأت، فعلت كذا وكذا...» ولكنه في غضون ذلك يقبلُ الأحزانَ التي تصادِفُه بمثابة دواء.

يطلب القدّيس أن تصبري على الأحزان ولا يقصد عدم الإعتراف الأول والثاني. ماذا تعني كلمة «أعترف»؟ ألا تعني «أن أُخرِجَ خارجًا ما لديَّ في الداخل». إن كان لديكِ في داخلكِ صلاحٌ «فاعترفي للرب» (مز ١٠٦: ١)، أي مَجِّدِي الله. وإن كان لديك شرور فاعترفي بخطاياك.

– يارونداا! عندما يعترف إنسان للمرة الأولى هل يحدِّث الأب الروحي عن حياته السابقة بكاملها؟

– في المرة الأولى يعترف اعترافًا شاملًا. فكما أن المريضَ يذكرُ للطبيب كلّ ما جرى معه، هكذا أيضًا فليحاول أن يكشف للأب الروحي تفاصيل حياته فيجد الجرح ويعالجه. مرّات كثيرة لا يُعِيْرُ الإنسان اهتمامًا لجرح صغير أو «رضّة» تكون لها نتائج سلبية. عندما يذهب الإنسان إلى الأب الروحي، فإن عدد الخطايا يتزايد في كلّ مرة لأن الشيطانَ سيحارِبُه لأنه اعترف وأفشَلَ عمله؛ ولكن في النهاية سينخفضُ العدد تدريجيًا...

الإعتراف الصحيح

– لماذا لا نجاهدُ الجهاد المناسب عندما يؤنِّبُنا ضميرُنا؟

– قد يحصل ذلك بسبب الضعف النفسي. قد يقع المرء في تجربة فيصاب بالذُّعر، ويفتقر إلى الرغبة والقوّة النفسيّة الضَّروريتين للجهاد. الإعترافُ وحده يُسَوّي الوضع، فبواسطة الإعتراف يَتَعزَّى الإنسان ويتقوَّى ويجد بفضل النعمة الإلهية الشجاعةَ للجهاد.

إذا لم يُسوِّ وضعه الداخلي، فقد تداهمه تجربة أخرى فيفقد رجاءَه وتخنقه الأفكار ويقف عاجزًا عن الجهاد.

– وإن حدثَ هذا الأمر بتواتر؟

– إن حدث هذا الأمر بتواتر، على الإنسان أن يسوّي وضعه بتواتر، أن يفتح قلبه للأب الروحي، وعند تسوية وضعه عليه أن يجاهد بتفانٍ وعزم ليتقدّم ويستمر.

– يارونداا! أحيانًا لا أشعر بالحاجة إلى الإعتراف. ما السبب؟

– ربما لا تتابعين نفسك. الإعتراف هو سر. اذهبي ببساطة واذكري خطاياك. أليس لديك عناد؟ ألست أنانيّة؟ ألَم تجرحي أختًا؟

ألا تدِيْنِيْنَ؟ إذهبي واعترِفي فيقرأ عليك الأب الروحي صلاة الحلّ. للخطايا الصغيرة وزن أيضًا. عندما ذهبتُ إلى الأب تيخن لأعترِفَ لم تكن هناك أمور جدّية أقولها فقال لي: «كتلٌ رمليّة يا بني، كتلٌ رملية». فالخطايا الصغيرة تتجمع لتصبح كتلةً رملية أثقلَ وزنًا من حجرٍ كبير. الإنسان الذي اقترف خطيئة كبيرة يفكّر فيها باستمرار فيتوب ويتواضع. أما أنتِ فلديك خطايا كثيرة صغيرة، فحاولي أن تكوني دقيقة في الإعتراف. لا يكفي أن يذكر المرء أشياء عامة كأن يقول: إني أغار، إني أغضب، إنما يجب أن يكشف سقطاته بدقّة؛ كما أن عليه أن يقول ماذا فكّر وكيف تصرّف. وبخلاف ذلك فإنه يهزأ بالمسيح. إذا أخفى المريض مرضه فإنه يسيء إلى صحته وقد يعرّض نفسه لخطر الموت، وهكذا فإن من لا يعترف بالحقيقة إلى الأب الروحي يتأذى ولا يحصل على المساعدة الإيجابية. عندما يُقْدِمُ الإنسان على عمل ظلم أو يجرح بتصرفاته إنسانًا آخر، فإن عليه أن يمضي إلى هذا الإنسان طالبًا منه الصَّفْحَ بتواضع ويتصالح معه، ومن ثم يعترف عن سقطته إلى الأب الروحي فينال الحل. وهكذا تحلّ نعمة الله. إن اعترف بزلّته دون أن يسأل الصفح من الإنسان الذي جرحه فإن نفسه لن تهدأ، لأنه لم يتواضع. أما إذا سافر الإنسان المجروح أو مات أو غيّر مكان سكَنه ولم يستطع أن يجده أو يجهل عنوانه، فإن الله يحاسبه عند ذلك حسب نيّته ويسامحه.

– وماذا نفعل إذا طلبنا منه المسامحة ولم يسامحْنا؟

– عندئذ علينا أن نصلي لِيُلَيِّنَ اللهُ قلبَه. ولكن الله قد لا يسمح في بعض الحالات بتليين قلبه لكي نتّعظ ونخاف من الوقوع في الزلّة نفسها مرّة أخرى.

– ياروندا! عندما يقترفُ المرءُ خطيئة خطيرة فهل يمكن تأجيلُ الإعتراف؟

– ولماذا يفعلُ ذلك؟ لكي يَنْتُنَ؟ إن احتفظتِ بشيء فاسد ازداد فسادُه. لماذا يَدَعُ الأمر منتظرًا مرور شهر أو شهرين لكي يذهب بعدها إلى الأب الروحي ويعترف؟ إن كان مصابًا بجرح والجرح مفتوح فهل يدعه شهرًا على حاله دون علاج؟ كما أن ضِيْقَ الوقت يجب أن لا يكونَ سببًا لتأجيلِ الذهاب إلى الأب الروحي، فالإعتراف قد لا يستغرق أكثر من دقيقة واحدة، وبعد ذلك يمكن الانتظار حتى يتأمَّن مُتَّسَعٌ من الوقت يمكِّن الأب الروحي من الجلوس مع الشخص ومناقشته بتروٍ وبُطْءٍ. لا ضرورة لساعات عديدة لكي أكوِّن صورة عن نفسي. عندما يعمل الضَّمير بشكل صحيح يستطيع الإنسان بكلمتين أن يكوِّن صورة عن نفسه وحالته. والعكس صحيح. أحيانًا كثيرة تَرِدُني رسائل من عشرات الصفحات ويمكن اختصارها – ومعظمها من الحواشي – بصفحة واحدة.

تبريرات ذواتنا في الإعتراف تصبح أحمالاً ثقيلة على الضمير

– ياروندا! عندما يعترف إنسان بخطيئة ولا يشعر بألمٍ أَحسَّ به عند اقترافه الخطيئة، فهل يدلّ ذلك على عدم وجود توبة حقيقية؟

– إن كان مضى وقت طويل على اقتراف الخطيئة فإن الجرح يكون قد بدأ بالالتئام، ولهذا السبب لا يشعر بالألم نفسه. المهم هو عدم تبرير الذات في الإعتراف. عندما أَمضي إلى الأب الروحي للاعتراف

أقول مثلًا: «لقد غضبت»، دون ذكر التفاصيل لكي لا يبرِّرَني هذا الأب. من يعترف ويبرِّر ذاته فلن يشعر بالراحة الداخلية وتصبح هذه التبريرات أحمالًا ثقيلة يَنُوءُ تحتها وتعطِّل ضميره. أما صاحب الضَّمير الحيّ فيضخّم زلّاته ويتقبّل قصاصًا أكبر (تدابير يتخذها الأب الروحي ليعيد الصحة إلى المعترف)، فينال نعمة الإعتراف ويشعر بتعزية لا توصف.

بعض الناس يسرقون عنقود عنب فلا يذُوقون طعمَ النوم ويفكّرون دائمًا بزلّتهم ويسرعون للاعتراف. وغيرهم يسرقون سلالًا من العنب ويبرّرون ذواتهم ويوهمون أنفسهم أنَّهم سرقوا عنقودًا واحدًا. أولئك يضخِّمون زلّاتهم الصغيرة ويحزنون ويتألمون لينالوا التعزية الإلهية. هنا تعاينين العدالة الإلهية! وكيف يكافئُ الإله الصالح! هؤلاء يُظهرون زلّاتهم للأب الروحي بتواضع فيتلألأون لأنهم يتقبلون نعمة الله.

ضابط، متقاعد في الجيش، أخبرني بانسحاق عن كلّ ما فعله مذ كان في الثامنة من عمره. أخذ مثلًا طابة من أحد الأولاد واحتفظ بها لليلة واحدة. وأعادها إليه في اليوم التالي. كان يبكي لأنه أَحْزَنَهُ. عندما تقاعد فتش عن كلّ الذين سبّب لهم الحزن وراح يطلب منهم الصفح. اليوم يعيش في قرية ويُحسن إلى المساكين من أمواله. يخدم أمه العجوز العاجزة الطريحة الفراش والبالغة الخامسة والتسعين من العمر. وكان مشهد جسدها يسبّب له الحزن والقلق وكان يبكي باستمرار. كان وجهه منوَّرًا... كم تعلمتُ من انسحاقه!

– ياروندا! أيمكن أن يضخِّم المرء زلّاته لكي يظهر أنه يقوم بعمل دقيق؟

– هذا موضوع آخر. عندئذ يتكبّر بدافع من التواضع.

ماذا بعد الإعتراف

– يارونداا! هل من الطبيعي أن يشعر الإنسان بثقل بعد الإعتراف؟

– ولماذا تشعرينَ بثقل؟ بالإعتراف الصحيح تنطَفِئُ كلّ الأمور القديمة. تأتي نعمة الله وتحلُّ على الإنسان فيتغيّر كليًا. يغيب الإنزعاج والقلق والشراسة ويحلُّ الهدوءُ والسلام. هذا بالنسبة للداخل. أما الخارج، فإن مظهرَ الإنسان يتغيّرُ بعد الإعتراف؛ لذلك كنت أطلب من البعض أن يتصوروا فوتوغرافيًا قبل الإعتراف وبعده لكي يتأكدوا بأنفسهم من التغيير الحسن الحاصل. وهذا صحيح لأن حالة الإنسان الداخلية تنعكس على وجهه. أسرار الكنيسة تجترحُ العجائب. كلّما اقترب الإنسان من يسوع تألّه وراح يشعر بأنوار النعمة الإلهية.

– يارونداا! هل يشعر الإنسان بالفرح بعد اعتراف صادق؟

– ليس على الدوام. قد لا تشعرين بالفرح للوهلة الأولى، ولكن الفرح سيتولّد في قلبك شيئًا فشيئًا. بعد الإعتراف ثمة ضرورة لمعرفة متفانية للذات، يجب أن تشعري كما يشعر إنسان تُرك له دَيْنٌ فأحسّ بفضلٍ وحمدٍ نحو مَن أحسن إليه. عليك أن تشكري الله وأن تعيشي قول المزمور في كلّ حين: «فإني أنا عارف بإثمي وخطيئتي أمامي في كلّ حين» (مز ٥٠:٣) وذلك منعًا للسقوط مجدّدًا في الخطيئة نفسها.

– يارونداا، قرأت أن الشياطين ستعذِّبنا في الحياة الثانية حتى على فكر واحد سيّء لم نعترف به!

– انتبهي! عندما يتوب الإنسان ويقول للأب الروحي مثلًا إنه غضب، وليس لديه نيّة في إخفاء شيء، عندئذ ينتهي الأمر ولا يكون

للشيطانِ أي سلطان علينا. أما إذا أخفينا عن عمد بعض الخطايا ولم نعترف بها فسنتعذّب من أجلها في الحياة الثانية.

– يارونداا! عندما يعترف الإنسان بخطايا ارتكبَها في شبابه ويظل يفكّر بها ويعاني، فهل يعني ذلك أن هذه المواجهة صحيحة؟

– إن اعترف الشاب بالخطايا بانسحاق فلا داعي للمعاناة لأن الله يكون قد سامحه في اللحظة التي اعترف بها. فليترك «الحراثة» في الخطايا القديمة، خاصة الجسدية منها، لأن ذلك يؤذيه. في الحرب مثلاً تسقط قنبلة يدويّة قرب جندي ولكنها لا تنفجر، وعند انتهاء الحرب يجد هذا الجندي القنبلة التي لم تنفجر ويروح يتفحّصها فتنفجر في زمن السلام.

الثقة بالأب الروحي

– يارونداا! إن وبّخ أحد الآباء الروحيين إنسانًا على زلّة ارتكبها، فحزن واكتأب فهل يدّل ذلك على أنانيّة داخلية عند هذا الإنسان؟

– طبعًا! هناك أنانيّة في داخله. على الإنسان أن يقبل بطيبة خاطر ملاحظات الأب الروحي اللطيفة والقاسية عندما يكشف له أفكاره وسقطاته، لأنها كلّها تتمّ بدافع المحبة والاهتمام بتقدّم هذا الشخص.

– يارونداا! وإن لم يقبل التوبيخ أو الملاحظة؟

– إن لم يقبل ذلك فسيبقى عديم التقويم. من لا يتقبّل الملاحظات من الذين يحبونه سيبقى شخصًا متقلقلاً وينفسد روحيًا من تلقاء ذاته. فكما أن الألواح الخشبية التي لا تتقبّل جلي النجار لتصبح أثاثًا، تُستعمل في قوالب الباطون أو بناء السلالم وتُداس وتتراكم فوقها

الأتربة والوحول وينتهي بها الأمر طعامًا للنيران، هكذا فإن هؤلاء يتحطّمون في النهاية.

– ياروندا! ماذا يفعل أحد الأشخاص إن اختلف مع أبيه الروحي حول موضوع معين؟

– عليه أن يقول ما يفكّر به ببساطة وتواضع. ثم إن اختيار الأب الروحي يتطلّب انتباهًا كبيرًا ليستطيع المرء الوثوق به والاستماع إلى توجيهاته.

– ياروندا! هل على الإنسان أن يُصِرَّ على رأيه إن اختلفت رؤيته للأمر عن رؤية الأب الروحي؟

– كلا! لأنه لا يعلم ما الذي يستتِر وراء ما يعتبره هو غير صحيح. ولكي يفهم الإنسان العمل الذي قام به الأب الروحي، فإن ذلك يتطلّب كشف اعتراف لشخص آخر، وهذا ما لا يجوز إطلاقًا.

لنفترض أن شخصًا تواعد مع أبيه الروحي للالتقاء في مكان محدد في ساعة محددة. وفي تلك الساعة اضطُّر الأب الروحي لمعالجة موضوع يتعلّق بتصميم شخص على الانتحار. هنا يتَّهِمُ الشخص الأول الأب الروحي بأنه تخلّفَ عن الموعد وازدراه. ولكن كيف يبرّر الأب الروحي تخلّفه عن الموعد؟ هل يفسِّر له السبب فيدِّمر الشخص الآخر ويحطّمه! وهناك فرق شاسع بين حزنٍ يتعرض له شخص، وموت قد يُقدم عليه شخص آخر.

جاء إلى القلّاية يومًا شخص بذل ذووه محاولات مُضْنِية لإقناعه بالمجيء. استقبلتُه بفرح وقبّلتُه وقدمت له مسبحة وإيقونات صغيرة. كان المسكين ضالًا ولم يتفهم الآخرون هذا الموقف فاستاؤوا. لم يكن باستطاعتي تقديم تفسير يريح الواحد ويحطّم الآخر.

العلاقة الصحيحة مع الأب الروحي

عندما يشاء الأب الروحي أن يساعد شخصًا، فإنه يحاول أن يربطه مع المسيح وليس مع نفسه، وعندما ينجح بذلك يفرح، فيما الآخر يبدأ جهاده واضعًا نصب عينيه المسيح؛ وبذلك ينال الاثنان أجرَهما وتسير الأمور بانتظام.

كلّ إنسان يقوم بعمل ما ويتطلع إلى هذا العمل من باب الحزن أو الفرح الذي يسبّبه إلى الأب الروحي دون التطلّع إلى المسيح الذي يشاهد هذا العمل، فإنه لا ينتفع لعدم تقبّله النعمة الإلهية. وفي الوقت نفسه فالأب الروحي لا يفرح وكذلك المسيح.

عندما ترتل أخت، وتفكر بالترتيل وهل هو جيد أم لا؟ وهل يُرضي الرئيسة ويفرِحُها؟ فإنها لن تتساعدَ. أما إذا رتّلت للمسيح فإن الأمور تسير عندها بانتظام وسيكون الترتيل جيّدًا وستفرح الرئيسة.

– ياروندا! هل يقع اللّوم على إنسان لم يفهم ما قاله له الأب الروحي فهمًا صحيحًا؟

– إذا لم يفهم لأنه ليس راغبًا في ذلك فهو مذنب. البعض يجعلون إرادتهم إرادة الله.

يسأل أحد الأشخاص أباه الروحي عن مشكلة ما وفي ذهنه ترتسم معالم الحل الذي يريده ويُريحه. يقول له الأب الروحي ماذا يتوجب عليه أن يفعل، فيفهم ذاك من هذا الكلام أن يفعل الشيء الذي يريده هو فينفّذ بفرح ويطيع. وإنْ سُئِل لاحقًا لماذا تصرفت على هذا النحو كان الجواب: «أليس هذا ما قلتَه لي؟»

ولكن على المرء – في مرات كثيرة – أن لا يتقيَّد حرفيًا بما يقوله الأب الروحي؛ فقد يكون له أسلوبٌ في الكلام خاص به. إليكِ هذه الحادثة: معلمةٌ في العقد الرابع من عمرها، متزوجةٌ ولها أولاد، أَغْوَتْ تلميذًا له من العمر ستَ عَشرةَ سنة. غادر الشاب المنزل وسكن مع المعلمة. جاء أبوه إلى القلَّاية متألمًا فَطَلبتُ منه أن يعمل بنصيحة الأب الروحي. قصدَ الوالدُ الأبَ الروحيَّ ثم عاد مجدّدًا ليراني. في ذلك اليوم كان يزورني في القلَّاية ممثّلون عن البطريركية فقلت للوالد: «إفعلْ ما قاله لك الأب الروحي»، إذ لم يكن لدي متسعٌ من الوقت للتحدّث معه. لم يغادرِ الوالدُ وهذا من حسن حظه. ولما تحيَّنت فرصة جلست فيها مع الوالد، أخبرني بأنه مصمِّم على قَتْلِ المعلمة فهذا ما أوصى به الأب الروحي. فطلبت منه أن يتمهّل قليلًا ويخبرَني ماذا قال له الأب الروحي. أجابني: «هذه المرأةُ حَلالٌ قتلُها». وهذا التعبير هو أسلوب في الكلام ولا يعني ذلك قتلَها. ومنذ ذلك الحين لم أعد أقول لأي شخص: افعلْ ما يقوله لك الأب الروحي وإنما صرت أسأله: ماذا قال لك الأب الروحي.

– يارونداا! أيمكن أن يسأل المرءُ المساعدة من الأب الروحي وفي الوقت نفسه يقترح الحل؟

– إيه! وعندها أية مساعدة يطلب! في هذه الحالة لا يحرز الإنسان تقدمًا. وحالته تكون كحالة مريض يقصد طبيبًا ويقترح عليه الدواء الذي يصفه. على المريض أن يطيع الطبيب لا أن يدله على الأدوية التي يصفها له. فالطبيب يصف الدواء حسب المرض الذي يشخِّصُه.

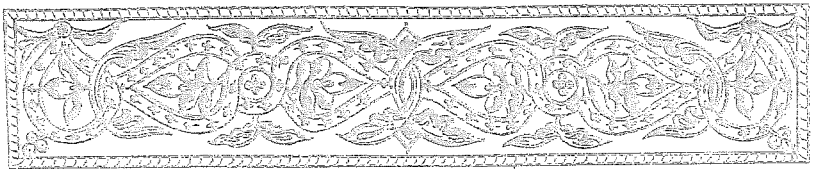

الفصل الثالث
الأب الروحي طبيب النفس

ضرورة الآباء الروحيين الجيّدين

الناس اليوم مُتعَبون ومصابون بالدوار، يستبدُّ بهم القلق ويسيطر عليهم الظلام بفعل الخطيئة والأنانيّة. من هنا، الحاجة الماسّة إلى آباء روحيين جيّدين وذوي خبرة يتقرَّبُون من الناس ببساطة ومحبة واقعية ويقودونهم إلى أن تهدأ نفوسهم. من دون آباء روحيين جيّدين ستفرغ الكنائس من المؤمنين، وستمتلِئُ عياداتُ الأطباء النفسانيين والسجون والمستشفيات. على الناس أن يفهموا، أن سبب عذابهم هو ابتعادهم عن الله، وأن خلاصهم الأوحد هو التوبة والإعتراف بخطاياهم بتواضع.

عَمَلُ الأب الروحي هو علاج داخلي. ليس هناك طبيب أعظم من الأب الروحي الذي يُعيد الثقة بفضل قداسته، ويطرد الأفكار الشيطانيّة، ويشفي النفوس والأجساد من دون دواء، بفضل نعمة الله.

الأب الروحي الذي اقتنى الاستنارة الإلهية وروح الله يُدرك ويميّز الحالات ويوجّه النفوس توجيهًا صحيحًا. وكم هو مفيد

أن يُخصِّصَ لكلّ نفس الوقت الكافي ويقوم بعمله بشكل صحيح متحرّرًا من الارتباطات الكثيرة التي تقيِّده. وبخلاف ذلك، فإنه يعاني ما يعانيه جرَّاح ماهر يقوم بإجراء عمليات جراحية كثيرة فيتعب ولا يستطيع بالتالي أن يقوم بواجبه على خير ما يرام.

من هنا عدم ضرورة انهماك الأب الروحي بحلّ المشكلات العائلية كلِّها، بل يحصر همّه في أمور خاصة تتعلّق بخلاص النفس حتى يتسنّى له تقديم مساعدة فعّالة.

وفي المقابل يجب على الإنسان الذي يعترف أن لا يُشغِل الأب الروحي بمواضيع يمكن حلّها باللجوء إلى آخرين من ذوي الاختصاص؛ كأنْ يسأل عن اختيار المنزل الذي يريد السكن فيه أو اختيار مدرِّس لابنه.

في سر الإعتراف تساعد الحرية الروحيّة كثيرًا من أجل قيادة النفوس. وهذا يعني أن لا يتبع الأب الروحي خطًا معينًا وضعه الآخرون، وإنما أن يعمل بوحي ما قاله الآباء القدّيسون وأن يشتغل وفقًا لحالة كلّ إنسان وسقطته وتوبته.

غير أني ألاحظ أحيانًا عدمَ وجودِ صِدْقٍ. فبعض الذين يتحمّلون مسؤولية النفوس لا يُعيرُون اهتمامًا للمتورِّطين مع السَّحرة والضَّالين، فلا يجالسونهم ولا يتحدثون معهم خوفًا من مشاكل قد تَنْجُم. وهنا يصحُّ طرح السؤال: هل ندعُ الآخر يتحطّم ويفرح الشيطان فلا نتدخل لئلا تسوء العلاقة مع الآخر؟ هل نسعى وراء كلام حلو يُقال عنا فنقف مكتوفي الأيدي؟

خبرة الأب الروحي

– ياروندا! ألا يواجه الأب الروحي – في هذا العصر – مواقف صعبة تنجم عن خطايا كثيرة ترزَحُ تحتها النفوس؟

– بلى! يواجه صعوبة. ومن المستحسن أن يحاول الأب الروحي – بدايةً – تقويمَ الخطايا الأكثر خطورة، وأن يعامل الإنسان برفق مُتَّبعًا في الوقت نفسه أسلوبًا يَدْفَعُ الإنسانَ هذا إلى فَهْمِ زلّاته وطَلَبِ الصفح من الله. ومن الضروري التشديدُ على التوبة عند الإعتراف، وعلى تغيير نمط الحياة لينالَ رحمة الله. كما تبرز أهمية المحبة في مخاطبة الناس ليشعروا بخطئهم فيغيّروا عاداتهم ويتفانوا من تلقاء ذواتهم.

على الأب الروحي الشاب أن يتعاطى مع الحالات السهلة حتى يكونَ قد اكتسب خبرة. فالحالات الصعبة تؤخِّر تقدُّمَه الروحي وتُبدِّدُ كلَّ وقته. فإذا أعطى أهميةً للشجون التي تُثيرها نفسٌ كهذه فإن قواه تصبح معرّضة للإنهيار دون معنى أو غاية. أما إذا اكتسب خبرة فعندها يعرف التمييز بين إهمالِ أمرٍ ما أو إعطائه أهميةً له.

أستلمُ أحيانًا رسائلَ كثيرة فألقي عليها نظرة خاطفة ولا أهتمُّ إلا بالأمور المهمّة، لأن بعض الأمور تكون أحيانًا من الشيطان.

قد يقول قائل: لن أحتاج إلا لدقيقتين من وقتك ويمسِكُكَ ساعةً على الباب، فتضطربُ أعصابُك وتصيبُك الرَّجفةُ ويتصبَّبُ منك العرق وهو مندفع بسرد القصص وكأن شيئًا لا يحدث. تمرضين ولا تستطيعين الصلاة لا من أجلك ولا من أجل العالم.

وقد يأتي إنسان بحاجة حقيقية لمعالجة مشكلة روحيّة لديه ولا تستطيعين تقديم المساعدة.

أما الذين يعانون من مشاكل جدِّية فلا يكفي الاستماعُ إليهم ومعاينةُ آلامهم وإعطاؤُهم «حبة أسبرين». قد يقول أحدهم موضوعًا خطيرًا في دقيقةٍ واحدة لأن السيارةَ ستغادر بعد قليل. وشأنُه هنا كشأن مريض بالسرطان يقول للطبيب: «أَجرِ الآن العملية الجراحية لأن الطائرةَ ستُقلع بعد قليل». ليكن معلومًا أن كلّ مرض يحتاج إلى وقت للمعالجة يتلاءَم وهذا المرض. فلا يمكن إعطاء علاج فوري لمرض خطير قبل دراسة العوارض والنشأة والتطور.

اقتربَ مني أحد المبتدئين في الرهبنة في إحدى الزياحات (Litanie) التي تقام في أسبوع الفصح عندما كنا نصعد في الجبل، وطلب مني أن أحدِّثه عن الصلاة القلبية. أين كان هذا المبتدئ عندما كان يأتي إلى القلاَّية ويُمضي الساعات دون أن يسألني عن هذا الموضوع الدقيق والمهمّ. لقد انتظر سلوك الطريق الجبلية الوعرة وراح يسأل عن هذا الموضوع المهمّ الذي لا يُناقش سيرًا على الأقدام في طريق جبلية.

الأب الروحي هو الذي يعدّد متى يتناول المؤمن

– ياروندا! كَتَب بولس الرسول: «لأن مَن يأكل ويشرب بغير استحقاق (المناولة الالهية) إنما يأكل ويشربُ دينونةً لنفسه» (١كو ١١:٢٩).

– أساسًا علينا أن نتقدَّم إلى الأسرار الإلهية وفي داخلنا شعور بعدم الاستحقاق. المسيح يطلب منا الانسحاق والتوبة، وعند وجود ما يُقلِقُ ضميرَنا وَجَبَتْ تسويتُه. فإذا تشاجرنا مع أحد الأشخاص يجب أن نتصالح معه ومن ثم نتقدّم إلى المناولة الإلهية.

– يارونداا! بعض الناس يُحجِمون عن التقدُّم إلى الأسرار الإلهية مُكْتفين بالبركة مع «الأنديذورون» (القربان الذي يوزع في آخر القداس).

– الإنسان لا يُحدّد بنفسه إن كان سيتناول أم لا، لأن ذلك يُفسح المجال للشيطان لاستغلال هذا الأمر. مرات كثيرة نظن أننا مستحقُّون في حين أن الواقع لا يؤيِّدُ ذلك. وعلى العكس فإننا – بحسب الناموس – نكون غير مستحقين، ولكننا بحسب روحانية الآباء القدّيسين بحاجة إلى تحوّلٍ إلهي، من أجل الشفاء، وإلى تعزية إلهية؛ إذ بسبب الانسحاقِ الكبير الناجم عن التوبة قد يأتي الشيطان ويباغِتنا ويطرحنا في اليأس.

– إذًا، متى يشترك المرء في الأسرار الإلهية؟

– متى يتناول المرء، وكم عليه أن يصومَ قبل المناولة الإلهية أمران لا يُحْجَزان في قالب معين. الأبُ الروحي هو الذي يحدِّدُ متى تَتِمُّ المناولة وكيفية الصوم وذلك وفقًا لقوّة التّحَمّل. وعلى خط مواز يدفعه إلى الصوم الروحي، وإلى الإمساك عن الأهواء، وذلك وفقًا لحِسّه الروحي المرهَف وبعد الأخذ بعين الاعتبار الشرّ الذي يقوم به العدو لطرح نفس حساسة في اليأس. لنأخذ مثلاً على ذلك: سقطات جسدية تستدعي قصاصًا بالإقصاء عن المناولة المقدّسة لمدة أربعين يومًا. وقبل انتهاء مدة القصاص قد يُسقِطُ الشيطان مجدّدًا تلك النفس. فإن فُرض عليها قصاص جديد لأربعين يومًا فقد يجتمع عليها الشيطان ويُتعِبُها ويُفقِدُها الرجاء. في مثل هذه الحالات يستطيع الأب الروحي – بعد انتهاء مدة القصاص الأول – أن يقول: إنتبه واحترسْ لمدة أسبوع واحد ومن ثم تقدّم إلى الأسرار الإلهية. وتتكرَّر عندها المناولة في كلّ قداس لشفاء النفس وإبعاد الشيطان. والإنسان الذي يعيش

حياة روحيّة يتقدّم إلى المناولة الإلهية ويشعر بها كضرورة، وليس من قبيل العادة، وهذا يتمّ بفضل بركة الأب الروحي.

العقوبات والقصاصات

– يارونداا! هل التطبيق الدقيق لوصايا الله يساعد على اقتناء الإحساس بالله؟

– أيةُ وصايا؟ الخاصة بناموس موسى؟

– كلا! وصايا الإنجيل.

– التطبيق الصحيح يساعد لأن المرء قد يطبّق الوصايا بطريقة خاطئة. في الحياة الروحيّة ثَمَّةَ حاجةٌ وضرورة للعدالة الإلهية وليس لقانون يُطبَّق بطريقة جافة. الآباء القدّيسون تحدَّثوا عن تطبيق القوانين المقدّسة بطريقة فيها تمييز كبير. القدّيس باسيليوس الكبير وهو من أكثر آباء الكنيسة صرامةً وواضعُ كتب القوانين الأشد صرامة، يذكر قانونًا يتعلّق بالخطايا ولكنه يُذَيِّله بهذه العبارة: «لا تفحص زمن التوبة إنما الطريقة التي تاب فيها». فقد يرتكب إنسانان الخطأ نفسه، ولكن الأب الروحي – بحسب توبة كلّ واحد منهما – قد يفرض على أحدهما قانونًا بالانقطاع عن المناولة لمدة سنتين وعلى الآخر قانونًا بالانقطاع عن المناولة لمدة شهرين.

– يارونداا! هل يساعد القصاص الإنسان على قطع أحد الأهواء؟

– يجب أن يفهم أن القصاص وُجد للمساعدة، وإلا ماذا بإمكان المرء أن يقول! إن حاولتِ تقويم إنسان بالعصا فلن تستفيدي شيئًا. في يوم الدينونة سيتوجه المسيح نحوك ويقول لك بالنسبة للإنسان الذي

استعملتِ معه العصا: هل أنت ذيوكليتيانوس؟ هل نَخْنُق إنسانًا لكي نرسله إلى الفردوس؟ على العكس علينا أن نساعده ليمارس من تلقاء ذاته عملًا نُسكيًا، وأن يفرحَ لأنه يعيش، كما يفرح لأنه سيموت.

القصاص ليس واحدًا، والأب الروحي هو الذي يفرضه، وبتمييز كبير. فمن يُخطِئ ببرودةٍ ينبغي أن ينالَ قصاصًا صارمًا. أما من يسقط ويتوب ويتواضع ويطلب المغفرة بخجل فينبغي مساعدتُه ليعود فيقترب من الله مجدّدًا. هكذا فعل قدّيسون كثيرون.

القدّيس أرسانيوس الكَبّادوكي لم يكن يفرض العقوبات على الناس بصفته أبًا روحيًا. كان يحاول أن يحرِّكَ مشاعِرَهُم كي يَعُوا خطاياهم ويطلبوا منه من تلقاء أنفسهم وَبِملْءِ إرادتهم ممارسة النسك أو عمل الرحمة أو تعيين عمل صالح يقومون به تعبيرًا عن توبتهم. وإذا ما رأى طفلًا ممسوسًا أو مشلولًا وعرف أن الأهل مسؤولون عن ذلك بسبب خطاياهم، كان يشفي هذا الطفل أولًا ثم يقاصص الأهل لكي ينتبهوا ويُحسنوا التصرف في المستقبل.

يقول البعض: «الأب الروحي «فلان» تقليديٌّ وصارم جدًا، ذكي ويتمتّع بذاكرة قوية ويعرف قوانينَ الكنيسة الأرثوذكسية عن ظهر قلب»، هذا حسن، ولكن يجب الاحتراس دومًا لأن الأبَ الذي يطبّق القوانين بحرفيّتها دون درس وتمييز كلّ حالة قد يؤذي الكنيسة.

تصوَّري أبًا روحيًا يُمسك بيده كتاب البيذاليون (قوانين الكنيسة الأرثوذكسية) ويبدأ: ما هي الخطيئة التي ارتكبتها؟ ماذا كُتب عنها في الكتاب؟ إقصاء عن المناولة لمدة سنتين؟ وأنتَ ماذا فعلت؟ الخطيئة الفلانية؟ ماذا كُتب عنها؟ القصاص التالي...

– إذًا يجب على المرء أن يأخذ بعين الاعتبار أمورًا كثيرة.

– نعم وخاصة في العصر الحاضر. لا يمكن تطبيق القوانين الكنسية بصرامة خالية من التمييز. إنما على الأب الروحي أن يُنَمِّي التفاني في الناس، ويشتغل على نفسه لكي يستطيع مساعدة الآخرين، وإلا فإنه يسحق الرؤوس.

«البيذاليون» – أي الدِّفة – سُمِّيَ هكذا لأنه يقود الإنسان نحو الخلاص، تارة بأسلوب وطورًا بأسلوب آخر. على غرار ما يفعل الربَّان عندما يدير الدّفة نحو اليمين ونحو الشمال ليتجنّبَ العوائق ويصل بالمركب إلى شاطئ السلامة. إن كان يسير بخط مستقيم ولا يستدير عند الضرورة فقد يصطدم المركب بالصخر ويتحطّم ويغرق الركاب. إن كان الأب الروحي يتقيّد بحرفية القوانين دون تمييز بما يناسب الإنسان وتوبته فإنه بذلك يخطئ، وعوض أن يشفي النفوس فقد يُهلِكُها.

صلاة حلّ الخطايا

بعض الآباء الروحيين لا يَتْلُونَ بعد الإعتراف صلاةَ حلِّ الخطايا على شخص يَرَوْنَ بحسب القانون الكنسي أنه لا يُسمَحُ له بالاشتراك في الأسرار المقدّسة. أما البعض الآخر فيتبَعُون نهجًا مختلفًا ويَتْلُوْنَ صلاة الحلّ على كلّ شخص يتقدم للاعتراف ومن ثم يصرفونه مشجعين إياه على التوبة، أو يضعون له قانونًا ليتسنى له أن يتوب ويسترجع علاقته الصحيحة بالكنيسة.

جاء شاب إلى القلّاية ارتَكَب خطايا كثيرة ومضى للاعتراف فلم يقرأ الأب الروحي صلاة الحلّ عليه. وقع المسكين في اليأس واعتقد

أن عدم تلاوةِ صلاةِ الحلِّ يعني أن اللهَ لم يُسَامِحْهُ. ففكر بالانتحار. قلت له: «إمضِ إلى الأب الروحي ليتلو عليك صلاة الحلّ، وإن لم يفعل فتّش عن أب روحي آخر».

إن لم تُتْلَ صلاةُ الحلِّ على إنسان خاطئ، فهذا يعني استمرار هذا الإنسان بالسقوط لأن الشيطانَ لم يخسر قوَّته. كيف تريدين من إنسان أن يحارب والشيطان يملك حقوقه؟ لم يتحرَّرْ بعد، لذلك فإنه يتقبَّلُ التأثيرات الشيطانيّة. وبصلاة الحلِّ تنقطع هذه التأثيرات، ويستطيع عندها – بفضل المساعدة – أن يحارِب ويجاهِد ليتحرّرَ من الأهواء.

الفصل الرابع
عمل الأب الروحي على النفوس

معالجة النفس أمر دقيق

يا روندا! كيف يمكن مساعدة نفوسٍ ذوي شخصيات صعبة وملتوية؟

– بكوني نجّارًا كنت أعالج الأخشاب الملتوية. هذه الأخشاب بحاجة إلى صبر وجَلَد. جَلْيُ هذه الأخشاب على عكس هواها يُعمِلُ فيها انسلاخًا. يجب أن يُجْرَى الجَلْيُ مرة من الطرف الأول ومرة من الطرف الآخر حسب الأصول. عندها تصبح الأخشاب جميلة جدًا بتعريقاتها ومتانتها. والناس ذوو الشَّخصيات الصَّعبة لديهم طاقات داخلية، وإن سمحوا لك بالشغل عليها يَثبُون وَثَبَاتٍ في الحياة الروحيّة شرط تخصيصِ وقت كافٍ لذلك. لم أكن أستعمل مساميرَ طويلةً لجمع خشبتين ملتويتين. كنتُ أُقْدِمُ أولًا على جليهما ومن ثم أجمعهما بواسطة مسمار واحد. فالمسامير الطويلة واستعمال القوّة يؤديان إلى انسلاخ أجزاء منهما.

من هنا ضرورة التمييز وخاصة في التعامل مع النفوس. في الحياة الروحيّة لا وصفةَ طبيةً واحدةً ولا قانونًا معينًا. كلُّ نفس لها قدرتها على الاحتمال وخاصِّيتُها. والموضوع هنا شبيه بالأوعية واختلاف قدرتها على الاستيعاب والاحتمال. عندما يَعْلَمُ الأب الروحي خاصِّية وقوّة احتمال كلِّ نفس، فإنه يعمل وفقًا لقدراتها وصفاتها الموروثة ووفقًا للتقدّم الذي تُحرِزُه. كما أن تصرُّفَه يرتبط بحالة الإنسان المعترف وبالخطيئة التي ارتكبها وأمور أخرى... مع الإنسانِ الوقح، سيكون عليه (الأب الروحي) الانتباه لعدم إعطاءِ حقوقٍ للوقاحة. ومع الإنسان الحسّاس، سيكون عليه مساعدته لمواجهة مشاكله برجولة.

وعليه أن يحترسَ فلا يَبْني حكمًا معينًا على مَظْهَرٍ خارجي، أو يُصغي إلى ما يقوله الناس عن إنسان ما. بعض الأخشاب تبدو متماسكةً من الخارج وهشَّةً من الداخل، وأخشاب أخرى تبدو لِلْعَيان غير صالحة فيما هي من الداخل ممتازة.

إذًا معالجة النفس أمر يتطلّب دقّة ومهارة. ومن المهم وصف الدواء الناجع؛ وهذا الدواء يختلف بين إنسان وآخر.

أن لا نربح أهواء الآخر

– يارونداا! ماذا نقول لإمرأة تصرِّح بأن أباها الروحي لا يفهمها؟

– قلنَ لها: «ربما لا تُعْطِينَه الفرصة المناسبة لكي يفهمك! ربما يقع اللوم عليك!» في هذه الحالة لا تحاولن تبرير التصرف بسهولة. الأمور هي في غاية الدقّة.

– وإن قالت لنا إنها لا ترتاح لأبيها الروحي؟

– ربما تكونُ هي السبب! ربما طَلَبَتْ منه أن يُرِيحَها وذلك بعمل ما يحلو لها. لنفترض أن أحد الأشخاص يعاني مع عائلته من مشاكلَ متعدّدة تدفعه إلى التفكير بالطلاق. يقصِدُني ويعلن تذمُّرَه ويطلب انحيازي إلى جهّته من أجل تدمير عائلته. إن قلتُ له: أنت هو المذنب فسيقول لي: «أنتَ لا تريحني». من هنا ادّعاء البعض أن أباهم الروحي لا يوفّر لهم الراحة، لأنه لا يسمح لهم بأن يفعلوا ما يشاؤون.

إن برَّر الأب الروحي أهواءَ كلِّ شخص فعندها يريح الجميع. ولكن هل تكون المساعدة على هذا الشكل؟ إن كنا نريحُ كلّ إنسان في أهوائه فإننا بذلك نريحُ الشيطانَ. تأتين إليّ، على سبيل المثال، وتقولين إن الأخت «فلانة» توجّهَتْ نحوك بكلام قاسٍ. أَنصَحُكِ بعدم إعارة الموضوع أي اهتمام، فترتاحين. بعد قليل تأتي تلك الأخت وتدّعي أن الأخت «فلانة» قد فعلت كذا وكذا، فأنصحها بألّا تأخذ هذه الأفعال على مَحْمَلِ الجدّ وأريحها أيضًا. وهكذا يرتاح الجميع ولكنهم يزلُّون. وكان الأحرى بي أن أجمع الأختين ليتصارحا وتشعر كلّ واحدة بِذَنْبِها. وعندها تسير الأمور بشكل صحيح، فالراحة الحقيقية تتوفّر عندما يسير الإنسان في الطريق بشكل صحيح.

الغاية هي كيفية الراحة في الفردوس وليس على الأرض. على الآباء الروحيين أن يساعدوا الإنسان في تحديد أخطائه والسلوك باستقامة، وعندها تأتي الراحة الحقيقية. أما أن يُريح الأبُ الروحي الآخَرَ في أهوائه فإنه بذلك لا يساعده إطلاقًا، بل يرتكب بحقّه جريمة.

لكي يستطيع الأب الروحي مساعدة إنسانين يرتبطان بعلاقة، وجب أن يكون على علاقة وثيقة مع الاثنين وعلى معرفة عميقة

لنفسَيْهما. يستمع عندها إلى أفكار كلّ واحد منهما في عرض للمشكلة كما يراها ويفهمها. والحلّ يكون بحسب الإنجيل، وكلّ حلّ آخر هو بمثابة ألم في الرأس لا يهدأ. وعليه أن يضع النقاط على الحروف ويقول لكلّ واحد منهما أخطاءَه فيتفاهمان ويتّفقان ولا يقعان من جديد في الزلّات.

الشيء الوحيد النافع، الذي أَتَّبِعُه في عرض مشاكل الناس، هو أنني لا أبرّر أحدًا مطلقًا حتى وإن كان غيرَ مذنبٍ. تأتي نسوة ويتذمّرن من مواجهة مشاكلَ عائلية يضعْن فيها اللوم على الرجال، فأوبخهنّ. ويأتي رجال ويتذمّرون من تصرّف النساء، فأوّبِخُهم. لا أُريح أفكارهم، ولكنني أكشف أخطاءَهم. أُوضح لكلّ واحد منهم ما يحتاج إليه لينال المساعدة. وبخلاف ذلك، يغادر كلّ واحد مرتاحًا، وفي المنزل يُلقي اللّومَ على الآخر وينشب الخلاف والاشتباك. لا أريح أهواء أحد، على العكس أوبّخ الكثيرين بقسوة فيغادرون وهم مرتاحون فعلًا.

– ياروندا! هل يشعر الناس الذين توبخهم بطمأنينة؟

– نعم فأنا لا أوبّخ بطريقة جافة. أعرض ما لديه (صاحب المشكلة) من صالحات لتنميتها وما لديه من أخطاء لتقويمها. عدم كشف الحقيقة قد يقود إلى الجنون في اللحظة التي يوجَّه إليه فيها الإطراء.

مواجهة حالات اليأس

جاءَني مرة أحد الشبّان وعلاماتُ الحزن تَرتَسِمُ على وجهه، وقال لي: «لا سبيلَ إلى التخلّص من الأخطاء، فهذه أمور وراثية حسب إدعاء الأب الروحي». لقد استبدّ به اليأس. عندما يطرح أحد الأشخاص

مشكلته أُوضّح له السبب وأدعوه إلى فعل كذا وكذا. إن كان شخص يتعذّب من فكر ما ولا يذوق طعمًا للنوم ويتناول الأدوية المهدّئة للآلام فإنني لا أنصحُه بالتوقّف عن تناول الأدوية، بل أشدّد على ضرورة طرح الفكر الذي يعذّبه ومن ثم طرح الأدوية جانبًا. فما نفع الانقطاع عن تناول الأدوية إذا كان الفكر المعذِّبُ مقيمًا في الرأس؟

عنَّف أحد الشبان مرة خطيبتَه وأسمعَها كلامًا قاسيًا، فانفعلتْ وركبت السيارة وانطلقت بسرعة جنونية، فلقيت مصرعها جرَّاء حادث في الطريق. أحسّ الشاب بالشعور بالذَنْبِ لمقتل خطيبته وفكّر بالانتحار. عندما جاء وأخبرني بما حصل عزّيتُه وأعدتُه إلى صوابه. بعد مدة يسيرة خرج هذا الشاب عن جادة الصواب وأصبح لا مباليًا كأن شيئًا لم يحصل، ومال إلى فتاة أخرى. عندما عاد وزارني بعد ثلاث سنوات وبَّخْتُه بقسوة بسبب غيابِ المعرفة للذات. «ألا تفهم! لقد اقترفتَ جريمة قتل وكنتَ السبب المباشر في موت فتاتك!» لو تصرف هذا الشاب تصرّفًا صحيحًا لبقي متألمًا ولنالَ التعزية الإلهية وابتعد عن هذه الحالة من اللامبالاة. إذًا وجب الانتباه. يقترف أحد الأشخاص زلّة ويسيطر عليه اليأس. في تلك اللحظة يمكن تعزيتُه ولكنه بحاجة إلى تفعيل تفانيه الخاص.

ذات مرة جاء إلى القلّاية شاب حدث أن سقط في خطيئة جسدية ولم يعد باستطاعته التحرّر من هذا الهوى، ففقد الرجاء. قصد أبوين روحيين كانا قاسيين في مساعدته على فهم ثقل وطأة ما يفعله، فازداد يأسًا وقرّر قطع كلّ علاقة له مع الله. عندما استمعت إلى مشكلته تألمت من أجله وقلت له: «انتبه أيها الإنسان المبارك لا تبدأ قط بجهاد يفوق طاقتك إنما بجهاد تستطيع القيام به. أتستطيع

الذهاب إلى الكنيسة كلّ يوم أحد؟» أجاب: «أستطيع». «أتستطيع أن تصوم كلّ أربعاء وجمعة؟» – «أستطيع». «أتستطيع أن تزور المرضى أو تُحسن إلى المعوزين بعُشر مدخولك؟» – «أستطيع». «أتستطيعُ أن تصلي مساء كلّ يوم وتقول: يا إلهي خلِّص نفسي؟» أجاب: «سوف أفعل ذلك». فقلت له: «إذًا باشر منذ اليوم بإتمام هذه الأمور التي تستطيع القيام بها والإله الصالح الكلّي القدرة يتولّى القيام بالأمور التي لا تستطيع القيام بها». شعر المسكين بالهدوء وراح يردّد باستمرار: «أشكرُك أيها الأب».

لديه تفانٍ، والإله الصالح ساعده.

قساوة تجاه الوقحين ونساهل تجاه المتفانين

إن كان لدى إنسان نوايا صالحة ولم ينل مساعدة في صغره، فإن التركيز على الصالحات فيه يُريحه فيتغيّر لأنه يستحق المساعدة الإلهية. قلت لأحد الأشخاص: «أنت إنسان صالح فلا يَليقُ بك أن تفعل هذه الأمور». لقد رأيتُ حقلَه الجيّد والبذور الرديئة التي بذرها. رأيت صلاحًا من الداخل والأمور السيئة التي يفعلها من الخارج. لذلك قلت له: أنت صالح لإيقاظ تفانيه ومساعدته.

بعض الآباء الروحيين يُنكِرون المواهب التي يتحلّى بها البعض مخافة أن يتكبروا أو ينالهم الأذى. وفي هذه الحالة ييأس الشخص من الشرّ الذي يقوم به كما ييأس من الصلاح في داخله فلا يقوى على الجهاد بحميّة. أما إذا بَيَّنا له الصالحات ونفخنا فيه روح التفاني والنبل فإنه ينمو ويتقدّم.

عندما أرى موهبة عند شخص ما فإنني أُثني على ذلك، وعندما أشاهد خطأ أتناول لوحًا خشبيًا رطبًا. لا أفكر بالأذى الذي يلحق بالنفس، لأن المحبةَ هي التي تَحْكُمُ تصرّفي في الحالتين.

إن رسمت أختٌ إيقونةً جيّدة فإنني أُثني على عملها، فإن رأيتُ أنها تتكبرُ وتتصرفُ بوقاحة وبّختُها بقسوة ونهيتُها عن ذلك، إذ التكبر يدفعها إلى رسم رسوم كاريكاتورية لذلك ستنال توبيخًا قاسيًا. إن تواضعت، فستقوم بعمل جيد تنال ثناءً من أجله.

لا أحتمل الأمور الملتوية كما أن الأمور المريضة لا تريحني؛ لذلك سأعالجها باستمرار حتى تستقيم.

– يارونداا! كيف يمكن مساعدة وقح يزداد وقاحة بفعل الاهتمام به؟

– إذا كانت محبتي لا تساعده واهتمامي به لا يُجدي نفعًا فإنني أقطعُ كلَّ علاقة معه وأضطر إلى عدم التعامل معه. عادة بقدر ما يُظهرون لكِ من صلاح فإنك تتغيرين وتصبحين لينة؛ هذا ما حدث معي قديمًا مع أحد الأشخاص: اضطُرِرْتُ منذ البداية – من أجل مساعدته – أن أخبرَه بعض الحوادث الإلهية التي عشتها. فبدل أن ينسحق ويشكر الرب على هذه التعزية تصرَّف بوقاحة. عندها اتخذت ضده موقفًا صارمًا وقررت مساعدته من بعيد بالصلاة. فعلتُ ذلك حبًا به وكونها الطريقة الوحيدة التي تساعده.

– يارونداا! وإن فهم خطأه وطلب المغفرة؟

– عندها نستطيع التوصّل إلى تفاهم، وبخلاف ذلك فإنني أقطع كلّ علاقة معه. التقيّ المتواضع لا يتصرّف بوقاحة. **في البداية أتصرّف مع الجميع براحة وبساطة. لا أتصرّف مقيّدًا نفسي، خائفًا**

من أن أهب الشجاعة للآخر فأسبّب له الأذى. أساعد الآخر في مناخ من المحبة يسمح له بالنمو داخليًا ومن ثم أعدِّد له أخطاءه. أعتبر الآخرَ أخًا أو أبًا أو جَدًّا وفقًا لمقتضيات العمر. أحاول أن أُخرِجَ الحشرات والعقارب والأفاعي من أوكارها وأساعده على قتلها. وهذه الحشرات والعقارب والأفاعي هي الأهواء التي تستبدُّ بالإنسان. أما إذا لاحظتُ عدم تقديرٍ أو احترامٍ لتصرفي أو استغلالٍ لبساطتي ومحبتي، وإذا اتَّسم تصرُّفُه بالوقاحة فإنني أنسحب بهدوء...

ذات مرة تبنيت في دير ستوميو شابًا من أجل مساعدته وتعليمه مهنة النجارة. اعتبرتُه أخًا وعاملته معاملة حسنة. غير أنني لاحظت أمورًا لم تسبِّبْ لي الراحة. سألته مرة: «كم الساعة؟» أجابني: «بفضل عقلك يمرّ الوقت بسرعة». عندها قلت لنفسي: «ليس من فائدة في الاستمرار على هذا النحو. سوف أجمع «عقلي» شيئًا فشيئًا كونه لا يعود عليه بالنفع». لو كان هذا الشاب متفانيًا لوجب عليه أن تنسحق نفسه بفضل المعاملة التي أعامله بها. ولكنه لم يفهمني، فغادر من تلقاء نفسه ولم أضطر إلى طرده. أرأيت! طول الأناة والمحبة يجعلان الوقح أكثر وقاحة والمتفاني أكثر تفانيًا.

الصلاح يؤذي الإنسان غير التائب

– ياروندا! أتذكَّر مرةً وبَّخْتَني فيها بقسوة...

– سأُعيد الكَرَّة إن لزم الأمر، لنذهب معًا إلى الفردوس. انتبهي: في البداية أهيّء الجو لكي يفهم الآخر حاجته إلى التوبيخ، ومن ثم

أوبّخه. عندما أرى أحدًا يقترف خطأ كبيرًا فإني أوبّخُه وأصبحُ إنسانًا سيئًا. ولكن، **هل أُريحُ أهواءَ كلِّ إنسان لتكون علاقتي معه حسنة ونذهبُ جميعُنا إلى الجحيم**؟ ضميري لا يؤنّبني مطلقًا عندما أوبِّخُ إنسانًا أو أوجّه له ملاحظة، لأن ما أقوم به هو بدافع المحبة ومن أجل خير هذا الإنسان. لذلك لا أشعر بتأنيبِ الضَّمير وأَمضي للاشتراك في الأسرار المقدّسة دون حاجة إلى اعتراف. على العكس أشعر بالفرح والتعزية اللذين هما خلاص النفس.

– ياروندا! يبدو لي أنك تحدّثني بأسلوب التعزية إما لأنَّني لا أحتمل القساوة في الحديث، أو لأنك طلبت مني القيام بعمل ما ولم أقم به، ولذلك تركتني وشأني.

– **أيتها النفس المباركة، هل سألعب بخلاص نفسك**؟ الشاب يُجري تجارب أما الشيخ فلديه حكمةٌ وتروٍّ. كوني مطمئنة. إن رأيتُ خطأ فيك فلن أسكتَ عنه. عندما أشاهدُ أن النفسَ رهيفةُ الحسّ أو مضطَربةٌ لشعورها بالذَنْبِ أعزِّيها منعًا لسقوطها في اليأس. أما إذا شاهدتُ قلبًا صَلبًا كالحجر فإنني أتكلم بقساوة لكي أهزَّهُ بعنف. ألا أقترفُ جريمةً إن رأيتُ رجلًا يسير نحو الهاوية وطلبتُ منه مواصلة التقدم؟ كيف أتغاضى عن رؤية أمرٍ سيء دون أن أُشيرَ إليه؟ كيف أسمح لنفسي بأن يمضي إنسان إلى الجحيم دون إنذاره وتنبيهه؟ **المسؤولية تدفعك إلى الصراخ أحيانًا. بالنسبة إليّ خيرٌ أن ألزمَ الصمت، ولكن المسؤولية تمنعني من فعل ذلك.**

إذا أسأتِ إليّ فإني أسامِحُك. إن فعلتِ مجدّدًا بي شرًا فإني أسامِحُك من جديد. أسامحك فأرتاح ولكن إن كنتِ لا تتقوّمين بسبب هذه

المسامحة فهذا أمر ثقيل. وإن عجزتِ نهائيًا عن ذلك فهذا موضوع آخر. حاولي أن تتقوَّمي بقدر ما تستطيعين.

قد يُخطئُ المرء، ولكنه يتوبُ ويبكي ويسألُ الصَفْحَ بخجل ويجاهدُ ليتقوّم، وهنا تكمن معرفة الذات. وعلى الأب الروحي أن يسامحه. أما إذا لم يَتُبْ وواصل نهجه، فإن الأب الروحي لا يستطيع أن يبتسم له؛ فالمعاملة الحسنة تؤذي الإنسانَ غيرَ التائب.

احترام حريّة الآخر

- ياروندا! هل قد يحدث أن يُخْفِيَ المرءُ إحدى السقطات عن أبيه الروحي؟

- نعم. ولنفترض أن الأب الروحي قد علم بسقطته فلا جدوى ولا نفع من كشفها. أحيانًا كثيرة أفهم من تصرف شخص ما أنه فعل شيئًا أو تصرَّف تصرفًا معينًا، فلا أقول له شيئًا بداعي الاحترام بل أتركُ له حرية الإقرار بذلك شخصيًا. لن أخبِرَ شخصًا عن خطأ ارتكبه إن لم يُرِدْ من تلقاء ذاته كشفَ الأمر لأنني اعتبر ذلك إكراهًا وإهانة. كيف نمارسُ القوّة على الآخر؟ وما معنى الحرية عندها؟ أتدخَّلُ فقط عندما أرى أن خطرًا يُحْدِقُ به وأن لا سبيل إلى المساعدة من إنسان آخر، فأجد طريقة لتنبيهه أو تحذيره. من الأفضل أن تجعلي الآخر يفهم ذَنْبَهُ، حتى يضرِبَ إنسانَه العتيق من تلقاء ذاته، فيتألم بنسبة أقل.

فالولد الذي يقع على الأرض يبكي، ولكن بكاءه يزداد مرارة إن دفعه ولد آخر إلى السقوط. لا تقل لإنسان أن يفعل شيئًا إن لم تطبق

أنت ما تقول. وعادة أفعل أضعاف ما أقول للآخر أن يفعله وأفكّر دائمًا بكلّ ما قلته.

التوبيخ يحصل دومًا مع إنسان يخصُّك أو على معرفةٍ بك. سيرى الأب الروحي أيةَ حقوق أعطاها له الآخر وأيةَ مسؤولية يتحمّلها نحوه ويتصرف وِفْقَ هذه المعطيات. عندما يتحمل مسؤولية النفس يستطيع اللجوءَ إلى التوبيخ إنما بتمييز بين شخص وآخر. فإن لم يُعْطِك الشخص الحقّ فليس عليك أن توبِّخَه أو تمارِسَ دور المعلم. يشبه الأمر إنسانًا يدخل إلى قُلّايتي ويقلب الأمور والأشياء رأسًا على عقب دون أن يسألَني.

محبة الأب الروحي نحو المتقدِّم إلى الإعتراف

الأبُ الروحي المنعَمُ عليه من الله يحبّ النفسَ ويتألمُ من أجلها لأنه يعرفُ قيمتَها الكبرى. يساعدها بالتوبة ويفرِّجُ عنها بالإعتراف، يحرِّرُها من القلق ويقودُها إلى الفردوس. على الأب الروحي أن يكون أبًا حقيقيًا ينصح بمحبة وعطف، يعيش آلام الآخرين ويضع نفسه في موضعهم المتألم. فالناس، خاصة في هذا العصر، بحاجة إلى ماء زَلال وليس إلى خَلٍّ حاد.

ولما كان الناس يتقبلون التأثيرات الشيطانيّة ولا يتقبلون بسهولة النصيحة أو الملاحظة، وجب على الأب الروحي أن يكشف الزلّة بأسلوب رقيق بابتسامة وأن يوبِّخَ بطريقة ممزوجة بالطرافة والحكمة والمحبة.

المحبة تعلِّم الإنسانَ، أما الأهواء فتخونُه وتُهلِكُه. بغياب المحبة يُبدي الآخر مقاومةً ضد النصيحة أو الملاحظة، بسبب شعوره بالعنصر

البشري في تصرفاتنا. لذا وجب أن يتمّ التوبيخُ بمحبة وأَلَمٍ لكي لا يُحِسَّ الآخرُ بجرحٍ يُصيبُه في العمق. أعرف أبًا روحيًا يلتهِمُ الطعام بحيث مال إلى السمنة ولكنه يتألم ويتواضع لأنه لا يمارس النسك، وبالمقابل فإن كثيرين يرتاحون معه أكثر من ارتياحهم لأب روحي متنسك.

الأب الروحي الذي لا يَعقِدُ العزم على النزول إلى الجحيم محبّةً بأبنائه الروحيين ليس بأبٍ روحيٍّ.

وللآب السماوي الملك والقدرة والمجد،

مع ابنه الوحيد،

وروحه القدوس. آمين

قد تمَّ بصلوات الياروندا:

في عيد القدِّيس كاسيانوس الروماني

٢٨/شباط/٢٠١٣م

يا روندا بابيوس!

عاد الدم يسري في عروقي ويغذي حياتي بفضل صلواتك الحارة وتوسلاتك إلى السيدة العروس وإلى صديقك القديس أرسانيوس الكبادوكي.

واليوم وأنا في الرابعة عشرة من عمري أراني بأمس الحاجة إلى تنقية مجاري عروقي وشرايين قلبي ليتدفق فيها الدم حاراً يبعث الدفء في قلبي ويشعل روحي بالحب الإلهي لأسير دوماً نحو اليمين ولا أنحرف إلى اليسار فيذهب تعبك سدى. لقد تعبت لأكون شاباً يرنو إلى الفردوس حيث الحمل الإله وحيث الحياة الحقيقية نحياها بالدم النقي الطاهر دم الحمل الذبيح.
إني أريد لكل الشباب وخاصة لأمثالي أن نبقى أوفياء فلا نخون هذه الذبيحة فنبقى متحلقين حول هذا الحمل الذي يدعونا إلى العرس الحقيقي.

إني أقدم لك طباعة هذا الكتاب عربون وفاء وشكر عن كل ما فعلته وما تزال تفعله من أجلنا جميعاً آملاً أن تتقبل هذا الشكر وهذا الوفاء لأن بهما تدوم النعم.

غالي ابن الخوري جريج
والخورية ديانا الشاغوري

بدء الصوم الكبير
٢٠١٣م

غالي